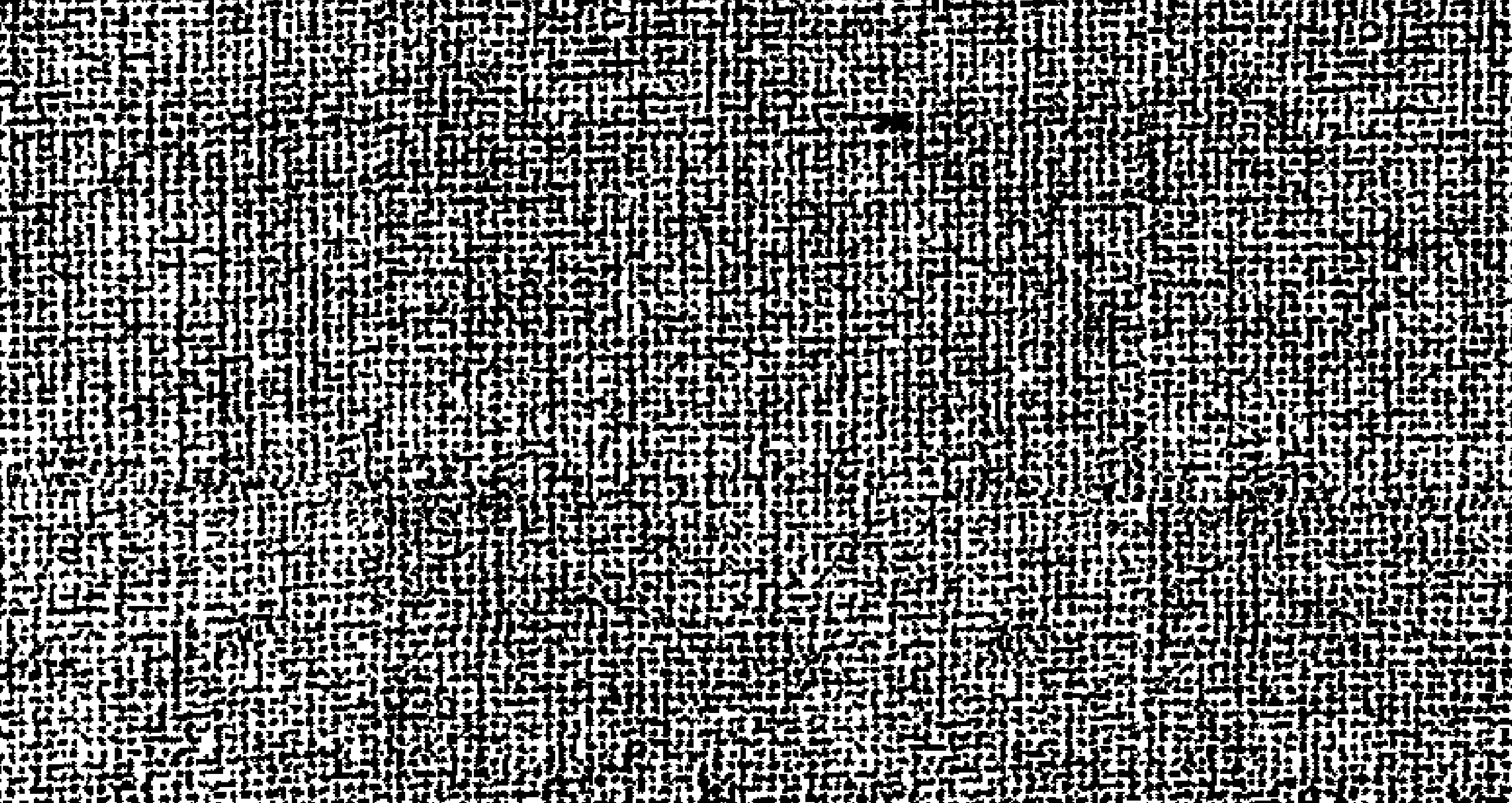
بسم الله الرحمن الرحيم

بحث جديد عن القرآن الكريم

محمد حبيب

دار الشروق



بحث جديد

عن القرآن الكريم

الطبعة الثامنة

١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٩٢٢٣٩٩ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٣١٥١٠١ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد صبيح

بحث جديد عن القرآن الكريم

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه طبعة مجددة ، لهذا الكتاب بعد أن نفدت طبعاته السابقة من عدة أعوام .

والأمر عندنا يتجاوز طبع كتاب ، إلى أفق أوسع وبرنامج أكبر ، شجعتنا على تكريس الوقت وما بقي من العمر لتنفيذه . فالكتاب نفسه مقدمة لدراسة كبرى تنقص المكتبة الإسلامية ، حتى الآن ، عن مسيرة الدعوة الاسلامية في ركب القرآن ، وركب النبوة المحمدية ، خلال أربعة عشر قرناً ، حتى سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ .

لقد عني كتاب غربيون بتدوين المسيرة الاسلامية منذ خطواتها الأولى وتدوينها في مؤلفات متكاملة . ولم تكن دراساتهم كلها خالصة لوجه العلم ، فقد شابها نقص وتحريف ، دعت إليه أسباب دينية ، أو سياسية ، أو قصور عن فهم النصوص والمراجع . وقام كتاب عرب ومسلمون بتدوين دراسات واعية عن تاريخ الاسلام ، ولكنها تناولت مرحلة أو مرحلتين من هذا التاريخ . وهو نفس الدور الذي قام به القدماء من عظماء المؤرخين أمثال الطبري وابن الأثير وابن خلدون . فقد دونوا إلى الوقت الذي انتهت فيه حياتهم .

ولم يكن هذا التفكير في تدوين التاريخ الإسلامي ككل ، مع اضافة التيارات الشعبية والعقلية والروحية ، بالأمر الطارئ علينا . فمنذ

أكثر من ثلاثين سنة بدأت تصدر كتبنا عن أبطال الإسلام ، وهي تكون الآن نواة صالحة لهذا العمل الكبير .

وعندما عرضنا المشروع على الصديق الفاضل الأستاذ محمد المعلم صاحب دار الشروق ، تأمل في الأمر ، وغرق في تفكير عميق ، وإذا به يصل إلى القاهرة فجأة من بيروت ويسأل عن أول هذه السلسلة من « موسوعة تاريخ الاسلام » .

على بركة الله ، وبتوفيقه نبدأ .. وأطول الطرق يبدأ بخطوة والله المستعان ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

محمد صبيح

القاهرة في ١٩٧٧/٢/٢

مقدمة الطبعة السادسة

هذه هي الطبعة السادسة من الكتاب ...

صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٩ [1] ، وكانت ختاماً لسلسلة كتب الشهر عن أبطال الإسلام .. وكان ينبغي أن يكون كتاب عن القرآن الكريم فاتحة هذا المجهود التأليفي ، ولكن الحركة الثقافية قبل ربع قرن من الزمان ، كانت تهيب الخوض في هذا الموضوع ، وتخشاه . فلما مضينا في تأريخ السيرة النبوية ، وتأريخ الحركة الاسلامية في قرن ونصف من الزمان ، تبين أن الصورة الكاملة لهذا النجاح العقائدي الضخم ، لا تتضح إلا بدراسة عن كتابنا الأعظم ، الذي كان الراية المرفوعة فوق رأس الإسلام وشعوبه ، والنور الهادي لهم وهم ينشرون كلمة الحق في كل مكان وصلت إليه أقدام المجاهدين الأول .

وجاء في مقدمة الطبعة الثالثة : القرآن الكريم ، هو أعظم الكتب تداولاً بين الناس منذ عرف الإنسان الكتاب حتى يومنا هذا ، وسيظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. إنه بحروفه وتبويبه ، يوجد في الصين ، كما يوجد في فنلندة ، أو في البرازيل . وما من بيت لمسلم

---

١ — صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب عام ١٩٤٦ ، والطبعة الثالثة عام ١٩٥٧ ، والطبعة الرابعة تعاقدت عليها كتب الشعب ولم تظهر فيما نعلم ، والطبعة الخامسة صدرت عام ١٩٦١ ، والطبعة السادسة عام ١٩٦٤ .

منذ عرفت الطباعة حتى اليوم ، لا توجد منه نسخة أو نسخ من المصحف .
وإذا أحصيت عدد الذين تعي ذاكرتهم شيئاً محفوظاً بين كل الأحياء من البشر ، فإنك تجد حفظة القرآن كله أو بعضه أكثرهم عدداً .

ومن بين كل ما تداول الناس من علم قديم أو حديث ، لا تجد لكتاب تأثيراً في النفوس ، مثلما تجد لآيات القرآن وسوره .

ولقد شغلت حياة القرآن غير المسلمين من الباحثين ، كما شغلت المسلمين أجمعين . ترجمه الأعاجم إلى معظم لغات العالم . وحاولوا تفسيره جهد طاقتهم ، وأحبه قوم منهم ، وكرهه آخرون .. أنشأ له الباحثون القواميس ، تقسم آياته أبواباً ، وتدل على موضع كل آية في سورتها .. وقواميس أخرى لكلمات القرآن تشير إلى مكان كل كلمة في الآية ، ثم في السورة .

هذا الكتاب المقدس ، هو الذي جمع المسلمين حوله ، منذ نزل به الوحي على رسول الله حتى يومنا هذا ، وكان هاديهم ومرشدهم وعاصم دينهم وعقيدتهم من الفتن والمحن .

وفي الوقت الذي هدأ فيه الدعاة ، وتوقفت حركات الغزو ، لم يكف القرآن الكريم عن أداء مهمة نشر الإسلام ، وتقريب المسلمين بعضهم من بعض على اختلاف أقطارهم ، وألوانهم ، وألسنتهم ، ومنزلتهم الاجتماعية ..

هذا هو الكتاب الحي ، الذي تستمد عقائد مئات الملايين من المسلمين حياتها منه .

هذا الكتاب ليس ورقاً وطباعة وجلداً .. ولكنه كائن له حياته الخاصة منذ نزل .

كيف نزل ؟

كيف جمع ؟

كيف اجتمع عليه الناس ، وكيف اختلفوا حوله ؟

ما موضوعه .. ما آياته وسوره .. ما ترتيبه وتبويبه ؟

كل هذه وغيرها مسائل يجب أن تكون حاضرة في أذهاننا اليوم ، كما كانت حاضرة في أذهان الذين سبقونا من أمة محمد عليه السلام .

وإنك إذ ترجع إلى ذلك الكتاب النفيس : (فهرست ابن النديم) تجده يحصي عشرات من الكتب رآها وقرأ فيها ، وموضوعها علوم القرآن . وقد أورد لها بياناً في عشرين صفحة فهو يذكر مثلاً في «لغات» القرآن أسماء ستة كتب : وفي القراءات يورد أسماء اثنين وعشرين كتاباً وأسماء مؤلفيها ، وفي التفسير أضعاف هذا العدد ، وكذلك في غريب القرآن ، وفي نقط القرآن وشكله ، وفي لامات القرآن ، وفي وقفه وابتدائه ، وفي متشابهه وهجائه ، وفي مقطوعه وموصوله ، وفي اختلاف المصاحف ، وفضائل القرآن .. الخ .

وكان ما سجله ابن النديم ، هو نتاج الحركة العلمية حول القرآن في أقل من أربعة قرون . وقد استمرت هذه الحركة من بعده وعظم شأنها . ولم يصلنا الكثير من هذه المؤلفات ، إذ ضاع معظمها في الحروب الصليبية ، وغزو التتار ، والخروج من الأندلس .

وفي عهد العثمانيين فترت الحركة العلمية بصفة عامة . فقد كان الحكم حركة حربية ولم يأبه كثيراً للنتاج العقلي ، ولم يوجد التوازن المطلوب بين الجانبين ، كما صنع الذين سبقوا العثمانيين في المسؤوليات الاسلامية العامة .

وفي القرن الماضي ــ وبعد هذا الانهزام السريع أمام قوات الاستعمار الغربي ، وتراجع كل القوى الاسلامية ، عن مراكزها الأمامية ، أخذت

الأمة تعكف على معين طاقتها الذي لا ينفد ، وهو القرآن ، وسيرة الرسول وأصحابه تستلهمها جميعاً القوة والسداد ... وحول تحركات الجمعيات الاسلامية في اندونوسيا والهند . وفي شبه الجزيرة العربية ومصر وعبر الصحراء الكبرى في أفريقية ، وفي السودان وشرق أفريقية بدت تباشير يقظة كبيرة ، نذكر مثالاً لها محمد بن عبد الوهاب فقد سار على نهج الامام المجاهد (ابن تيمية) ، وجمال الدين الأفغاني ومدرسته ، والكواكبي ، والامام المهدي في السودان ، والسنوسيين في ليبيا ووسط افريقية ، والمرغنية في شرق أفريقية ، والأدارسة والتيجانية والجيلانية في غرب أفريقية وفي أماكن أخرى كثيرة ...

ومن خلال المجامع الصوفية ، والدراسات الشرعية ، والتفسيرات الفقهية ظهرت حركة علمية نشيطة مستندة إلى القرآن وعلومه ، مستهدية بروحه الأصيلة ونبعه الصافي ...

وأخذ الأزهر دوره القيادي ، ومن رجاله الأفذاذ بدأ التطلع إلى آفاق جديدة في حياة الفكر الاسلامي ، نذكر منهم الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا ونذكر منهم الأستاذ فريد وجدي والشيخ الجوهري .. ونذكر من بعد هذا الجيل ، خلف كانوا أكثر حذراً ، وأبطأ خطى ، حتى أني عندما بحثت عما يدرس في كليات الأزهر من علوم القرآن ، وجدت مذكرة جيدة توزع على الطلاب ، ولكنها لا تغني وحدها في محيط البحث العلمي الواسع ...

كان ذلك من ربع قرن فقط ، عندما أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب .

أما الآن فكل شيء يسير إلى أمام ، متعجل الخطا ، متطلعاً إلى آفاق المعرفة لتعويض ما فات .

إن المكتبة العربية أصبحت في أقل من عشرين سنة ، زاخرة

بالتراث الجيد من علوم القرآن ، الذي عكف علماء ثقات على بعثه ونشره . وهي تزخر ـ أيضاً ـ بمئات الكتب الممتازة التي تدور كلها حول القرآن شرحاً ، وبياناً ، واستخراجاً لكنوز المعرفة منه .

وأمامي الآن ومن حولي الكثير من هذه النفائس ، وإني لأستحي ألا أشيد بجهود بعض علمائنا الأفاضل من أمثال الامام مصطفى المراغي والامام شلتوت والشيخ عبد الجليل عيسى والشيخ مخلوف والشيخ الغزالي والشيخ أحمد شاكر والشيخ سيد سابق ، وقد تناولوا القرآن مفسرين وشارحين . وكذلك إنتاج علماء أفاضل متنوعة ثقافاتهم أمثال الأساتذة علي علي منصور وعبد الكريم الخطيب وابراهيم عطوة وعبد السلام هارون وعزة حسن وعبد الحليم النجار ، وجهودهم وحدهم تكون مكتبة قرآنية حافلة . وإن اجتهاد كتابنا الأفاضل في بناء حياة إجتماعية وعقلية فاضلة على أسس من تعاليم القرآن الكريم لأمر جدير بالتكريم نذكر منهم الدكتورة عائشة عبد الرحمن والدكتور محمود حب الله والدكتور محمد البهي والدكتور عبد الحليم محمود والأساتذة خالد محمد خالد وعبد الرزاق نوفل وعيسى عبده .

وبعد هذا كله يجب أن أنوه ، بأن القرآن الكريم ، وتعاليمه ، وسنة رسوله ، وجهاد صحابته لفتت نظر جيل من أساتذتنا الأفاضل الذين تلقينا عليهم منهج البحث وأسلوب الأداء ـ وكانوا نقطة تحول مضيئة مشرقة بالأمل من أوائل العشرينيات حتى الآن ، نذكر منهم الأساتذة عباس محمود العقاد ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد حسين هيكل وأمين الخولي كما نذكر الأستاذ طه حسين .

ولعل ما يقوي يقيننا في النهضة القرآنية ، أننا شهدنا في الأسبوع الذي ندفع فيه هذه المقدمة إلى المطبعة (فبراير سنة ١٩٦٦) ندوة تلفزيونية ،

دارت فيها مناقشة بين الدكتورين طه حسين وعبد الرحمن بدوي ، أولهما يحبذ المصحف المرتل ، والثاني يدافع عن القرآن المجود .. وطبيعي أن يكون للدكتور طه موقف في هذا الأمر ، ولكن الذي يلفت النظر أن يتصدى للتجويد واحد من أكبر أساتذة الفلسفة المعاصرين ، بحيث تكون من بعض اهتماماته العقلية مسألة خاصة بتلاوة القرآن .. وهذا يدلنا ، على أنه مهما اتسع مجال البحث العلمي أمام علمائنا فسيجدون في القرآن الكريم دائماً ما يهمهم ويعنيهم .

والمصحف المرتل ، أمر جدير بأن ننوه به ، فإن استخدام مستحدثات العلم الحديث ، في تسجيل القرآن وإذاعته مسموعاً في أنحاء العالمين ، غير تخصيص موجة مستقلة من محطة القاهرة الإذاعية لمواصلة إذاعة القرآن طوال اليوم ... كل هذا من الأمور التي لم نكن نحلم بها عندما كتبنا كتابنا لأول مرة .

وإلى جانب الحركة العلمية في مصر نجد الكليات الجامعية التي عنيت بعلوم القرآن في العالم العربي كثيرة ننوه منها بجامعات الكويت والعراق والرياض وسوريا وليبيا وتونس والمغرب والسودان . وكذلك تعنى جامعات الباكستان والهند والملايو واندنوسيا عناية كبرى بالعلوم القرآنية .

فإذا أضفت إلى ما تقدم مجمع البحوث الإسلامية ، ومعهد الدراسات الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وإنشاء جامعة الأزهر تحت كنف الأزهر الشريف ، ومدينة البعوث الإسلامية في القاهرة ، فإنك واجد في القاهرة ـ قلب العالم الإسلامي ـ قلعة إسلامية منيعة ترتفع عليها راية القرآن الكريم كما لم ترتفع في وقت من الأوقات .

وهذا كله دفعنا إلى أن نوجه نداء إلى العالم الإسلامي ، في مفتتح هذا العام يدور حول مركز اللغة العربية ، بين الشعوب التي تتعبد بالقرآن الكريم .

اللغة العربية .. والقرآن الكريم

موضوع هذا النداء ، الذي نسجله في مقدمة هذه الطبعة ، من كتابنا ، هو سؤال ومحاولة الإجابة عليه ...

وسؤالنا : لو أن اللغة العربية كانت اللغة التي صاحبت وصول القرآن الكريم إلى الشعوب التي اعتنقت الإسلام ، ألا يكون هذا باعثاً على مزيد من التفاهم والترابط ، واحتمال مسؤولية الحفاظ على العقيدة ، والتقدم في مسالك الحياة ، بصورة جماعية ؟!

ولكي نجيب على هذا السؤال ، ننظر إلى علاقة المسلمين بعضهم ببعض اليوم . إن مواطناً من الخرطوم إذا هو ذهب إلى لاجوس في نيجيريا ، فسيجد من الصعب عليه أن يتفاهم مع أهلها إلا إذا تحدث بالإنجليزية ، أو رزقه الله بمترجم يعرف العربية .. وإذا ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة ، فسيسمع الأذان ، وتكبير الصلاة ، والفاتحة وبعض آيات تؤدى بها الصلاة والتسليم .. كل ذلك باللغة العربية ثم مصافحة نهاية الصلاة ، وتتوقف بعد هذا لغة الحديث مع أكثر الحاضرين إلا أن تؤدى بلغة محلية ، أو لغة أجنبية !

وقل مثل هذا عن أي مواطن من البلاد العربية ، إذ هو ذهب إلى بلد يعيش فيها المسلمون في آسيا .. بل إن إيران والأفغان وتركيا والجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفياتي التي عاشت فيها العربية أكثر من ستة قرون ، لا تكاد تعرف منها إلا آيات القرآن التي تؤدى بها الصلاة ، وفي أضيق الحدود ، وتحية الإسلام . لقد ضاعت اللغة العربية من البلاد

التي أخرجت البخاري ، والطبري وابن سينا ، والغزالي ، وأمثالهم من عظماء المفكرين المسلمين ، وهي لا تعرف العربية اليوم .

بل إن عدداً من أعظم شعراء الإسلام ، مثل جلال الدين الرومي ، وسعدي الشيرازي ، ونظامي ، والخيام ، والعطار ، كان إنتاجهم باللغة الفارسية ..

ماذا أقول ؟ .. بل إن أعظم دعاة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث ، محمد إقبال ، كان معظم إنتاجه باللغة الفارسية ، على الرغم من أنه قرأ القرآن ، وتفاسيره ، واستوحى منه تعاليمه .

ما الذي أدى إلى تقلص اللغة العربية ، من حدود إيران مع العراق حتى تصل إلى المحيط الهادي ؟

ربما كان الغزو التتري أحد هذه الأسباب .. وربما كانت غلبة أمراء الحرب المسلمين من الأتراك والديلم وغيرهم من الإمارات الإسلامية ، ثم غلبتهم على سلطة الخلافة نفسها هي السبب .. وربما كان في غلبة العثمانيين والصفويين والمغول على قسم كبير من العالم الإسلامي وحكمهم له هي السبب .

مهما يكن الأمر ، فقد تقلصت اللغة العربية من أماكن كثيرة ، وكان يمكن أن تعيش مع اللغات المحلية ، لو أن قادة الإسلام ، وحكام أقطاره بذلوا لها عناية خاصة .

والزمن يتغير الآن تغيراً سريعاً ..

لقد رأينا الإنجليز ، وهم يراقبون نفوذهم يتراجع من كل مكان قبل وبعد الحرب العالمية الثانية ، ينشئون « المجلس البريطاني » لكي يعنى بنشر اللغة الانجليزية في البلاد التي كانت مستعمرات لهم . وكذلك صنع الفرنسيون ، وإن مؤسساتهم الثقافية التي تنشر لغتهم في أماكن

كثيرة ، توجد الفكر والإقتصاد الفرنسي حيث يوجد هذا اللسان ..

ونحن على ثقة تامة من أنه لو كان للعثمانيين عناية باللسان العربي ، ونشروه في البلقان ، حيث امتد سلطانهم ، لما استطاعت العوادي التي دهمت إمبراطورية العثمانيين الأوربية ، أن تزعزعها بالسرعة التي انتهت بها ، ولبقي الإسلام نفسه ، وسهل انتشاره في شعوب أكثر ..

ولو أن البعثة التي أوفدتها مصر لتعلم « القبيلة الذهبية » وهي قوة المغول الغازية من بحر قزوين إلى موسكو وكييف والقرم ، وإلى فيينا ، علمت اللغة العربية مع تعليمهم القرآن وقواعد الإسلام ، لما سهلوا على من خلفوا المغول في حكم هذه الأصقاع ، أن يصنعوا ما صنعوه بأهل هذه الأرجاء ديناً ولساناً وقومية .

وهكذا تتوالى دروس التاريخ ...

وما أحوجنا الآن إلى أن نتعلم من هذه الدروس ، وأن يكون لنا نشاط عظيم في تعليم اللغة العربية ؛ من كتاب متداول يوضع في القلوب وعلى الرؤوس بين ٤٥٠ مليون مسلم من غير العرب ؛ ونعني به القرآن الكريم .

إن كل فرد في هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف ؛ سواء كان رجلاً أو امرأة ؛ يحفظ فاتحة الكتاب ؛ ويحفظ سوراً قليلة أو كثيرة يتلوها في الصلاة ؛ ويستمع إلى راديو القاهرة ، وهو يتلو القرآن من مشرق الشمس حتى يجن الليل ويسمع من إذاعته آيات من سورة الكهف أو غيرها تتلى يوم الجمعة ...

وهذه النصوص وحدها كافية ، لكي تكون دليل تعليم للغة العربية نفسها .

إننا لا نريد أن يتحول القرآن الكريم على ألسنة مئات الملايين إلى

رموز وطلاسم لا يفهمون معناها ، ويكون مثلها كمثل اللغة اللاتينية أو اليونانية القديمة أو القبطية التي تتلى بها بعض الصلوات في المسيحية ، تتردد في الكنائس ، ولا يفهم أحد عنها شيئاً غير بعض المتخصصين ..

إن حفظ مائتي كلمة عربية ، ومعناها ، وطريقة نطقها ، وهي في جمل مفيدة ، تكفي لكي يتابع كل مسلم في بلد إسلامي غير عربي ، تعليم نفسه ، وتلاوة مصحفه وما شاء بعد ذلك ..

وليست هذه دعوة لكي تحل اللغة العربية محل اللغات القومية في تلك البلاد ، بل ندعو إلى أن تكون اللغة العربية اللغة الثانية ، التي تجمع المسلم في اندونوسيا مع أخيه المسلم في المغرب ، مع أخيه المسلم في الصومال ، ويستطيعون أن يتفاهموا ويتبادلوا منافع الحياة ، وقبل هذا وذاك يتعبدون عبادة واعية مدركة مسؤولياتها قبل الله والناس .

لقد عاون المسلمون في الهند على إيجاد اللغة الأردية لأبناء هذا البحر المتلاطم من البشر الذي يسكن هذه القارة الهندية . وهي مزيج من السنسكريتية والفارسية والعربية .. ماذا لو أنهم اختاروا العربية بطريق صريح ومباشر ، مع أي لغة هندية يختارونها .

إننا ندعو الراشدين من حكام وزعماء وعلماء ومفكري الأمة الإسلامية إلى المعاونة في إخراج مصحف مفسر يزاد عليه جزء لتعلم اللغة العربية ، بلغة البلاد التي يرسل لها المصحف ، وتضاف له اسطوانات سجلت عليها طريقة النطق والمعاني مع شرح مبسط للآيات التي وردت فيها كلمات وجمل التعليم ..

ونعتقد أن جماهير المسلمين في كل مكان سوف يقبلون على أن يعلموا أنفسهم بهذا الأسلوب ، وبمساعدات يسيرة تقدمها المجامع الإسلامية ، ومراكز التنوير والتوعية في كل مكان ..

ولقد بدأنا فعلاً ـ في القاهرة ـ دراسات ، ومحادثات لإخراج نموذج من هذا الاقتراح بصورة عملية ؛ ببعض اللغات الأسيوية والأفريقية والأوربية ليكون مجال بحث وتطوير .

إننا نحس إحساساً عميقاً ، بأن الخدمة التي يؤديها تنفيذ هذا الإقتراح ، أو أي اقتراح آخر ، يساعد على نشر اللغة العربية بين المسلمين سيكون عملاً مقبولاً من الله ؛ ومن رسوله ، لأنه يساعد على تثبيت قواعد الإسلام ؛ وتعميق الإيمان .

ونحن ، إذ نخرج بهذا الاقتراح من دائرة التفكير ، إلى نطاق التجربة العملية نسمع ضجة جانبية في القاهرة ، وحواراً يدور بين بعض المثقفين ، والبعض الآخر ، حول العامية ، التي يمكن أن تكون مادة لإنتاج أدبي تؤلف به كتب ويقدم به الأداء الفني .

والمقصود باللغة العامية ، هي اللهجة المصرية ، التي أخذت تتراجع تدريجياً أمام انتشار التعليم ، وتنحصر في نطاق يضيق عاماً بعد عام ، وذلك لأن التعليم ما يزال يدون ويؤدى باللغة العربية . ودعاة العامية ، يريدون التشبث ببقايا العامية عسى أن يمتد بها العمر أمد أطول مما يقدر لها أن تعيشه .

وما نحسب أن هذه الدعوة ، قادرة على أن تهز لغة القرآن ، أو تهز القرآن نفسه ...

لقد أدرك أعداء الدين ، وأعداء الإسلام ، أن الحصن المنيع الذي يصد كل مؤامراتهم هو القرآن الكريم .. فحاولوا أن يزيفوا طبعات منه ، يوزعونها في إفريقية ، يبثون فيها سموماً صهيونية ، وهم يريدون أن يجعلوا من لغة القرآن ، لغة تعيش مع الآثار والمتاحف ، وفي أقسام اللغات القديمة ببعض الجامعات ..

ولكن هذه المحاولات ـ على خبثها ـ لن تحجب كلمات الله ، ولن تزيل تأثيرها في نفوس مئات الملايين من المؤمنين ..

وليس لدينا ما نرد به على هذا الإنحراف ، سوى أن نمد نطاق اللغة العربية إلى كل مكان يهتف فيه المصلون « الله أكبر ... » . إلى كل مكان عاشت وتعيش فيه دعوة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وسبيلنا إلى هذا الهدف هو المصحف الموجه ، الذي ييسر في ملاحق مستقلة قراءته ، وذكره وشرحه للمسلمين .

إن المسلمين الأول لم يحسوا بالحاجة إلى أن يكون تعلم اللغة العربية إلزاماً على المسلمين ، بل تركوا تعليم اللغة للممارسة ولحاجات الناس اليومية .

والآن وقد تيسر من وسائل التعليم ، ما لا حصر له ولا عد ، فسيبقى الإلزام غير ضروري ، إتباعاً لسنة السلف ، إلا أن يجمع عليه الأمة ـ وباب الإجماع مفتوح ، ولكن توفر الرغبة العميقة الواعية الشاملة بين أبناء هذه الأمة ، يكفي لتحقيق أهدافنا ، ويكفي لإظهار عزيمتنا على أن نحيا حياتنا ، ويكفي للرد على أعداء ديننا بأننا عازمون على المضي في طريق الجهاد الفكري النبيل ، وبأننا جديرون بحمل هذا الميراث العظيم ، الذي خلفه لنا رسول الله ، وأصحابه الأوفياء ، والذين جاهدوا وجادوا بأنفسهم وأموالهم لرفع كلمته ، وإعلاء مبادئه .

والله المستعان و بمشيئته التوفيق .

محمد صبيح

المحرم سنة ١٣٨٦

القاهرة

ابريل سنة ١٩٦٦

صَوتٌ مِنَ السَّمَاء

— ١ —

رحلة الفجر

الدنيا كلها نائمة ، ومكة من هذا الوجود تنام كذلك نوماً ثقيلاً يسمع له غطيط ، فقد أنفقت يومها هذا في العبث الذي تقضي فيه نهارها كله وصدراً من ليلها ، تسمر وتشعر وتضحك وترقص .. وهذه الأصنام البله تطل عليها من أركان البيت العتيق . لا تدري لم شدوها في مكانها ، ولم يطوفون بها يرقصون ويقفزون عراة حيناً ، ومكتسين حيناً آخر ، كأنما بهم جنة .. وما بهم من جنة إلا أنه الفراغ في الوقت والفراغ في النفس والفراغ في الرأس ، يزين كثيراً من الهزل على أنه جد ووقار .

دنا وقت الفجر ، وأحس الكون لنسائمه الباردة رجفة خفيفة ، فأجاد النائمون في مكة بسط الغطاء عليهم ، إلا أن عيناً في بيت من بيوت هذه القرية لم يزرها الغمض إلا لماما ، فقد ألحت على صاحبها نداءات النفس وهواتف الضمير تدعوه إلى اليقظة فقد آن وقت الرحيل .

وتسلل رب هذا البيت من فراشه خفيفاً وئيداً ، حتى لا تستيقظ زوجه النائمة بجواره ، وأحكم الغطاء حولها ، ثم سار حذراً لا يسمع له حس كأنه الطيف ، والتمس في مكان قريب حقيبة كان قد أنفق قسماً من نهاره في إعدادها ، تعاونه زوجه .

حمل حقيبته ، وهم بالخروج . ولكنه لم ينس أن يلقي نظرة كلها حب وكلها اعزاز على صاحبته التي يغادرها حيث كان ينام . ثم تحسس

طريقه وغادر البيت ولو أنه التفت وراءه وهو يفصل عن الدار . إذن لرأى هذه التي ظنها غارقة في نوم عميق قد رفعت الغطاء عن رأسها وشملته بنظرة فيها كل ما يمكن للنفس الرحيمة المحبة أن تحمل من عاطفة كريمة . وكم كان بود خديجة لو تنهض في هذه الساعة المبكرة لتودع زوجها وتعاونه على حمل متاعه . ولكنها رأت في كل مرة خرج فيها هذا الخروج أنه يكون أكثر اغتباطاً إذا هي أعفته من مشقة وداعها فآثرت أن تتظاهر بالنوم وما هي بنائمة . وآثرت أن تلتزم الصمت وبودها لو تكلمت وقالت لصاحبها الكثير مما بنفسها .

انطلق محمد في هذه الساعة المبكرة يحمل حقيبته حتى جاز مكة . وصعد في طريق سهل أوله . ثم يأخذ في الالتواء وفي الضيق وفي الارتفاع . ولكنه مع هذا لم يحس مشقة في المسير ولا في التصعيد . فقد قطع الطريق مرات ومرات قبل هذه المرة وإن به لشوقاً إلى مكان يؤثره على غيره من الأمكنة كلها . وان به لهوى إلى هذا الغار الذي يقطع في الوصول إليه من مكة ثلاثة أميال . وكأنها ثلاثة أشبار . ويصعد إلى سفح الجبل مستعيناً بالصخرة الناتئة حتى إذا وصل ، ألقى عن عاتقه الحقيبة في رفق . وأطل من فم الغار إلى هذا الوجود المنبسط تحت قدميه فيرى الصحراء وقد بدأت عيون الفجر ترنو إليها فتبعث على وجهها ضوءاً خفيفاً يزيدها رهبة وفتنة .. ويستنشق محمد نفساً طويلاً كأنما يريد أن يسكب في نفسه ما يحيط به نظره من جمال وجلال .

وأنه ليدير بصره حوله . حتى إذا وقع على مكة في غطيطها انقبضت نفسه . فلطالما أحس الضيق الشديد من هذه الساعات وهذه الأيام التي أنفقها فيها . ولطالما سخط على ما كان أهلها يغرقون فيه من عبث وجهالة ومنكر فادح .. ولطالما عذبه الشك وأرقه الليالي الطويلة وهو يفكر في شئون قومه ؛ فلا يراهم ينتهون من ضلال إلا ليصلوه بضلال جديد ..

ولم تكن في مكة نقطة تستريح لها نفسه إلا هذا البيت الذي يأوي إليه وتعمره زوجه خديجة بحنانها ومحبتها .. لطالما فر من مجون قومه الذي كان يجرح عقله وقلبه إلى صدرها يبثها شكواه فتمسح أحزانه بيديها الرحيمة ، وتأخذ في سرد هذه القصص التي كانت تسمعها من ابن عمها ورقة بن نوفل الذي غادر الحجاز مع صاحب له [1] وطوف ببلاد النصرانية في الشمال ، وسمع عن الأحبار ، وأخذ عنهم وكتب انجيلهم .

أنفق محمد وقتاً غير قصير وهو في مكانه المرتفع ، حتى غمر الكون ضوء الفجر الأبيض ، وكادت الشمس تبين من وراء الأفق البعيد ، فانثنى إلى مكانه ، فوقع نظره على حقيبته ، فأقبل عليها يخرج ما بها من طعام .

ولم يكن طعام محمد الذي يفضله يتجاوز الخبز وأدما من اللبن واللحم والتمر .

قال الرواة : لا ندري كم يوماً أنفق محمد في هذه المرة التي خرج فيها إلى غار حراء يتحنف . ولكنه على كل حال لم يزد مرة على شهر من الزمان . فان الطعام الذي كان يحمل ما كان ليكفيه أكثر من شهر .. ثم إنه كان بحاجة لأن يرى زوجه وأسرته . وأن يعلم أنباء قومه .

وقال العلماء : لا ندري أكان يتعبد في مقامه بالغار على شريعة أم كان يتعبد على غير شريعة .. فان كانت الأولى فبشريعة من كان قبله من الأنبياء : شريعة ابراهيم ومن جاء بعده من الرسل

ولكن ما حاجتنا إلى أن يختلف العلماء في هذه العبادة وعلى أي الطقوس كانت تسير .. وهل كان محمد ــ وقد وهبه الله العقل الراجح

---

١ ــ زيد بن عمرو بن نيفل .

الذي يزن الوجود كله ـ بحاجة إلى علم خاص ليدرك عن طريقه كيف يتصل بربه ؟ لقد فتح الكون أمامه ـ وهو في مقامه بالغار ـ كتابه كله . وعرض عليه صفحته . وترك له أن يقرأ ما يشاء ... فقرأ عن عظمة هذا الكون ما ملأ نفسه إكباراً ورهبة وشوقاً إلى معرفة منشئه . وهدته فطرته السليمة إلى أن مبدع هذا الجمال وهذا الوجود الذي يمتد تحت قدميه أرضاً تقوم عليها الجبال وتنبسط فيها السهول : منها ما يزرع ومنها ما تغمره الرمال ومنها ما تشقه الأنهار .. هذا الوجود الذي يرتفع فوق ناظريه فإذا هو سماء تكاثرت فيه النجوم التي لا يحصيها عدد . وتقاطرت الكواكب التي تسبح من هذا الأفق إلى ذاك . ومنها القمر المضيء. ومنها الشمس ذات الدفء واللهب .. أقول هدته الفطرة إلى أن مبدع هذا الكون ـ وهذه بعض آياته ـ لا بد أن يكون الهاً أسمى كمالاً من هذه الأحجار التي ينظر إليها قومه عابدين . وهي لا تعز ولا تذل ولا تفيد !

لقد امتلأت نفس محمد في خلواته هذه الطويلة المتكررة في الغار . بمعنى ظل حبيساً يتردد في صدره ولكنه يضغط عليه . وامتلأ عقله بآراء وبوده أن يخرجها للناس كلاماً . ولكنه يحس أن الوقت لم يجئ لكي يذيع ما هداه اليه تفكيره : وما تفتح له فؤاده .

حجبت الغشاوة أعين الناس جميعاً . في هذه القرية وفي غيرها من القرى . إلا شخصاً واحداً ارتفعت عن عينيه الغشاوة ، فرأى وبهره ما رأى ، وشاهد فكان ما شاهده جليلاً رائعاً .. وكان هذا الشخص هو محمد بن عبد الله .

* * *

وحدث ذات مرة ...

حدث ، ومحمد ينفق وقته في الغار ، وقد تحركت في نفسه كل القوى ، وأحس أنه في أمس الحاجة إلى أن يتكلم وأن يفصح .. رأى أن

يستريح قليلاً قبل أن يعود إلى بيته فأدركته سنة خفيفة من النوم .. وأحس أن الغار قد زاد سكوناً على سكونه ، وأن شيئاً جديداً حدث فيه أو يوشك أن يقع ، وتطلع حوله في دهشة فلم ير شيئاً ، فعاد إلى فراشه وأدركته سنة من النوم من جديد ، ولكنه سمع صوتاً كأنما يأتي من بعيد .. من أقصى مكان يتخيله الانسان لما فيه من عمق وما فيه من رهبة ، ولكنه كان واضحاً مسموعاً لديه ، كأنما ينطق لينقش على هذا الصخر من شدة نفوذه وتأثيره ..

قال له الصوت :

ـ اقرأ .

فنظر النبي في منامه فإذا بشيء يشبه اللوح قد سطرت عليه سطور لم يفقه منها شيئاً .. فقال في صوت به رجفة :

ـ ما أقرأ ..

وطاف بذهن محمد أنه الموت قد أقبل ، وأن الساعة قد دنت . فأغمض عينيه يستقبل قضاء الله ، ولكنه أحس بكائن يحيطه ويضغطه ضغطاً شديداً ، ثم يعود فيقول له بالصوت نفسه ، ولكن أكثر وضوحاً ونفوذاً :

ـ اقرأ ..

فيجيب محمد على عجل :

ـ ما أقرأ ..

فيعود الكائن صاحب الصوت إلى ضغطه بالشدة نفسها ، حتى لكأنها كربة الموت تطيف بالبدن . ويعود الصوت مردداً :

ـ اقرأ ..

فيتكرر الجواب ويتكرر العمل وفي المرة الثالثة يجيب محمد :

ــ ماذا أقرأ .. ؟ وهو يهمس في نفسه : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي .

فيقول له الصوت : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .. ﴾ .

فردد محمد هذه الألفاظ على عجل . وانصرف عنه هذا الطارق الذي ألم به في نومه . فهب من فراشه ينظر حوله فلا يرى شيئاً ، ولكنه يذكر ما كان فيه منذ لحظة فإذا هو واضح في نفسه كأنما كان في أتم يقظته ... روى عن نفسه فقال :

« فانصرف عني . وهببت من نومي فكأنما كتبت على قلبي كتاباً . فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول :

يا محمد . أنت رسول الله . وأنا جبريل .. فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول :

يا محمد . أنت رسول الله ، وأنا جبريل .. فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي .. »

* * *

ترى ما شأن هذا الذي ألم به ، ومن جبريل الذي ناداه ، وأسماه رسول الله ؟

إن محمداً عليه السلام ليسير مع خدمه إلى بيت خديجة . ويذكر

أنه لم يناده مناد ، قبل يومه هذا ، يجهل طبيعته وكنهه إلا مرة واحدة .. فقد حدث ، وقريش تبني الكعبة ، أن كان يشترك معهم في نقل أحجارها من أجياد ، وكان رفيقه في عمله عمه العباس ، وكان من عادة القوم أن يضع الواحد منهم ازاره على عاتقه ليحمل عليه الحجارة .. فما أن رفع عليه السلام ازاره حتى عثر وسقط على الأرض وسمع صوتاً يناديه من بعيد أن يسبل ازاره ففعل ونهض ــ وهو في دهشة من أمره ــ وحمل الحجر على عاتقه من غير وقاء ، فنبهه عمه إلى ما يصنع ، ولكنه أبى أن يرفع الازار بعد أن سمع هذا الهاتف من بعيد[1] .

هذه هي المرة الوحيدة التي سمع فيها صوتاً مجهولاً يخاطبه . ولكنه كان في تلك المرة شيئاً لا يستوقف النظر ، أما الآن فقد اقترن الصوت بعمل .. وهذا هو يحفظ ما أمره الصوت أن يقرأ ، وهذا هو يردد بلسانه : « إقرأ باسم ِ رَبكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بالقَلَم عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

كان رسول الله يسير إلى بيته لا يحس بهذه الأميال الثلاثة التي يقطعها .. لقد كان غائباً وهو معهم . وكانت أصوات الملك الذي سمى نفسه جبريل تسد عليه أقطار نفسه ، وتصرفه عن التفكير في كل شيء غيرها .

وما أن وصل إلى بيته حتى ألقى بنفسه في حجر زوجه خديجة ملتصقاً بها ، وأنفاسه تتردد في صدره على عجل ، وهي في دهشة من أمره .. فلقد خرج قبل اليوم مرات ، ولقد أنفق من الوقت في حراء مثل ما أنفق هذه المرة ، ولكنه كان يعود لها مشرق الوجه ، ضاحك الثغر .

ترى ما بك يا محمد .. وهل ألم بك حادث جلل ؟

---

١ ــ الزرقاني على المواهب ص ٢٠٦ جـ ١ .

أخذت خديجة تخاطب زوجها حتى تنبه لها وأفاق . قالت له في صوت رحيم يسيل رقة وعذوبة :

ـ يا أبا القاسم .. فنظر إليها .. فرددت :

ـ أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي ؟

فأخذ يحدثها ، بما سمع وبما رأى ، ويتلو عليها الآية التي نقشت في ذهنه . وكان عليه السلام يطالع في صفحة وجهها الاطمئنان له والفرح به . فيعود إليه هدوءه . فلما انتهى من قصته قالت له :

ـ أبشر يا ابن عم ، واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة !

ولم تتمهل خديجة ، فأشارت على زوجها بأن يستريح فهي خارجة إلى بعض شأنها ولا تلبث أن تعود . وجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، قريبها الذي تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما رآه صاحبها ، وبما سمعه . وكان ورقة يصغي إليها في عجب . فلما انتهت من قصتها هتف بأعلى صوته ، وهو الشيخ المسن الذي ضاع بصره :

ـ قدوس .. قدوس .. والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت .

فرجعت خديجة على عجل إلى زوجها متهللة الوجه فرحة ، وأخبرته بما سمعت من قريبها . فحمد ربه حمداً طويلاً ، وخرج بدوره يطوف بالكعبة .. وبينما هو في طوافه لقي الشيخ ورقة ، فحدثه وسمع منه .

* * *

وكان رسول الله يوم نزل عليه القرآن في الأربعين من عمره على أرجح الأقوال[1] وكان أول نزول الوحي في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان . وقيل لسبع ، وقيل لأربع وعشرين . وعند ابن عبد البر والمسعودي بعث يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل .

وإن اختلف في تحديد يوم نزول القرآن فهناك اتفاق تام على أنه كان في يوم الاثنين ، وأن الشهر كان شهر رمضان .

روى مسلم عن أبي قتادة : أن النبي سئل عن صوم الاثنين فقال : « فيه ولدت وفيه أنزل عليّ » .

وقال ابن اسحق : « فابتدئ رسول الله بالتنزيل في شهر رمضان » . يقول الله عز وجل :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَان » .

وقال تعالى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدرِ ، وَمَا أَدرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدرِ ؟ لَيلَةُ القَدر خَيْرٌ مِن أَلفِ شَهرٍ ، تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمرٍ ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطلَعِ الفَجرِ » .

وقال تعالى :

---

١ — هذا ما رواه ابن عباس وأنس في الصحيحين . ولكن الواقدي قال : « وهو في الثالثة والأربعين » . وفي تاريخ يعقوب عن مكحول أن القرآن نزل والنبي في الثانية والأربعين . وبذا يكثر الخلاف حول المدة التي أقامها النبي بمكة بعد البعثة . فهي من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، ولكن القول الراجح أنها ثلاث عشرة سنة .

« حٰمٓ وَالكِتَابِ المُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ، فِيهَا يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حَكِيمٍ ، أمراً مِن عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرسِلِينَ » .

وقال تعالى :

« إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ وَمَا أنزَلنَا عَلَى عَبدِنَا يومَ الفُرقانِ يَومَ التَقَى الجَمعَان .

وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ببدر ، وكان لقاء بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

* * *

هكذا نزل الوحي على رسول الله ، وانطلق لسانه بالقرآن الكريم . ولقد سبقت الوحي فترة من الزمن ممهدة له . هي فترة الرؤيا الصادقة .. وذلك أن رسول الله كان يرى في منامه أشياء تصدق في عامة يومه . روت عائشة أم المؤمنين : « أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة » وذكر البيهقي أن مدتها ستة أشهر .

ويفهم من حديث الرؤيا الصادقة أن رسول الله كان قد وصل نفسياً إلى درجة من الشفافية تسمح للوحي بأن ينزل عليه ، وأن يلقنه القرآن فيحفظه من فوره .. أو كما ذكر رسول الله في حديثه : « .. فكأنما كتبت في قلبي كتاباً » ، إذ أن سرعة الفهم وسرعة الحفظ لا بد أن تكونا شرطاً أساسياً لنقل كلام الله ، ولتلقينه للناس ..

وقد ألقت المتصوفة الانجليزية « اني بيزانت » محاضرة في الهند عن رسول الله ، عرضت فيها هذه الفترة من حياة النبي السابقة لنزول الوحي بقولها :

« بينما كانت حياة محمد الداخلية على هذه الحال من النفع والطيبة

والمعونة ، أتدري ماذا كان عليه في حياته الباطنية ؟ . آه .. من ذا الذي يستطيع أن يصف تلك الأعاصير من الهم والكمد التي كان يكافحها هذا النبي المقبل ، ويبعدها عنه في الصحراء المحيطة به .. التي كان ينازع فيها نفسه بنفسه ؟ من ذا الذي يستطيع أن يصف واحدة من هذه المعارك الباطنية التي لا يعرفها إلا الرجال المخصوصون بالوحي الالهي ؟ فكان محمد ـ وقلبه مجال هذه المعارك ـ يفزع إلى الصحراء كلما اشتدت حملاتها عليه ، وظل على هذه الحال الشهور تليها الشهور ، حتى بلغت خمس عشرة سنة . فكان يأوي إلى غار في وسط الصحراء وحيداً ساكناً متأملاً راجياً الله ، والشك المرير في نفسه يحيق به ، سائلاً نفسه عن الرسالة التي كان يتوقعها حتى سمع صوتاً يناديه :

« اقرأ باسم ربك ... » فأجابه « ما أنا بقارئ ! ! » ..

« أيتكلم وهو عرضة لتيارات الشكوك والهموم ؟ » ..

« مضت على محمد في هذه الحال خمس عشرة سنة ، وهي حال من الكفاح والنزاع لا يقدرها حق قدرها إلا الأقلون ..

« ولكن حدث ذات ليلة صافية الأديم ، أنه بينما كان مستلقياً على الأرض ، غارقاً في همومه وآلامه ، أن غشيه نور نزل اليه من السماء . وإذا بملك كريم واقف أمامه يدعوه إلى النهوض ليبلغ رسالة الله للناس . وأخذ يعلمه ما ينبغي عليه أن يعلم ..

« فهذا الرجل الذي كان أشد الناس اعتزالاً للناس أصبح مصدر حياة أمة برمتها ، وقد أمر أن يذهب إليها بنفسه ، وأن يختلط بها ويكلمها باسم مولاه ، باسم الله ...

وهرع إلى زوجه خديجة يقص عليها قصته ، فأجابته بصوتها الهادئ المتزن بما قوى عزيمته وثبت إيمانه . وقد نهض من عند خديجة وهو شاعر بأنه غير ما كان عليه في أمسه .. بأنه ليس رجلاً من عامة الناس ، ولكنه

نبي سيجعل من بلاد العرب مملكة منظمة ودولة مهيبة يحمل خلفاؤه منها إلى أوربا مشكاة العلم التي تشتعل فيها . وأنهم سيؤسسون أمبراطوريات ضخمة ، وأنهم سيقومون أمام الله بعبادات قوية ليس لها نظير في أي دين آخر » .

ثم تستأنف « بيزانت » محاضرتها قائلة :

« نعم فانه لحق على هؤلاء الذين لا يتبعون دين هذا النبي العربي أن يثقوا من أن ليس بين الأديان البشرية دين يوحي إلى معتنقه عقيدة أشد صحة ولا أكثر تعلقاً بنفس صاحبها من الدين الذي نطق به النبي العربي . .

« وإذا صح ما يقول الفيلسوف « بين » من أن العقيدة تثبت صحتها بسيرة أهلها فتأمل في المسلمين ، وانظر كيف تتحكم أقوال محمد إلى اليوم في أعمال الناس . .

لا يوجد مسلم في الأرض يخجل من السجود في الصلاة وإن كان حوله حشد من الساخرين الذين يكرهون الاسلام ونبيه . أنظر إلى أي حد قهرت عقيدة الاسلام كل شعور بالخوف من الموت عند المسلمين : فأين تصادف بطولة مثل هؤلاء « الدراويش » الافريقيين الذين اقتحموا ميداناً سلطت عليه بنادق كابلنج ، ووقعوا صفاً بعد صف قبل أن يصلوا إلى أعدائهم سائرين إلى الموت ، كما يسير غيرهم إلى خطيباتهم من النساء . . كل ذلك محبة لنبيهم ومرضاة لله ؟ » .

— ٢ —

الـوحي

عن ابن اسحق عن خديجة أم المؤمنين :

قالت لرسول الله :

ـ أي ابن عم .. أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا « جبريل » الذي يأتيك إذا جاءك ؟

فقال لها محمد عليه الصلاة والسلام :

ـ نعم .. فقالت :

ـ فاذا جاءك فأخبرني به .. فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع ، فقال رسول الله لخديجة :

ـ يا خديجة . هذا جبريل قد جاءني .. قالت :

ـ قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى .

فقام رسول الله فجلس عليها .. قالت :

ـ هل تراه ؟ قال :

ـ نعم .. قالت :

ـ فتحول فاجلس على فخذي اليمنى .

فتحول النبي فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت :

ـ هل تراه ؟ .. قال :

ـ نعم .. قالت :

ـ فتحول فاجلس في حجري .

فتحول رسول الله فجلس في حجرها .. قالت :

ـ هل تراه الآن ؟ قال : نعم .

فتحسرت ، وألقت خمارها ـ ورسول الله جالس في حجرها .. قالت له : هل تراه ؟ قال : لا .. قالت :

ـ يا ابن العم أثبت وأبشر . فوالله أنه لملك وما هذا بشيطان .

ولعل خديجة كانت قد سمعت من قريبها ورقة بن نوفل بعض ما يعلم عن شئون الوحي ، فأرادت أن تختبر وحي رسول الله ، بأن عرضت نفسها في حالة خاصة فزالت الصورة التي كان يراها النبي .

ويفهم من مراجعة السيرة النبوية أنه كانت للوحي حالات :

منها أنه كان يأتي كالرؤيا في المنام . وقد سبق لإبراهيم عليه السلام أن رأى في منامه أنه يذبح ابنه فصدق ما رأى وهم بتنفيذه . وكان أول نزول الوحي على رسول الله في غار حراء ، وتلقينه سورة القلم ، رؤيا ، لأنه كان في سنة من النوم .

والصورة الثانية للوحي ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه .. وهذا يفهم من معنى الكلمة اللغوي ، إذ أنها تدل على الإعلام في خفاء وسرعة . وفي هذه الحال كان النبي لا يرى شيئاً ، ولكن كان يحس أن معنى جديداً وعاه قلبه في صورة مخصوصة . وكان عليه السلام يقول : « إن روح القدس نفث في روعي : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .. والروع في هذا الحديث معناه النفس ، وروح القدس هو جبريل .

والصورة الثالثة من صور الوحي أن يظهر له الملك في هيئة رجل يخاطبه حتى يعي النبي عنه ما يقول . وكان كثيراً ما يأتي في صورة دحية

الكلبي[1] . ونزول الوحي في صورة هذا الصحابي كان بعد الهجرة ، إذ أن دحية لم يسلم إلا بعد بدر . ومما يذكر أن دحية هذا كان رجلاً وسيماً جميل الصورة ، وقد اختاره النبي لاحدى سفاراته إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام .

والحالة الرابعة التي كان يأتي فيها الوحي للنبي مثل صلصلة الجرس . وكانت هذه الحالة أشد ما يعانيه النبي حتى أن جبينه كان يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به في الأرض . ولقد جاءه الوحي كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .. روي عن زيد بن ثابت قال : « كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا نزل أخذته برحاء (آلام تشبه الحمى) شديدة ، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان ، ثم تسري عنه وكنت أكتب وهو يملي عليّ ، فلما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل الوحي حتى أقول لا أمشي على رجلي أبداً ، ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد أن ينكسر عضد ناقته .

وعن عمر بن الخطاب : كان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي سمع عنده دوي كدوي النحل :

وعن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله . كيف يأتيك الوحي ؟ فقال النبي « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً .

---

١ — دحية كلمة بلغة حمير معناها رئيس الجند . واسم هذا الصحابي « دحية بن فضالة ابن فروة » من قبيلة كلب .

والحالة الخامسه التي روي أن الوحي ظهر فيها ، هي أن يرى النبي جبريل في صورته التي خلق عليها . وقد استدل على هذه الرؤية بما ورد في سورة النجم :

« وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرَى عِندَ سِدرَةِ المُنتَهى » .

وقد أورد ابن القيم حالتين للوحي غير ما ذكر : احداهما التخاطب المباشر كما كلم الله موسى ، والأخرى ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها . ولم نر فيما بين أيدينا من مراجع ما يؤكد حالة التخاطب المباشر . والحالة التي تليها يمكن أن تفهم مما سبق أن ذكرنا .

* * *

ولقد ورد ذكر جبريل في القرآن في سورة البقرة :

« قُل مَن كانَ عَدُوًّا لِجبرِيلَ فإنَّهُ نَزَّله عَلَى قَلبِكَ بإذنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَيهِ وَهُدى وَبُشرَى لِلمُؤمِنين ، مَن كانَ عَدُوًّا للهِ ومَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبرِيلَ وَميكالَ فإنَّ اللهَ عَدُو لِلكَافِرِينَ » .

« روي أن عبد الله بن صوريا من أحبار فدك (اليهود) حاج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأله عمن يهبط عليه بالوحي فقال : جبريل . فقال : ذاك عدونا ولو كان غيره لآمنا بك ، وقد عادانا مراراً ، وأشدها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخربه بختنصر فبعثنا من يقتله ، فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً ، فدفع عنه جبريل وقال : إن كان ربكم أمره بهلاككم فانه لا يسلطكم عليه ، وإن لم يكن أياه فعلى أي حق تقتلونه » .

وروي أنه كان لعمر رضي الله عنه أرض بأعلى المدينة ، وكان ممره

على مدراس (كنيس) لليهود ، فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم ، فقالوا : يا عمر أحببناك وانا لنطمع فيك . فقال : والله ما اجيئكم لحبكم ولا أسألكم لأني شاك في ديني . وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره في كتابكم . وقد سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وهو صاحب كل خسف وعذاب . وأن ميكائيل يجيء بالخصب والسلام فقال لهم : وما منزلتهما من الله تعالى ؟ قالوا : أقرب منزلة : جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، وميكائيل عدو لجبريل . فقال عمر : لئن كان كما تقولون فما هما بعدوين ولأنتم أكفر [1] من الحمير . ومن كان عدواً لأحدهما كان عدواً للآخر . ومن كان عدواً لهما كان عدو الله . ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فقال النبي عليه السلام : « لقد وافقك ربك يا عمر » فقال عمر : « لقد رأيتني في دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر » .

* * *

وورد ذكر الوحي في القرآن مراراً تبعاً لجدال اليهود والكفار في حقيقة مصدر القرآن ، فمن هذا ما ورد في سورة الشورى :

« وَمَا كَانَ لِبَشرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحياً أو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أو يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بإذنِهِ مَا يَشاءُ إنَّهُ عَليٌّ حَكِيمٌ » .

وفي هذه الآية ذكر لأوجه ثلاثة يخاطب بها الله البشر . وروي أن اليهود قالت للنبي : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك . فقال النبي :

---

١ — لو أن للراوية قالت « أجهل » من الحمير ، لناسبت الحال .

لم ينظر موسى إلى الله . ونزلت هذه الآية مسجلة هذا الحوار . وعن عائشة : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، ثم قالت : أو لم تسمعوا ربكم بقول :

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحياً أو مِن وَرَاء حِجَابٍ أو يُرسِلَ رَسولاً فَيُوحِي بِإذْنِهِ مَا يشاء » .

وورد في القرآن ، في أكثر من موضع ، جدال عن الوحي وعن طريقه من ذلك :

« وَقَالُوا لولا أنزِلَ عَلَيه مَلَكٌ وَلو أنزَلنَا مَلَكاً لقُضِيَ الأَمرُ ثُمَّ لا يُنظَرون ، وَلَو جَعَلنَاهُ مَلَكاً لجَعَلنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبسنَا عَليهِم مَا يَلبِسُونَ » .

وفي هذه الآية ما يؤيد أن الوحي كان ينزل على صورة رجل لا يعلم حقيقة أمره إلا النبي .

وفي سورة الأنعام ذكر لما كان يفتريه بعض العرب من أن وحياً ينزل عليهم :

« وَمَن أَظلَمُ مِمَّن افترَى عَلَى اللهِ كَذِباً ، أو قالَ أُوحِيَ إليَّ وَلَم يُوحَ إليهِ شيء ، وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثلَ مَا أنزَلَ اللهُ ، وَلو تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الموتِ وَالملائكةُ بَاسِطُو أيدِيهِم أخرِجُوا أنفُسَكم ، اليَومَ تُجزَونَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُم تقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيرَ الحَقِّ ، وَكُنتُم عَنْ آياتِهِ تَستَكبِرُونَ .

كما أن سورة النجم عرضت لهيئة الوحي إذ ذكرت :

« وَالنَّجمِ إذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكم وَمَا غَوَى ، وَمَا ينطِقُ عَنِ الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وَحيٌ يُوحَى ، عَلمهُ شَدِيدُ القوَى ، ذُو مِرَّةٍ (قوة) فاستَوَى ، وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعلَى ، ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى ، فَكانَ قابَ قَوسَينِ أو

أدنَى ، فأوحَى إلَى عبدِهِ مَا أوحَى ، مَا كذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ، أفتمَارُونَهُ علَى مَا يَرَى ، ولَقَد رَآهُ نَزلةً أخرَى عندَ سِدرَة المُنتَهَى ، عِندَهَا جَنَّةُ المأوَى ، إذ يَغشى السدرَةَ مَا يَغشَى ، مَا زَاغَ البَصرُ ومَا طَغَى ، لقَد رَأى مِن آياتِ رَبِّهِ الكبرَىَ » .

ويقول المفسرون في هذه السورة أن النبي عليه السلام رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين : إحداهما عند البعثة ، والثانية عند الاسراء . أو إحداهما في أجياد ، والثانية وهو خارج ، أو إحداهما عندما فتر عنه الوحي ثلاث سنين أو نحوها وهم أن يتدلى من قمم الجبال فنمه وطمأنه على أنه نبي مرسل . .

ويذكر المفسرون روايات على أن الرؤية كانت بالعين ، ويصفون جبريل بأن له ستمائة جناح .. الخ . ولكن التأمل في هذه الآيات يدل على أن الرؤية كانت بالإلهام بدليل قوله : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ورؤية الفؤاد غير رؤية العين بطبيعة الحال .

— ٣ —

في ثلاث سنين

قارئ سيرة النبي في جميع مراجعها يثق من أن أول ما نزل من القرآن هو سورة « إقرأ .. » كما أسلفنا . إلا أننا مع هذا نجد أقوالاً منسوبة لثقات من رواة الحديث وأصحاب الفقه والصحبة لرسول الله يذكرون قصصاً أخرى .

فمن هذا ما رواه كتاب الاتقان للسيوطي عن جابر أنه سئل : أي القرآن أنزل قبل ؟ قال يَا أيها المُدَّثِر . فقال له سائله : أو اقرأ باسم ربك . فقال جابر : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله قال : إني جاورت بحراء . فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي ، ثم نظرت إلى السماء ، فإذا هو (يعني جبريل) فأخذتني رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني ، فأنزل الله : « أيها المدثر » .

وعن جابر أيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت برأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، فدثروني . فأنزل الله : « يا أيها المدثر » .

وظاهر من هذه الرواية الثانية أن الوحي نزل أول ما نزل بحراء ،

وكانت آية القراءة . ثم نزل مرة أخرى ففزع النبي وأوى إلى فراشه ، فأوحي إليه :

يَا أَيُّهَا المُدثِّر . قُم فَأَنذِر . وَرَبَّكَ فَكَبِّر . وَثِيابَكَ فَطَهِّر . وَالرُّجزَ فَاهجُر (الرجز الأصنام) . وَلاَ تَمنُنْ تَستَكثِر . وَلِرَبِّكَ فَاصبِر . فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُور (نفخ في البوق) . فَذَلِكَ يَومَئِذٍ يَومٌ عَسِير . عَلَى الكَافِرِينَ غَيرُ يَسِير .

ولكن ابن كثير ينقل عن البخاري روايات جابر السابقة ثم يعقب عليها برواية عن ابن عباس يقول فيها : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر ، وقال بعضهم : ليس بساحر ، وقال بعضهم : كاهن ، وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر ، وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فحزن وقنع رأسه وتدثر . فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر » .

إلا أن ابن كثير في تفسيره يختار سورة إقرأ ، على أنها أول ما نزل من القرآن ، وهذا هو القول الراجح . إلا أن هذه السورة لم تنزل كلها ، وإنما نزلت منها آياتها الأولى . أما بقية السورة فنزلت بعد .

أما سورة المدثر فقد نزلت كلها مرة واحدة ، فكانت أول سورة نزلت كاملة .

* * *

بعد هذا الأمر الصريح الذي جاء به الوحي أن يقوم فينذر عشيرته الأقربين ، فتر الوحي ولم يعد رسول الله يلقاه .

ذكر ابن اسحاق أن مدة انقطاع الوحي كانت ثلاث سنين . وفي قول ان المدة سنتان ونصف سنة . وفي ثالث إنها كانت أربعين يوماً ، وفي قول رابع إنها كانت خمسة عشر يوماً . وفي قول خامس إنها كانت ثلاثة أيام .

ونحن نجد هذا الاختلاف بين الرواة في كثير من التفاصيل التي تتصل بسيرة النبي في مدة مقامه بمكة . فقد أنفق عليه السلام ثلاثة عشر عاماً ، لا يكاد التاريخ الصحيح يقف من أحداثها الثابتة إلا على النزر اليسير . ولعل أشد الفترات غموضاً فترة انقطاع الوحي التي اختلف فيها القول على النحو الذي ذكرنا ، وفترة الحصار الإقتصادي الذي فرضته قريش على بيت هاشم والذي استمر فيما يقال ثلاث سنين .

ومرجع هذا الغموض في سيرة النبي قبل الهجرة ، أن معتنقي الإسلام وقتها كانوا قلة قليلة ، وأن صوت الشرك هو الذي ظل مرتفعاً . فلم تحو ذاكرة الصحابة الذين أسلم قليل منهم في مكة ، أحداث الأذى والمتاعب التي صادفها النبي ولا ننسى أن كثيراً منهم هاجر إلى الحبشة على دفعتين .

ولقد قيل إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه ، وانه كان يهيم على وجهه في الصحراء يناجي ربه . ويذكرون من أسباب انقطاع الوحي عنه أن يذهب عنه ما كان يجده من الروع ، وليحصل له الشوق إلى العود .

وقد انتهت هذه المحنة الشديدة بنزول سورة الضحى التي تصف هذه الأزمة النفسية :

وَالضُّحَى واللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَللآخِرَةُ خَيْرٌ لكَ من الأولَى . وَلسوف يُعطيكَ رَبُّكَ فَترضَى . أَلم يَجدكَ يَتيماً فآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى. فَأَمَّا اليَتيمَ فَلاَ تَقهَر .

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنهَر . وَأَمَّا بِنِعمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث .

وفي هذه السورة يقول الله لرسوله إنه لم يودعه ولم يهجره . ويذكره بنعم الله عليه من إيوائه وكان يتيماً ، وهدايته وكان ضالاً وإغنائه وكان فقيراً . وإزاء هذه النعم يطلب الله من رسوله أن يبر اليتيم والسائل ، وأن يتحدث بنعمة ربه .

ويفهم من الظرف الذي نزلت فيه هذه السورة ، أنها كانت السورة الثالثة في العام الثالث من البعثة ، أي حين كانت سن النبي ثلاثة وأربعين عاماً أو نحوها .

ثم تتابع نزول القرآن بحسب الحوادث ، ولم ينقطع الوحي ولم يفتر طويلاً إلا هذه المرة .

القرآن وقريش

بدأ رسول الله تبليغ دعوته في العام الرابع للهجرة بقوله تعالى : (فَاصدَع بِمَا تُؤمَرُ وَأعرِض عَنِ المُشرِكِينَ) وقوله : (وَأنذِر عشيرَتكَ الأقرَبينَ . وَاخفض جَناحَكَ لِمَن اتّبعكَ مِنَ المُؤمِنينَ ، فَإن عَصَوكَ فَقُل إني بَرِيءٌ مِمَّا تَعمَلُون) .

فأنكرت عليه قريش رسالته ونبوته ، ونصبت نفسها لإيذائه وحربه .

ولم يكن لرسول الله من سلاح يستعين به مدة مقامه بمكة ، أي طوال ثلاثة عشر عاماً ، غير القرآن الكريم ، يتلوه على قريش فتحيط بقلوبهم أغلفة غلاظ حتى لا ينفذ إليها تأثيره . ومع ذلك فقد كان نفوذ القرآن أقوى من عناد قريش .

كان سادتها يجتمعون كثيراً ، ويطيلون البحث والجدال في شأن النبي وفي شأن هذا القرآن الذي ينزل عليه ..

تشاوروا مرة ، وأخذوا يديرون القول فيما بينهم : فأحدهم يقول : سحر ، والثاني يقول : لا ، هو شعر . ويقول ثالثهم : ما هو بسحر ولا شعر ولكنه كهانة .. فيقول لهم شيخهم الوليد بن المغيرة : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر

جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

وكان موسم الحج قد أقبل ، وتهيأ النبي لدعوة وفود العرب إلى الاسلام وإسماعهم القرآن . فتربصت قريش به ، فما ذهب إلى مكان إلا أحاطوا به وحذروا الناس من الاستماع « لسحره » . ولقد أغضب هذا العمل النبي ، ونزل قرآن فيه تعنيف شديد للوليد بن المغيرة :

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا . وَجَعَلْتُ له مَالاً ممدُودا . وَبَنِين شُهُودا . وَمَهَّدتُ لهُ تمهِيدا . ثُمَّ يَطمعُ أن أزِيدَ . كلاَّ إنهُ كانَ لآيَاتِنا عَنِيداً . سَأُرهِقهُ صَعُوداً . إنهُ فَكرَ وَقَدَّرَ . فَقُتلَ كيفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كيفَ قَدَّرَ » .. إلى آخر السورة .

ولكن هذا الحصار الذي ضربته قريش على دعوة النبي ، وهذا الإنذار الذي وجهته قريش لكبرائها .. كل أولئك لفت نظر وفود شبه الجزيرة إلى رسول الله ، وحرصوا على أن يعلموا من أمره — بدافع الفضول — كل شيء . وبذا ذاع ذكره ، وانتشر أمره على ألسنة هذه الوفود بين قبائل العرب جميعاً .

* * *

وأدركت قريش أن أساليبها في صد الدعوة الإسلامية عن المضي في طريقها لم تفلح ، وأنه لا بد من عمل آخر .. وخصوصاً بعد أن أسلم حمزة ، فاعتزت الدعوة بإسلامه اعتزازاً كبيراً .

تشاوروا على عادتهم ، وانتدبوا عتبة بن ربيعة لكي يذهب إلى النبي يفاوضه في ترك هذه الدعوة ، على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغنى قريش ، أو يجعلوا له الرياسات التي يصبح بها أرفعهم مقاماً ،

وأعزهم ملكاً ، أو يلتمسوا لـه الطب ، حتى يبرأ من هذا الذي يأتيه فينطقه بكلام عجيب . .

وقد سمع النبي لعتبة صابراً ، فلما انتهى قال له :

ــ أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ فقال : نعم .

قال له النبي : فاستمع مني .

ثم أخذ يتلو عليه قوله تعالى :

حمٓ . تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ . كتابٌ فُصلت آياتُهُ قُرآناً عَرَبياً لقومٍ يَعلمُونَ . بَشيراً وَنَذيراً فأعرَضَ أكثرَهُم فَهُم لا يَسمَعُونَ ، وَقالُوا قُلوبُنا في أكِنةٍ مِمَّا تَدعُونا إليهِ . وَفي آذانِنَا وَقرٌ ومِن بَيننا وَبَينكَ حِجابٌ فاعمَلْ إنَّنا عَامِلُونَ . قلْ إنَّمَا أنا بشرٌ مِثلُكُم يُوحَى إليَّ أنَّما إلهُكم إلَهٌ وَاحِدٌ فاستَقيمُوا إليهِ وَاستغفرُوه ، وَوَيلٌ لِلمُشرِكينَ .

ومضى رسول الله يتلو على زائره سورة « فصلت » . حتى انتهى عليه السلام إلى قوله تعالى :

(وَمِن آيَاتِهِ الليلُ والنَّهارُ والشَّمسُ وَالقَمَر ، لا تَسجدُوا لِلشمسِ وَلاَ لِلقمرِ ، وَاسجدُوا للهِ الذِي خَلَقهنَّ إن كُنتُم إيَّاهُ تَعبدُونَ) .

ولما تلا هذه الآيه سجد لربه سجوداً طويلاً ، ثم رفع رأسه واستوى في مجلسه وأخذ يكمل الآيات الخمسين تزداد أربعاً . . حتى إذا فرغ من سورة « فصلت » نظر إلى عتبة فإذا هو ملق يديه خلف ظهره يصغي في هدوء ، وقد بلغت الآيات من نفسه مبلغاً عظيماً . قال له النبي .

ــ قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك !

فلم يعقب عتبة بكلمة ، ولا علق بحديث . وانصرف مهموماً ، مطرق الرأس يفكر أعمق تفكير في هذا الذي سمع ، والذي يفضله

صاحبه على الملك والمال ودواء الطبيب .. وهو حقيق بالتفضيل . فما أن رأت قريش صاحبها حتى قال بعضهم لبعض :

ـ نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس اليهم قالوا :

ـ ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

ـ ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة .. يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فان تصبه العرب فقد كفيتموه ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

فقالت له قريش ، وهي آسفة عليه وعلى ما أصابه :

ـ سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! فأشاح عنهم وقال :

هذا رأيي فيكم فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

واصطنعت قريش وسيلة أخرى لكي توقف هذا السيل الجارف من آي الذكر الحكيم الذي كان يهدم كل عقبة تقيمها في سبيله . نظرت في رجالها فوجدت النضر بن الحارث رجلاً فطناً ذكي الفؤاد ، طاف ببلاد فارس وأقام بالحيرة زمناً وتعلم لسان الفرس ، وحفظ قصصهم الشائعة ، ووقف على آدابهم المشهورة . وكان مما حفظ قصص من الشاهنامة مثل رستم واسفنديار ، وسير الملوك السابقين في بلاد كسرى .. فكان إذا أقبل النبي إلى الكعبة يحدث القوم ، قام هو من دونه وأخذ يقص عليهم من أدب الفرس ما علم ، ويقول : بماذا محمد أحسن مني حديثاً ؟

ولكن النبي كان يتلو :

« ن ،وَالقلمِ وَمَا يَسطُرونَ . مَا أنتَ بِنعمةِ رَبِّكَ بِمجنُونٍ . وَإِنَّ لكَ لأَجراً غَيرَ مَمنُونٍ . وَإنّكَ لعلَى خُلقٍ عَظيمٍ . فَستبصرُ وَيُبصرُونَ . بِأيِّكُم المفتُونُ . إنَّ رَبَّكَ هُوَ أعلَمُ بِمن ضَلَّ عَن سَبيلهِ وَهُوَ أعلَمُ بِالمهتدِينَ . فَلا تُطع المُكذِّبينَ . وَدُّوا لو تُدهِنُ فَيدهِنُونَ . وَلا تُطعْ كلَّ حَلافٍ مَهينٍ . هَمازٍ مَشاءٍ بِنميمٍ . مَناعٍ لِلخيرِ مُعتدٍ أثيم . عُتُلٍّ بَعدَ ذَلِكَ زَنيمٍ . أن كانَ ذَا مَالٍ وَبَنينَ . إذا تُتلَى عَلَيهِ آياتُنا قَالَ أسَاطِيرُ الأوَّلينَ » .. إلى آخر سورة القلم .

فكان الناس يجاملون النضر وهو يثرثر بقصصه ، ولكن قلوبهم كانت متعلقة بهذا الذي يتلوه محمد عليهم ، وفيه ما فيه من قرع الاسماع عنيف ، وزجر للكفار مخيف ..

وكان ابن عباس يقول : نزلت في النضر بن الحارث ثمان آيات من القرآن ، قول الله عز وجل : (إذَا تُتلَى عَليهِ آياتُنا قالَ أسَاطيرُ الأوَّلِين) وكل ما ذكر فيه من الأساطير في القرآن .

وجاءت قريش إلى وسيلة أخرى لتكافح بها تأثير القرآن ، فأوفدت إلى يهود يثرب وفداً يسألها عن الوسائل التي تستطيع أن تقاوم بها هذا الذي جاء به محمد . فطلب منهم اليهود أن يسألوا النبي عن أمور . فلما عادوا إلى مكة ذهبوا إليه وقالوا : يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح وما هي ؟ فقال لهم النبي :

ــ أخبركم بما سألتم عنه غدا .

وكان رسول الله ينتظر أن ينزل عليه وحي فيه جواب ما سألت عنه

قريش . ولكن الوحي أبطأ على النبي خمسة عشر يوماً : وطارت قريش فرحاً بعجزه عن الجواب . وقالت : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه . وقد أحزن النبي انقطاع الوحي عنه حزناً شديداً ، وزاد في قلقه ما كان يتكلم به أهل مكة . وفي ختام هذا اليوم نزل جبريل فابتدره النبي بقوله :

ـ لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظناً .. فرد عليه بالآية الكريمة :

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمرِ رَبِّكَ . لهُ مَا بَيْنَ أيدينا وَمَا خَلفَنا ومَا بَيْنَ ذَلكَ وَمَا كانَ رَبُّكَ نَسِياً ﴾ .

ثم أخذ جبريل يلقن النبي سورة الكهف . وفيها رد على ما سألت قريش وتفصيل رائع لكثير من الأمور التي تشغل الأذهان إذ ذاك ، وقد أخذت عليهم إجابات سورة الكهف السبيل فلم يحيروا رداً ولا جوابا .

* * *

وجددت قريش أن دخولها في محاورات مع النبي لن تجديها شيئاً . فإنها تعود بالهزيمة .. إذ لا قبل لها بتحدي القرآن وسلطانه على النفوس . وقر رأيها على أن تلجأ إلى ما نسميه اليوم المقاومة السلبية بأن تمتنع عن سماع القرآن بتاتاً .

روى ابن اسحق :

جعلوا ، إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلي ، يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له . وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي ، استرق السمع دونهم فرقاً منهم . فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع . وإن خفض رسول الله صوته فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً

من قراءته ، وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه .

وقد روى ابن عباس : إنما أنزلت هذه الآية ﴿ وَلا تجهرَ بِصلاتِك وَلا تُخافِتْ بِهَا وابتغِ بَينَ ذَلكَ سَبِيلا ﴾ من أجل هؤلاء النفر .

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع القرآن ، فما كانت بهم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون في أنفسهم من رقة ومن شغف لسماع هذا التنزيل الذي لا عهد لهم به .

روى ابن اسحق أيضاً :

إن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ـ وكل لا يعلم بمكان صاحبه ـ فباتوا يستمعون له ... حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا ... وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم (العامة) لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له .. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا .

فإذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له .. حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال له :

ـ أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال :
ـ يا أبا ثعلبة . والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها .

وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

فقال له الأخنس :

ـ وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته وقال له :

ـ يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

ـ ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟! والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .. فقام عنه الأخنس وتركه .

وهكذا كانت قريش في حيرة من أمرها : ترق قلوبها للقرآن ولكن نزاع العصبية ، وشارات الرياسة ، وأوضاع الجاهلية .. كل ذلك كان يحجبها عن الإسلام وعن اتباع محمد عليه السلام .

وكما كانت قريش تمنع أهل مكة من سماع القرآن ، كذلك كانت تحول بين أي مسلم وبين أن يتلو القرآن . وقد خطر لعبد الله بن مسعود مرة أن يذهب إلى الكعبة ويتلو بعضاً منه . فسار حتى أتى المقام في الضحى ـ وقريش في أنديتها ـ وقام عند المقام ، ثم قرأ بصوت عال : « بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ . الرَّحمنُ . عَلم القُرآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ عَلمهُ البَيانَ . الشَّمسُ وَالقمرُ بحُسبانٍ . وَالنجمُ وَالشجرُ يَسجدانَ » .

فأصاخت قريش السمع حتى تنبهوا إلى أنه يتلو القرآن ، فصاح أحدهم : انه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون وجهه وجعل يقرأ حتى آذوه أذى شديدا ، وأصابوه بجروح في وجهه . فلما عاد إلى أصحابه من المسلمين قالوا له : هذا الذي خشينا عليك .

فقال عبد الله : ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً . فقال له المسلمون :

ـ لا .. حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون .

* * *

واشتد أذى قريش للمسلمين . فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة . ثم حدثت بعد هذه الهجرة مباشرة غزوة جديدة من غزوات القرآن لقلوب قريش إذ افتتحت معقلاً من أشدها بنياناً وأمنعها قوة ، ونعني به قلب عمر بن الخطاب .

كان ذلك في العام السادس للبعثة ، وقيل بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . ولم يكن عدد المسلمين قد زاد في ذلك الوقت على أربعين رجلاً مما يدل على عنف المقاومة التي لقيها النبي مدى هذه السنوات الست .

وقد قيلت في اسلام عمر روايات أكثرها منسوب له ومنها :

روى أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال :

أتحبون أن أعلمكم كيف بدأ إسلامي ؟ كنت من أشد الناس على رسول الله . فبينما أنا في يوم مار في بعض طرق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب ؟ انك تزعم انك هكذا ، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قلت : وما ذاك ؟ قال : أختك قد صبأت . فرجعت مغضباً . وقد كان صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة . فيكونان معه ، ويصيبان من طعامه . وقد ضم إلى زوج أختي رجلين . فجئت حتى قرعت الباب فقيل : من هذا ؟ قلت : ابن الخطاب . وكان القوم جلوساً يقرأون صحيفة معهم ، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا ، فقامت المرأة ففتحت لي ، فدخلت عليها وقلت : يا عدوة نفسها ، قد بلغني عنك أنك صبأت (خرجت عن دينها) ثم ضربتها فسال الدم ، فلما رأت الدم بكت وغضبت وقالت :

ـــ أتضربني يا عدو الله أن أوحد الله ؟! لقد أسلمنا على رغم أنفك . وما كنت فاعلاً فافعل .

ودخلت وأنا مغضب ، فإذا كتاب في ناحية البيت ، فقلت : هذا الكتاب أعطنيه . فأبت إلا أن أغتسل . فاغتسلت وأخذت الكتاب فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت الصحيفة من يدي ، ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها :

(سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَهُوَ العزِيزُ الحَكِيم) . وأخذت اقرأ حتى بلغت (آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُوله وأنفِقُوا مِمَا جَعلكُم مُستَخلفِينَ فِيهِ) إلى قوله : (إنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ) .

فقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وفي رواية أخرى السورة التي قرأها :

(طَهَ . مَا أنزَلنا عَليكَ القُرآنَ لِتَشقَىَ) .

وزادت رواية أخرى أنه كان مع سورة « طه » سورة « التكوير »

وواضح من اختلاف الروايات أنه لا يمكن الجزم بما قرأ عمر على وجه التحديد . ولكن من المؤكد أنها آيات قليلة ، ذلك لأن القرآن لم يكن في ذلك الوقت يكتب كما نكتب الآن فيسهل تدوين السورة في صحيفة أو نحوها على الورق . كما أن الكتابة في ذلك الوقت لم تكن قد تهذبت وصغرت حروفها وإنما كانت تكتب بحروف كبيرة . وكتابة سورتين من القرآن أو سورة يحتاج إلى عدد من هذه الصحف التي كانوا يكتبون عليها .

ومهما يكن من أمر هذا الذي قرأ عليه ابن الخطاب ، وأمر السور أو الآيات التي قرأها ، فقد كانت قطرات الدماء التي سالت من رأس أخته ، وكان فزع زوجها الذي هم عمر بالبطش به . وأمر هذين الرجلين

المسلمين اللذين فرا لمرآه .. كان هذا كله سبباً في آن رقت حاشيته ولانت قناته ، فما أن قرأ آيات من القرآن حتى سكنت نفسه ، وثاب إلى رشده ، وأدرك جمال هذا الذي يقرأ وسموه ، فأعلن إسلامه ، وذهب إلى النبي وأصحابه حيث كانوا يختفون فتشهد وبايع ، وخرج إلى الملأ يقول : أسلمت .. أسلمت .

وفي رواية أخرى عن ابن اسحق تهمل قصة فاطمة بنت الخطاب وما حدث في بيتها ، وتقول : ان عمر سمع رسول الله في الليل وهو يتلو القرآن ، فرق له قلبه وبكى وداخله الإسلام ، ومكث في مكانه حتى انصرف النبي فتبعه عمر . فالتفت النبي في أثناء طريقه فرآه . فظن أنه يتبعه ليؤذيه فزجره ، وقال له : ما جاء بك الساعة : فرد عمر : جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله . فحمد النبي الله وقال : قد هداك الله . ثم مسح صدره ودعا له بالثبات .

وفي رواية غير هذه : أنه سمع رسول الله يتلو سورة الحاقة . يقول عمر : فجعلت أتعجب من تأليف القرآن ، فقلت هو شاعر كما قالت قريش . فقرأ :

(إِنَّه لقولُ رَسُولٍ كريمٍ ، وَمَا هُوَ بِقولِ شَاعِرٍ ، قليلاً مَا تُؤمِنُونَ)

فقلت : هو كاهن علم ما في نفسي . فقرأ :

(ولا بِقولِ كاهِنٍ ، قَليلاً مَا تذَكَّرُونَ) .

إلى آخر السورة . فوقع الإسلام في قلبي كل موقع .

ولما أسلم عمر خرج أمام رسول الله وهو متهلل الوجه حتى دخل الكعبة ، فقالت قريش :

ــ أتى عمر مسروراً .. ما وراءك يا عمر ؟ فصاح بهم .

ــ ورائي لا إله إلا الله . محمد رسول الله . فإن تحرك أحد منكم لأمكنن سيفي منه !

— ٥ —

بَين مَكّة وَالمَدينَة

مضت الأيام يشبه بعضها بعضاً .. النبي يتلو على قريش القرآن ، وقريش تبالغ في الانصراف عنه وعن قرآنه وتبالغ في السخرية منه حتى اشتد به الضيق . وكان الوحي عونه الأكبر في هذه الأوقات العصيبة . نزل عليه بقوله تعالى :

(فَاصدَعْ بِمَا تُؤمَرُ ، وَأَعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ . إنَّا كَفَينَاكَ المُستهزِئينَ . الَّذينَ يَجعلُونَ مَعَ الله إلهاً آخرَ فَسَوفَ يَعلمُونَ) .

ولقد أنفق النبي عشر سنين منذ بعث وهو على هذه الحال يتلفت إلى كل وجه من وجوه الأفق عسى أن يجد منفذاً لرسالته ، فلا يكاد يستبين الطريق . ونزلت به نازلة أخرى هي موت زوجه خديجة وعمه أبي طالب .

ولقد كانت الزوجة كما كان العم حاميين لمحمد وللدعوة ، يصدان عنه بالنفوذ أذى قريش ، فلما ذهبا اشتد عليه وعلى أصحابه الأذى ، وتجهم أمامه وجه الحياة أكثر من ذي قبل .

ذهب إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف ، فلم يجد عند ثقيف نصرة . وعاد يستقبل وفود العرب وهي قادمة إلى مكة يعرض نفسه عليها ، معززاً دعوته بقرآنه . وكانت هذه الوفود يختلف بعضها عن بعض ثقافة وحسن

ادراك . فمنها من كانت تعلم بعض العلم ، وتزن الأمور بميزان العقل ، ولا ترى حرجاً في أن تصغي إلى نبي الدين الجديد . وكان رسول الله يذهب إلى حيث كانت تضرب كل قبيلة خيامها ، فيقف على بابها ويقول لأهلها : « يا بني فلان اني رسول الله اليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد . وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به » ثم يتلو عليهم شيئاً من القرآن .

سمع له سويد بن الصامت ، وكان يسمى الكامل لعلمه وعقله ، فقال للنبي بعد أن سمع كلامه :

ـ فلعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له النبي :

ـ وما الذي معك ؟ قال سويد .

ـ مجلة لقمان . فقال له النبي :

ـ أعرضها عليَّ .

فعرضها عليه ، فقال النبي :

ـ إن هذا لكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا . قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، هو هدى ونور . ثم أخذ يتلو عليه بعض آيات الذكر ، فأصغى لها سويد وأحسن الاصغاء ، ثم تمتم :

ـ إن هذا لقول حسن ! !

ولقد أنتجت هذه الحركة في نهاية الأمر ، ونعني بها حركة التصدي لوفود القبائل والتماس تأييدها بعد عرض الإسلام عليها ، إذ كان من بينها وفد من الخزرج أكثر علماً وتهذيباً من غيره من الوفود . فقد كان اليهود يعيشون معهم ، ويعلمون الكثير من أمر الوحي وأمر السماء وأمر الأنبياء . وكانت الأحاديث تدور في يثرب من فم إلى فم أن نبياً يوشك أن يظهر ، فما أن دعا رسول الله هذا الوفد وحاوره قليلاً حتى آمن به

وصدق له . وعاد الوفد يستشير قومه فرضي القوم بالاسلام ، وكانت بيعة العقبة الأولى .

وحرص النبي على أن يعلم هؤلاء المسلمون الأول من رجال القبائل ، عن القرآن ، أكثر مما تسمح به مقابلة قصيرة الأمد يحوطها التكتم والخفاء ، فبعث معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرأ لأهل يثرب القرآن ويبصرهم في شئون الدين . ولذا يعد مصعب أول معلم للقرآن ، وقد أطلقوا عليه في يثرب اسم « المقرئ » .

وقد اتبع « المقرئ » ومن أسلم من أهل يثرب طريقة رسول الله في حمل الناس على الاسلام ، كانوا يعرضون عليهم صيغة يسيرة للاسلام هي :

« أن تغتسل وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين »

وبعد هذا يتلو الداعية عليه القرآن ، فكان القرآن يشق الطريق إلى القلوب التي لم تجف ولا تزال في نضارتها .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية ، وظهر على أثرها أن يثرب هي معقل الاسلام ، وأنه لم يعد في مكة خير للاسلام . وقد اختار في هذه البيعة الثانية إثني عشر نقيباً ليكونوا أئمة الدعوة بين قومهم ، وكان سلاح الدعوة الأول كما ذكرنا تلاوة القرآن .

وقد أصبحت يثرب بمن أسلم فيها مستقراً أميناً لدعوة الاسلام ، فأذن النبي للمسلمين من مكة في الهجرة، ثم جاءه الاذن بالسفر إليها . وكانت مهمة النبي وهو يهاجر واضحة ، وهي أن يرد عدوان قريش على الاسلام بعد أن بذل لها النصح ثلاثة عشر عاماً فلم تزد إلا عتواً .

وهنالك خلاف في الاذن بالقتال هل كان قبل الهجرة أم كان بعدها . أما ابن اسحق فيقول : فلما أذن الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم في

الحرب وتابعه هذا الحي من الأنصار على الاسلام والنصرة له ولمن اتبعه وآوى إليه من المسلمين ، أمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق باخوانهم من الأنصار .

ويقول عامة المفسرين إن الأمر بالقتال نزل بعد الهجرة . ففي الزمخشري : كان مشركو مكة يؤذون أصحاب رسول الله أذى شديداً . وكانوا يأتون رسول الله بين مضروب ومشجوج يتكلمون إليه فيقول لهم : أصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فأنزلت عليه آية القتال . وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية . إلا أنه يورد قولاً آخر . وهو أن آية القتال نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأذن لهم في مقاتلتهم .

وقد وردت آية القتال بين آيات سورة الحج ونصها :

«أُذِنَ لِلذينَ يقاتِلُون بِأنهُم ظُلمُوا وَأنَّ اللهَ عَلى نَصرِهم لقَديرٌ ، الذِينَ أخرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغيرِ حَقٍّ إلا أن يَقُولوا رَبُّنا اللهُ ، وَلولاَ دَفعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُم بِبعضٍ ، لهُدِّمت صَوَامِعُ وبِيعٌ وصَلَواتٌ ومسَاجِدُ يُذكَرُ فِيها اسمُ اللهِ كثِيراً ، وَلينصُرنَّ اللهُ مَن يَنصرُهُ . إنَّ اللهَ لقَويٌ عَزِيزٌ » .

وتكرر بعد هذا أمر القرآن بالقتال ، وازداد تأكيداً في سورة البقرة :

«وَقَاتِلوا فِي سَبيلِ اللهِ الذِينَ يُقاتِلُونكُم وَلا تَعتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتَدِين . وَاقتلُوهُم حَيثُ ثَقِفتُمُوهُم (وجدتموهم) وَأخرِجُوهُم مِن حَيثُ أخرَجُوكم ، وَالفِتنةُ أشَدُّ مِنَ القَتلِ ، وَلا تُقاتِلُوهُم عِندَ المسجِدِ الحَرامِ حتَّى يُقاتِلوكُم فِيهِ ، فَإنْ قَاتَلوكُم فَاقتلوُهم ، كذَلِكَ جزَاءُ الكافِرِينَ . فَإن انتَهَوا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهم حتَّى لا تَكونَ فِتنةٌ

وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » .

• • •

وأخذ النبي ينفذ برنامجه الجديد على نحو ما فصلناه في كتبنا الأربعة [1] عن الرسالة والرسول . وكان الوحي عونه في أعماله كلها .. إلا أن دور القرآن في هذه الفترة المدنية لم يكن دور هجوم في أغلبه كما كان في الفترة المكية ، بل كان – في بعض الأحيان – دور دفاع وفي البعض الآخر دور أخبار مشوب بهجوم .. ذلك أن يثرب كانت مستقر اليهود ، وقد تحفز اليهود لمهاجمة العقيدة الاسلامية مستندين إلى أنهم أهل كتاب سابق على القرآن . فكان الوحي ينزل بحوارهم ومجادلتهم ، ويرد هجومهم في لطف حيناً وفي عنف بالغ أشد القوة حيناً آخر .. ولقد ذكرنا في كتابنا عن « السيرة النبوية » أن ثلث القرآن تقريباً إنما نزل في الدفاع عن العقيدة المحمدية ضد مزاعم اليهود .. فأي جهد أنفق وأي عناء بذل !! وكانت للوحي مهمة أخرى إلى جانب كفاح اليهود وهي الكشف عن المنافقين وتشديد النكير عليهم . وفي هؤلاء القوم نجد آيات كثيرة جداً لا تصل في كثرتها إلى آيات اليهود ولكنها تستغرق قسماً من طوال السور ..

وإلى جانب تأييد الوحي للبرنامج الحربي الذي شرع فيه رسول الله ، فإنه أخذ ينزل بتشريع الاسلام ، ووضع أسسه الخلقية والاجتماعية .

وإذا أضفنا المدة التي نزل فيها الوحي بمكة إلى المدة المدنية . فيكون نزول القرآن قد استغرق ثلاثاً وعشرين سنة ولكن لا يمكن الجزم بمقدار المدة بين أول آية نزلت وآخر آية نزلت على وجه التحديد .

أما الشيخ الخضري في كتابه « تاريخ التشريع الاسلامي » فيحدد المدة على الوجه الآتي :

---

١ – هذه الكتب هي : قواعد الإسلام خمس .. وخمس . ونور الله . والسيرة النبوية في جزئين .

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم منجماً من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده حيث أوحي إليه في غار حراء الذي كان يتحنث فيه أول آية وهي (اقرأ ..) إلى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده حيث أوحي إليه بآخر آية وهي : (اليَومَ أكملتُ لكُم دِينكُم وَأتممتُ عَليكُم نِعمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً) . فالمدة بين مبتدأ التنزيل ومختتمه اثنتان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً .

ثم قال الشيخ : لم ينزل بعد حجة الوداع على النبي شيء من الفرائض ولا تحليل شيء ولا تحريمه ، وان النبي صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة .

ويقسم المصدر نفسه عهد نزول القرآن إلى القسمين المشهورين ، وهما عهد مكة وعهد المدينة . ويحدد مدة كل منهما كما يأتي :

الأولى ـ مدة مقامه بمكة وهي اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً : من رمضان سنة ٤١ إلى أول ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده عليه السلام . وما نزل من القرآن فيها يقال له المكي .

الثانية ـ ما بعد الهجرة وهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام : من أول ربيع الأول سنة ٥٤ إلى تاسع ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده ، وسنة عشرة من الهجرة . وما نزل من القرآن فيها يقال له المدني .

ومكي القرآن أكثر من مدنيه إذ يبلغ ١٩ من ٣٠ . ومدنيه نحو ١١ من ٣٠ .

ومن العسير أن نسير مع كتاب تاريخ التشريع فنقر هذا التحديد الدقيق بالسنة والشهر واليوم ، وكاد يورد الساعة أيضاً . ذلك أن هذه التواريخ إنما تعتمد على روايات وقد تعددت الروايات وكثرت ، واختلف

الفرق بينها كما ذكرنا في بدء نزول الوحي ، إذ أمكن أن يوجد خلاف على خمس سنين دفعة واحدة ! ولا نستطيع أن نجرح رواية ونعتمد أخرى ، ذلك أن أغلبها يعتمد على سند يؤخذ به . بل ان الخلاف تجاوز مدة نزول القرآن إلى تعيين آخر آية نزلت من القرآن .

فمن هذه الروايات ما أورده الاتقان إذ يستهل البحث الخاص بهذه النقطة بقوله : آخر ما أنزل فيه اختلاف .. عن البراء أن آخر آية نزلت : (يستَفتونَكَ قُل اللهُ يُفتِيكم فِي الكلاَلَة) وآخر سورة نزلت براءة . وأخرج البخاري عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا . وأيد عمر بن الخطاب هذه الرواية مرتين . وأخرج النسائي عن ابن عباس أيضاً ، آخر آية نزلت من القرآن (وَاتَّقُوا يَوماً تُرجَعُونَ فِيهِ الىَ اللهِ) وأورد الطبري هذه الرواية نفسها .

وإذا كان الشيخ الخضري يجزم بأن الوحي لم ينزل على النبي قبل وفاته مدة إحدى وثمانين ليلة ، فهذه رواية عن سعيد بن جبير قال : آخر ما نزل من القرآن كله (وَاتَّقوا يَوماً تُرجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ) ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

كما يورد الاتقان روايات أخرى أن آخر آية نزلت هي آية الدين . ويعلق السيوطي على هذا الاختلاف في الروايات بقوله : « ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا ، وآية واتقوا يوماً ، وآية الدين لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ولأنها في قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر .. وذلك صحيح ! » .

وإذا حاول السيوطي أن يوفق بين هذه الروايات . فماذا هو قائل في رواية تسند إلى ابن عباس ان آخر سورة نزلت هي : « إِذَا جَاءَ نصرُ اللهِ وَالفَتحُ » ورواية أخرى تسند إلى عائشة أن آخر سورة نزلت ، هي سورتا المائدة والفتح .

ولقد أدهش السيوطي أن ترد روايات أخرى منسوبة لابن عباس ولمعاوية بن أبي سفيان ولأم سلمة تقول ان آخر ما نزل : (فَمَن كَانَ يَرجُو لِقاءَ رَبّه) وآية (وَمَن يَقتُل مُؤمِناً مُتعمِّداً فَجَزاؤهُ جَهَنَّم) ، وآية (فاستَجَابَ لَهُم رَبُّهم أَنِي لا أُضِيعُ عَملَ عَامِلٍ) .

ويورد السيوطي في آخر هذا الفصل ما يدل على حيرته بين هذه الروايات المتناقضة والتي ينسب بعضها إلى مصدر واحد فيقول : « من المشكل على ما تقدم قوله تعالى (اليَومَ أكمَلتُ لكُم دِينَكُم) فانها نزلت بعرفات عام حجة الوداع . وظاهرها إكمال جميع الفرائض والأحكام قبلها . وقد صرح بذلك جماعة منهم السدي ، فقال : لم ينزل بعدها حلال ولا حرام . مع أنه ورد في آية الربا والدين والكلالة أنها نزلت بعد ذلك . وقد استشكل ذلك على ابن جرير ، وقال : الأولى أن يتأول على أنه أكمل لهم دينهم باقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون . ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس (أيضاً ! !) قال : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت « براءة » نفي المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين . فكان ذلك من تمام النعمة وأتممت عليكم نعمتي » .

* * *

هذا عن آخر آية نزلت وما يقال فيها . وأما المدة التي نزل فيها القرآن ، فهي أيضاً موضوع خلاف ، وحسبنا أن نذكر جملة السيوطي في هذا الباب : نزل القرآن منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين على حسب الخلاف في مدة اقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة .

* * *

ونزل القرآن « منجماً » يعني أنه نزل مفرقاً كل بضع آيات معاً .. وذلك أن الوحي كان يتزل بالقرآن مبيناً للحوادث الجارية التي تعاقبت على حياة النبي من بعثته إلى وفاته .

ونرى في القرآن آية : (بَل هُوَ قُرآنٌ مَجيدٌ فِي لوحٍ مَحفُوظ) .

وآية (إِنَّا أنزَلناهُ فِي لَيْلَةِ القَدرِ) وآية (وإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتَابِ لدَينَا لَعَلِيٌّ حَكيم) وآية (يَمحُو اللهُ ما يَشاءُ وَيُثبِت وَعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ) .

وقد عرض المفسرون للوح المحفوظ ، ولليلة القدر ، ولأم الكتاب في تفسيرات كثيرة جلها أنشأه الخيال وتفنن فيه . فن ذلك ما روى البغوي عن ابن عباس (دائماً ابن عباس ! !) أن في صدر اللوح : لا إله إلا الله وحده دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده . واتبع رسله أدخله الجنة . قال : اللوح لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه من الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله في حجر ملك ! !

وهذا كما ترى خيال بديع ، وإن كنت لا أدري إذا وكل لرسام أن يخرج لنا صورة ملونة لما وصف الراوي عن ابن عباس هل يستطيع أم لا ؟

وغاية ما نقول في اللوح المحفوظ ، وفي ليلة القدر وفي أم الكتاب ، أن سبيل فهم دلالتها الدقيقة قد أغلق علينا ، وأن علينا أن نؤمن بها كما هي ، دون أن نتورط في الشرح ، وأن نسرف في الخيال .. وقد حاول بعض المستشرقين أن يصل من بحث الدلالات اللغوية لهذه الألفاظ إلى فهم معانيها كأن يقول أحدهم مثلاً ان ليلة القدر هي ليلة المقدرة (allpower) ولكن هذا أيضاً كلام لا يفيد كثيراً . والذي يستطيع

وحده تفسير هذه الألفاظ هو النبي عليه الصلاة والسلام ، ومنذ انتقل إلى الرفيق الأعلى ، انتقل معه تفسير ما أغلق من كلام القرآن .

ولكننا نفهم أيضاً من آيات اللوح المحفوظ وليلة القدر ، وأم الكتاب ، أن القرآن نزل أول ما نزل جملة واحدة وأن الوحي كان يهبط به آيات على قلب النبي بحسب الحوادث العارضة . وذلك أنه قد سبق في علم الله أن هذه الحوادث ستحدث فقال فيها كلامه ، ثم هبط بهذا الكلام الالهي الوحي . كل قسم منه في موعده .

وآيات القرآن ـ فيما نرى ـ خاصة بالنبي محمد لا بغيره من الأنبياء لأنها متصلة بما جرى له من أحداث صاحبت دعوته هو . ولذا لا يفهم ما ورد عن الحسن البصري من أنه قال : إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة واحدة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة . وصح نزول جملة « غير أولي الضرر » وحدها وهي بعض آية .

والحكمة في نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو ، هي أن يتمكن النبي من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن املائها على كتابه ليدونوها .

وقد وردت في القرآن آية بهذا المعنى هي (وَقُرآناً فَرَّقْنَاهُ لِتقرَأهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلناهُ تنزِيلاً) .. فقد ذكر ابن عباس أن القرآن أنزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك مفرقاً في عشرين سنة . وقرأ (وَلاَ يَأتُونكَ بمثَلٍ إلاَ جِئناكَ بِالحَقِّ وَأحسنَ تَفْسيرا) . (وَقُرآناً فَرَّقنَاهُ لِتقرأهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكثٍ وَنَزَّلنَاهُ تَنزِيلا) . والمكث هو التمهل والتأني .

ولنزول القرآن بحسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة جداً وهي كل القرآن تقريباً .. فمن ذلك مثلاً ما اتصل بعمر بن الخطاب وكان هو سبباً في نزوله . فقد روي عنه أنه قال :

وافقت ربي في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى ، فنزلت الآية : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبراهِيمَ مُصَلى ﴾ . وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت لهن :﴿ عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزوَاجًا خَيراً مِنكُنَّ ﴾ فنزلت كذلك.

وفي رواية أخرى أنه لما نزلت الآية : ﴿ ولَقَد خَلقنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ، قال عمر بن الخطاب : قلت ﴿ فَتبارَكَ الله أحْسنُ الخَالِقِينَ ﴾ . فنزلت الآية كما نطق عمر : فَتبارَكَ الله أحْسنُ الخَالِقِينَ .

وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَد خَلت مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقَلبتُم عَلَى أعقَابِكُمْ ﴾ . ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَ رَسُولٌ ﴾ ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبيل : وما نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا محمدٌ إلا رَسُولٌ ﴾ يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

وذكر البخاري من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه ﴿ لا يَستَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤمِنينَ .. وَالمُجَاهِدونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ فجاء ابن أم كلثوم وقال : يا رسول الله : لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان أعمى فأنزل الله ﴿ غَيرُ أولي الضَّرَرِ ﴾ .

* * *

وأورد كتاب تاريخ التشريع :

كانت الآيات التشريعية ، وهي آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغالب جواباً لحوادث في المجتمع الاسلامي ؛ وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول . وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً ، وجعلوها أساساً لفهم القرآن . وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة . وضرب أمثلة للقسمين .

أولهما ــ أرسل رسول الله مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها قوماً مسلمين مستضعفين . فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه ــ ــ وكانت ذات جمال ومال ــ فأعرض عنها خوفاً من الله . ثم أقبلت عليه تريد زواجه فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ، فلما قدم المدينة عرض قضيته عليه وطلب إجازة ذلك الزواج فنزل قوله تعالى في سورة البقرة :

(وَلاَ تَنكحُوا المُشركَاتِ حَتَّى يُؤمِنَّ وَلأمَةٌ مُؤمِنةٌ خَيرٌ مِنْ مُشرِكَةٍ وَلَوْ أعجبَتكُم ، وَلاَ تُنكِحُوا المُشركِينَ حَتَّى يُؤمِنُوا ، وَلعبدٌ مُؤمِنٌ خَيرٌ مِنْ مُشرِك وَلو أعجبَكم ، أولئكَ يَدعُونَ الَى النَّارِ وَاللهُ يَدعُو إلَى الجنةِ وَالمغفرَةِ بإذنِهِ وَيُبينُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعلَّهُم يَتذَكَّرُونَ) .

ثانيهما ــ وردت في القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم ؛ من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : (يَسألُونَكَ عَنِ الخَمرِ والمَيسرِ . قُلْ ..) و (يَسألُونَكَ عَنِ الشَّهرِ الحَرَامِ قِتالٌ فِيهِ ، قُلْ ...) وفي سورة النساء : (يَستَفتونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُم في الكلاَلَةِ) إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التي أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة . وقلما ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مترتباً عليه .

— ٦ —

النبيّ والقرآن

القران هو معجزة رسول الله الكبرى ، وسلاحه الذي شق امام دعوته الطريق وغزا به القلوب .. ولم يعن نبي قبل محمد بحفظ كتابه والدفاع عنه ضد التحريف والتبديل .. والذي لا شك فيه أن ذاكرة رسول الله كانت أول واع للقرآن وحافظ له ، ثم انتقلت إلى ذاكرة صاحبه أبي بكر وتلميذه علي ، ثم وعاه ـ على تفاوت في المقدرة على الحفظ ـ بقية أصحابه .

ولقد كان النبي لا يكتفي في صون القرآن بما تعيه ذاكرة الناس ، ولكنه كان يأمر من يستطيع الكتابة من أتباعه بتدوينه . وكان زيد بن ثابت يكتب له . وقد وردت روايات كثيرة تؤيد قيامه بهذه المهمة . من هذا ما ذكر ابن حاتم عن زيد نفسه قال : «كنت أكتب لرسول الله ، فإني لواضع القلم في أذني إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ينتظر ما ينزل عليه إذ جاءه أعمى فقال : كيف لي يا رسول الله وأنا أعمى ، فأنزلت (لَيسَ عَلَى الضُّعَفاء) ومن هذه الروايات أيضاً ما ورد في البخاري من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : (لا يَستَوِي القاعِدُونَ مِنَ المُؤمنِينَ .. وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ » الخ .

والذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة من أصحابه الأول أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير ، وقد أحصى كتاب « الاسلام والحضارة

العربية ، إثنين وأربعين كاتباً كانوا يؤلفون الديوان النبوي .

ولكننا نقلب ما بين أيدينا من مراجع لكي نظفر بصورة دقيقة واضحة عن طريقة كتابة الوحي في الفترة المكية التي استمرت نحو ثلاثة عشر عاماً فلا نكاد نظفر بشيء يستحق الذكر .. حقيقة كان هؤلاء الصحابة الذين ذكرنا بجوار النبي ، بعضهم منذ الدقيقة الأولى والبعض أسلم بعد سنين ، ولكن وجودهم لا يدل على أنهم كانوا يقومون بمهمة تدوين القرآن في الفترة المكية .. وذلك أن هذه الفترة كانت فترة اضطراب عنيف في حياة الإسلام ، فقد كان معتنقوه قلة قليلة جداً تعد بالعشرات وكانت قريش تلاحقهم بأذاها المتصل وتضيق عليهم الخناق ، فهل يمكن أن نفرض وجود نظام ثابت لتدوين الوحي في هذه الفترة ؟

لقد لاحظنا من قبل أن مدة مقام النبي في مكة لم تتضح معالمها بعد وضوحاً كافياً ، وأن المؤرخين الأول مروا سراعاً على كثير من مراحلها لما غاب عنهم من العلم بتفاصيلها .

وإذن فنحن لا نستطيع أن نجزم بأن القرآن لم يدون في الفترة المكية ، ولكنا على ثقة من أن وسيلة العلم المؤكد لدينا بنبأ هذا الموضوع ليست ميسورة ولا هي ممكنة .. وعلى هذا فإنا نلجأ إلى بعض الفروض ، ونستند إلى إشارات خفيفة مفرقة في بعض المراجع .

فنحن نعلم مثلاً من قصة اسلام عمر أن المسلمين كانوا يختبئون مع النبي في بيت عند الصفا ، وقد أغلقوا من دونهم الباب ولم تعلم قريش مكان هذا البيت ، ولكن من المؤكد أن هذا البيت ـــ وهو المدرسة الأولى للقرآن ـــ كان المكان الذي حفظ فيه الصحابة الأول الكثير من آيات الذكر .

* * *

وتقول دائرة المعارف الاسلامية نقلاً عن البلاذري : ان حفصة وأم كلثوم كانتا تعرفان القراءة والكتابة ، وان عائشة وأم سلمة كانتا تعرفان القراءة ولا تعرفان الكتابة .. ولكن هذه الرواية لا تفيدنا في شيء لأننا نبحث عن التدوين في الفترة المكية ، لا المدنية .

إلا أن المصدر نفسه ينقل عن الأزرقي أن بلداً مثل مكة كانت تكثر فيه التجارة مع الخارج ، ما كان يمكن أن يخلو من كثيرين يكتبون ويقرأون . فالتجارة تحتاج إلى حساب والحساب يحتاج إلى تدوين .

وقد بحثنا بتفصيل معنى كلمة « الأميين » و « الأمي » التي وردت في كثير من الآيات وذلك في كتاب « نور الله » ومؤدى البحث أنها أطلقت على غير اليهود من الأمم الأخرى .

وتلفت دائرة المعارف النظر إلى نقطة أخرى وهي أنه ورد في سورة العنكبوت الآية (وَمَا كُنتَ تَتلو مِن قَبلِهِ مِن كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيمينكَ ، إذاً لارْتَابَ المُبطلُون) والخطاب هنا موجه لرسول الله واستنتجت منه دائرة المعارف أن رسول الله تعلم القراءة في الكبر . وقالت ان التعبير غامض .

وليس التعبير غامضاً ، ولكن التخريج الذي خرجته الدائرة فاسد ، إذ أن لفظ الآية صريح كل الصراحة في الدلالة على أن أهل مكة عرفوا عن النبي قبل نزول الوحي أنه لم يكن يتلو كتاباً ، ولا يكتب بيمينه . ولو أنه كان كذلك اذن لارتاب المبطلون ، بأن يذكروا أنه كان يخلو إلى نفسه فيكتب القرآن ويعده ، ثم يخرج للناس فيتلوه عليهم .

وآية أخرى توردها دائرة المعارف وهي (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكتَتَبَهَا فَهِيَ تُملىَ عَلَيهِ بُكرَةً وَأَصِيلاً) [1] ولا يفهم من هذه الآية شيء

---

١ — سورة الفرقان .

مما أريد حمله عليها . إذ أنها تدل في بساطة على أن كفار قريش كانوا يدعون أن رسول الله يكتب ما يملى عليه من أساطير الأولين . وليس كل ما يدعي الكفار صواباً ، بل هو هجوم يقصد منه تجريح القرآن وأضعاف شأنه . ولعل المعنى يكون أكثر وضوحاً إذا تلونا الآية السابقة والآية التالية . إذ يقول الله تعالى : (وَقَالَ الذِينَ كفرُوا إنْ هَذَا إلا إفكٌ افتَرَاهُ وَأعَانَهُ عَلَيهِ قَومٌ آخَرُونَ ، فَقَد جَاؤُا ظُلماً وَزُوراً . وَقَالُوا أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكتَتَبها فَهِيَ تُملىَ عَلَيهِ بُكرَةً وأصِيلاً . قُل أنزَله الذِي يَعلمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأرضِ ، إنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وليست دائرة المعارف وغيرها من كتب المستشرقين وحدها التي تحاول اثارة هذه الشبهات ، ولكن تناثرت في كتب المسلمين اشارات إلى هذا الموضوع فقد ذكر ابن كثير القرشي .

« ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري « ثم أخذ فكتب » ، وهذه محمولة على الرواية الأخرى « ثم أمر فكتب » . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرأوا منه ، وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم . وإنما أراد الرجل ـ أعني الباجي ـ فيما يظهر أنه كتب ذلك على وجه المعجزة ، لا انه كان يحسن الكتابة كما قال رسول الله أخباراً عن الدجال « مكتوب بين عينيه كافر » . وفي رواية « ك ف ر » يقرؤها كل مؤمن . وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة ، فضعيف لا أصل له » .

ولا يعنينا أن نتقصى أنباء هذه الفتنة التي يصفها ابن كثير بأنها طارت في المشرق والمغرب ، تقول ان النبي عليه السلام كان يعرف

القراءة والكتابة ، وهل كان هذا في صغره أم عرفه وهو كبير السن .. لا ، فهو إلى مباحث السيرة النبوية أقرب ، وان لم يتعرض له أحد من الباحثين المحدثين إلى اليوم .. إلا أن ما يعنينا أن نجيب عليه هنا هو :

هل نزل القرآن وقام النبي بكتابته أم لا ؟

والجواب على هذا بالسلب ، فليست هناك نصوص غامضة أو واضحة في أي كتاب من كتب التاريخ القديم أو الحديث تقول ان النبي كان يكتب ما يوحى إليه ، والقول الفصل في هذا هو ما ورد في القرآن الكريم نفسه ، فقد أكد في مواضع كثيرة أن القرآن أنزل على قلب رسول الله ، وأنه كلف بحفظه وبأن يحفظه المسلمون .. لا أن يكتبوه .

(فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) البقرة .

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ) الشعراء .

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ) الأعراف .

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) الجمعة .

وإذن فلم يكن النبي يكتب ما يوحى إليه ، ولا نعلم على وجه دقيق كيف كان يكتب القرآن في العهد المكي .

ولكنا نذكر في الرواية الشائعة التي تقص عن إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد في يد أخته فاطمة « صحيفة » فيها آيات من القرآن . وعلى الرغم من أن هناك روايات أخرى تهمل قصة فاطمة وما حدث بينها وبين عمر ، إلا أن من الممكن أن نعتمد عليها في أن نعلم أنه كانت هناك صحف تكتب فيها أجزاء من القرآن سواء كانت هذه الصحف عند فاطمة أخت عمر أو عند غيرها .

وكلمة « صحيفة » لا تدل على الورق الذي نعرفه اليوم ولكنها على كل حال شيء مبسوط خفيف الحمل يكتب عليه في سهولة . وأكاد

أشك في أن العرب لم يعرفوا وسيلة للتدوين عليها إلا قطع الأحجار والعظام وغيرها مما يروى أن القرآن كان يكتب عليه في حياة النبي ، وأن زيد بن ثابت جالس بجواره يكتب ! ففي كم من الأحجار أو أجزاء النخيل يستطيع أن يدون هذه الآيات ؟ إنه ليحتاج إلى قدر غير قليل . فإذا سرنا مع الرأي القائل بأن القرآن الذي نزل في مكة دوِّن كله ــ وهو نحو ثلثي المصحف ــ وتصورنا كتابته على هذه الأدوات الخشنة في حجمهاوملمسهافعلينا أن نتصور أن ثلثي القرآن الذي كتب في مكة كان مصحفاً يحتاج إلى عشرين بعيراً لحمله .. ولم نعلم من أنباء الهجرة أن قافلة من الأحجار فرت ، قبل النبي أو مع النبي ، ومعها هذا الحمل الغريب .

وإذن فنحن نفرض فرضاً آخر ، وهو أن العرب كانوا يعرفون « الصحف » ولنعرفها بأنها أداة مبسوطة خفيفة الحمل يكتبون عليها .. وليس غريباً أن يعرفوا هذه الصحف فقد كان اليهود يقيمون غير بعيد من مكة وكانت لهم كتب كثيرة يتدارسونها وكانت مكة ــ كما ذكر الأزرقي ــ طريق تجارة تدون حساباتها ووثائقها ، وأكثر من هذا نعلم أن « صحيفة » كتبت في مكة ، كتبتها قريش لاعلان الحصار الاقتصادي والاجتماعي على بني هاشم . وان كاتب الصحيفة كان منصور بن عكرمة ، وقد علقت الصحيفة في الكعبة ، ولما آذنت مدة الحصار بانقضاء ،وقام على بعضها أفراد من قريش ، وقف واحد منهم في قومه (هو زهير بن أمية) وقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكوا لا يبيعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى (تشق) هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .. وقام واحد إلى الصحيفة (ليشقها) فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

ولا نحسب أن من الجائز ــ إذا كانت الصحيفة حجراً أو عظمة ــ

ان من الممكن شقها ، ويؤكد لنا علماء الحيوان أن الأرضة لا تحب أكل الأحجار والعظام وإن كانت تستطيب صحف النبات والنسيج وغيرها !!

ولقد ورد في القرآن كلمة صحيفة ، مثل قوله تعالى : « فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » .

وثمت كلمة أخرى وردت في القرآن عما يكتب عليه ، وهي القرطاس :

قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكتابَ الذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهدىً لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَه قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً » ..

وقال : « وَلَو نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِم لَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

والقرطاس لا يخرج في معناه عن الصحيفة . ويفهم من هذه الآيات أن القرآن لم ينزل في قرطاس ، وأنه لم يجعل في قراطيس كما كان شأن التوراة التي في يد اليهود .

وهذه النصوص تدل على أن القرآن لم يكن يكتب على سبيل الحصر في صحف وقراطيس :

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذِينَ أُوتُوا العِلْمَ) .

أي أن الحفظ كان أساس العلم بالقرآن وليست التلاوة من صحف مسطورة .

وأما ما كان في المدينة ، فقد وجدت الصحف وعرفت ، وكتب صلح الحديبية على واحدة منها ، وكثرت رسائل النبي إلى الملوك والأمراء . ويمكن القول أن التدوين الفعلي للقرآن قد بدا في هذه الفترة ..

ونكتفي بهذا القدر الآن ، وسنفصل بحث هذه النقطة عندما ننتقل إلى تدوين المصحف والمراحل التي مر عليها .

* * *

ولا بد لنا هنا من أن نسأل سؤالاً آخر :

هل كان الصحابة جميعاً يحفظون القرآن كله ؟

المرجح أنهم لم يكونوا يحفظون كل القرآن . وسنرى حينما نتحدث عن جمع زيد بن ثابت للقرآن أنه وجد مشقة كبيرة في العثور على رجل يحفظ القرآن كله .

وورد في فجر الاسلام للأستاذ أحمد أمين :

ولم يكن شائعاً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه كما شاع بعد . إنما كانوا يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها فإذا حفظوا ذلك انتقلوا إلى غيرها . فكان حفظ القرآن موزعاً على الصحابة :

قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين يقرأون القرآن ، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها ، حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل . وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا (رواه أحمد في مسنده) وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين ، ذلك أنه كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم .

إلا أن النبي كان شديد الحرص على أن يعلم المسلمين القرآن فقد

خصص سيدة لتعليم النساء القرآن ، كما ندب بعض الصحابة لتعليم الرجال القرآن [1] .

وقد حض رسول الله على تعليم القرآن في أحاديث كثيرة فقال : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب » رواه الترمذي والحاكم . وعن عبد الله بن مسعود عن النبي : « إن أصفر البيوت بيت ليس فيه شيء من كتاب الله » .

وعن أبي امامة الباهلي : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » رواه مسلم .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله قال : « من قرأ القرآن وعمل به ألبسه والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا . فما ظنكم بالذي عمل به » .

وعن عبد الله بن عمر : « من قرأ القرآن فقد إستدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه . لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله » رواه الحاكم .

وعن أنس أن رسول الله قال : « إن لله أهلين من الناس . قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهله وخاصته » رواه النسائي .

وعن أبي ذر أن النبي قال له : « يا أبا ذر لئن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولئن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل خير من أن تصلي مائة ركعة » .

---

١ — راجع كتابنا عن محمد ، الجزء الثاني .

وأخرج الترمذي عن علي بن أبي طالب قال : « أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أما انها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله قال : كتاب الله تعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل .. من تركه من جبار قصمه الله تعالى . ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه . وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إِنَّا سَمِعنا قُرآناً عَجَباً يَهدِي إلى الرُّشدِ فآمنَّا بِهِ) من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم »[1] .

هذا طرف من أحاديث رسول الله داعياً إلى القرآن غير ما ورد في القرآن نفسه من دعوة للناس إلى تلاوته وحفظه والتأمل في معانيه .

---

١ – جمع هذه الأحاديث العالم الفاضل الشيخ الدجوي في مجلة نور الإسلام .

— ٧ —

لغة القرآن

لغة القرآن ؟ .. وهل يمكن أن يقال في هذا الباب إلا أن لغته هي العربية الفصحى .. هذا ما يقوله المصحف أول ما يقع عليه النظر ويتحرك بآياته اللسان .

وعلى الرغم من أن هذه الحقيقة تدرك بالبداهة ، إلا أن باب « لغة القرآن » باب فسيح متسع لكثير من القول ، بل لكثير من الجدال . فلقد اختلف العلماء في لغة القرآن ، وما زالوا مختلفين . ولا يمكن أن يدلى اليوم ولا بعد اليوم بالقول الفصل في لغة القرآن ، وكل ما يمكن هو عرض طائفة من الآراء المحدثة والآراء القديمة ، والإشارة إلى ما في هذا الرأي من احتمال الصواب وما في ذاك من احتمال الخطأ .

وقبل كل شيء .. ما معنى كلمة قرآن هذه التي ينطلق بها اللسان اليوم في يسر وسهولة ، ومن أين جاءت ، وماذا فهم القدماء منها ، وماذا يمكن أن نفهم نحن منها اليوم ؟

هناك خمسة أقوال في لفظ « القرآن » هي :

أولاً — ما ذهب إليه الشافعي من أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزاً ولا مشتقاً بل وضع علماً على الكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم .

ثانياً — ما نقل عن الأشعري وأقوام أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء

إذا ضممته إليه . ثم جعل علماً على اللفظ المنزل . وسمي بذلك ، لقران السورة والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثاً ـ ذهب الفراء إلى أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، وجعل علماً على اللفظ المنزل لذلك . وهو على هذين غير مهموز أيضاً ، كالذي قبلهما ونونه أصلية .

رابعاً ـ قال الزجاج هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته . وسمي الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآناً لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامساً ـ ما ذهب إليه اللحياني وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران سمي به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر

* * *

وينقل كتاب « الاتقان » عن الجاحظ أن الله سمى كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم .. سمى جملته قرآناً كما سمى العرب جملة كلامهم ديواناً . وسمى بعضه سورة كقصيدة . وسمى بعض السورة آية كالبيت . وسمى آخر السورة فاصلة كقافية .

كما أورد كتاب هذا المصدر الأقوال التي ذكرناها سابقاً .

ويورد الاتقان رواية مهمة عن كلمة مصحف فيقول : حكى المظفري في تاريخه لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه . فقال بعضهم : سموه انجيلاً ، فكرهوه . وقال بعضهم : سموه السفر ، فكرهوه ، فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف ، فسموه به .

كما يذكر أن كتب الأنبياء السابقين سميت في المصحف بأسماء القرآن ، فسميت « التوراة » الفرقان في قوله :

(وإذ آتينا موسَى الكِتابَ وَالفُرقانَ) .

وتبدأ دائرة المعارف الإسلامية بحثها في مادة قرآن ، يذكر اختلاف المسلمين في نطق كلمة قرآن ومعناها واشتقاقها . فبعضهم يقول القرآن من غير همز ، ويذهب إلى أنها كلمة وضعت كما وضعت كلمة توراة وانجيل . وهو كما ترى قول الشافعي الذي سبق ذكره . ثم تمضي الدائرة في ذكر الأقوال الخمسة . وتضيف إليها قولاً سادساً وهو ما ذهب إليه شفالي [Schwally] و [Wellhausen] من أن الكلمة عبرية أو سريانية تكتب هكذا [Kiryani--Keryani] ومعناها ما يقرأ .

وتميل دائرة المعارف مع هذين العالمين . إلى رأيهما الذي يقول بأن « قرأ » بمعنى تلا ليست كلمة عربية النسب ولكنها دخيلة على اللغة .

* * *

ولا بد لفهم المعنى الدقيق لكلمة قرآن من أن نأخذ المعنى من استعمال المصحف لها .

ففي سورة القيامة : (لا تُحرِّك بِهِ لسَانَكَ لِتعجلَ بِهِ : إنَّ عَلينَا جَمعهُ وَقُرآنه . فَإذا قَرَأناهُ فاتبِّع قُرآنهُ) .

ظاهر المعنى هنا التلاوة والقراءة .. أي أن القرآن هو كلام الله الذي يردده الناس ..

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في سورة الاسراء :

(قُل لئنِ اجتَمعَتِ الإنسُ وَالجنُّ عَلَى أن يَأتُوا بِمثلِ هَذَا القُرآنِ لا يأتُونَ بِمثلِهِ ، وَلو كَانَ بَعضُهم لِبعضٍ ظَهيراً . وَلَقَد صَرَّفنا لِلناسِ فِي القُرآنِ مِن كُلِّ مَثلٍ ، فَأبَى أكثرُ النَّاسِ إلا كفُورَا ..) ثم (.. أو يَكُونَ لَكَ بَيتٌ مِن زُخرُفٍ أو تَرقَى فِي السماء ، وَلَن نؤمِنَ لِرُقيكَ حتَّى تُنزِلَ عَلَينا

كِتاباً نَقرؤُهُ ، قُل سُبحَانَ رَبّي هَل كنتُ إلا بَشراً رَسُولا) .

إلا أن هذه الآيات تضيف توضيحاً جديداً . وهو أن القرآن كلام الله الذي يردده الناس ، ولا يشترط أن تكون التلاوة في كتاب مسطور .

وفي سورة البقرة : (شَهرُ رَمَضانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدى لِلناسِ)

وفي سورة الحجر : (وَلَقَد آتينَاكَ سَبعاً مِنَ المَثاني وَالقُرآنَ العظيمَ) .

وفي سورة طه : (مَا أنزَلنا عَلَيكَ القُرآنَ لِتشقى) .

وفي سورة النمل : (وَإِنَّكَ لَتُلقىٌ القُرآنَ مِن لدُن حَكيمٍ عَليمٍ)

وفي سورة الأحقاف : « وإِذْ صَرفنَا إِلَيكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَستَمعُونَ القُرآنَ . فلمَّا حَضرُوهُ قالُوا أنصِتُوا ، فلمَّا قُضيَ وَلّوا إلى قَومِهم مُنذِرِين » .

وفي سورة الواقعة : (إنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ . في كِتابٍ مَكنُونٍ لا يَمسهُ إلا المُطهَّرونَ) .

وفي سورة الحشر : « لوْ أنزَلنا هَذا القُرآنَ عَلَى جَبلٍ لَرأيتَهُ خَاشِعاً مُتصَدِّعاً » .

وفي سورة الدهر : (إنَّا نَحنُ نَزَّلنا عَلَيكَ القُرآنَ تَنزِيلا) .

وفي هذه الآيات جميعاً ، وفي كثير غيرها مما يجري استعمال اللفظ فيها على هذا النحو ، تدل كلمة قرآن على أنه كلام الله الذي نزل به الوحي على نبيه محمد عليه السلام .

إلا أن هذه الآيات الكثيرة التي اقترنت فيها كلمة القرآن بفعل قرأ تضعف قليلاً من قول الشافعي وقول المستشرقين الذين يذهبون إلى أن الكلمة وضعت من غير اشتقاق مثل كلمة إنجيل وتوراة .. ومثال هذا غير ما ذكرنا :

(وَإذَا قُرِئَ القُرآنُ فاستَمِعوا لهُ وَأنصِتُوا) الأعراف .

(وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَينك وبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً) الإسراء .

(فاقرأوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ) المزمل .

ولا بد لنا من أن ننبه إلى أنه ليس مستحيلاً أو غريباً أن تدخل في القرآن ألفاظ من لغات أخرى . وسنعرض لما في القرآن من ألفاظ أعجمية جاءته مع اللسانين العبري والسرياني ، ومن اللسان الحبشي وغيره وعلى هذا فإن قول « شفالي » وصاحبه من أن كلمة قرآن عبرية أو سريانية لا يرفض على إطلاقه ، وإنما يمكن ان يوضع في الميزان كما توضع بقية الأقوال .

* * *

ولا يسمى هذا الكلام الذي أنزله الوحي على النبي محمد قرآناً فقط . ولكن وردت له أسماء أخرى أكثرها استعمالاً في المصحف « الكتاب » وقد وردت الكلمة مرادفة لكلمة قرآن في كثير من المواطن ، ولا تختلف في استعمالها عن تلك .. ومثال هذا :

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتابِ رَبّكَ) الكهف و (أَفَغَيْرَ اللهِ أبتَغِي حُكماً وَهُوَ الذِي أنْزَلَ إليكُمُ الكِتابَ مُفصَّلاً ، وَالذِينَ آتَينَاهُمُ الكِتَابَ يَعلمُونَ أنهُ مُنَزّلٌ مِن رَبّكَ بالحقّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمترِينَ) الأنعام . و(كِتابٌ أُنزِلَ إليكَ فَلاَ يَكن فِي صَدرِكَ حَرَجٌ مِنهُ لِتنذِرَ بِهِ وَذِكرَى لِلمُؤمِنِينَ) الأعراف .

وورد في القرآن جملة « أهل الكتاب » أي القوم الذين يدينون بكتاب نزل به الوحي .

وسمي القرآن فرقاناً ، وفيه سورة تحمل اسم « الفرقان » وقد رأت

دائرة المعارف كلمة فرقان مجهولة الأصل ، ولا نحسب أنها كذلك فهي مصدر من فعل فرق ، والفرقان هو ما يفصل بين الشيئين . وسمي به القرآن لأنه يفصل بين الحق والباطل .

وهكذا استعملت الكلمة : (تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبدِهِ لِيَكُونَ لِلعالمِينَ نَذِيراً) .

ولا خلاف في استعمال اللفظ هنا عما استعمل فيه لفظ قرآن أو كتاب . وإن كانت الكلمة في هذه الآية لم تستعمل الاستعمال الذي لم يوضح تماماً معناها اللغوي وهو الفصل والتفريق بين شيئين . .

وسمي القرآن أيضاً الذكر . ففي سورة القمر :

(أَأُلقِيَ الذِّكرُ عَلَيهِ مِنْ بَينِنَا) وفي سورة الأنبياء (أم اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَة . قُل هَاتُوا بُرهَانَكمُ ، هَذَا ذِكرُ مَن مَعيَ وَذِكرُ مَنْ قَبلي ..) وفي سورة الحجر : (وَقَالُوا يَا أيُّها الذِي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكرُ إنَّكَ لَمَجنُونٌ) .

وقد اقترنت كلمة الذكر مع كلمة فرقان في سورة الأنبياء :

(وَلَقَدْ آتينَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرقَانَ وَضِياءً وَذِكراً للمُتَّقِين)

وكما سمي الأقوام الذين نزلت عليهم كتب من السماء « أهل الكتاب » كذلك سموا « أهل الذكر » وهم بنو إسرائيل .

ووردت في القرآن أيضاً كلمة حكمة . ففي سورة البقرة .

(رَبَّنا وَابعَث فِيهِمْ رَسُولاً مِنهُم يَتلُو عَلَيهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِمهمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُزَكِيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العزِيزُ الحَكِيم) و (كما أرْسَلنا فيكُم رَسُولاً مِنكُم يَتلُو عَلَيكُم آيَاتِنا وَيُزَكيكُم وَيُعَلِّمكُمْ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَيُعلِمكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعلَمُونَ) وفي هذه السورة أيضاً : (وَاذْكُروا

نِعمةَ اللهِ عَليكُمْ وَمَا أنزَلَ عَليكُم مِنَ الكِتابِ وَالحِكمة) وفي سورة آل عمران : (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤمِنِينَ إذْ بَعثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنفُسِهِمْ يَتلُو عَليهِم آياتِهِ ويُزَكّيهِم وَيُعلمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةِ وَإنْ كانُوا مِنْ قَبلُ لفِي ضَلالٍ مُبِين) وفي سورة النساء : (وَأنزَلَ اللهُ عَلَيكَ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمكَ مَا لَمْ تكُن تَعلمُ) . وفي سورة الجمعة : (هُوَ الذِي بَعثَ في الأُميينَ رَسُولاً مِنهمْ يَتلُو عَلَيهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكّيهمْ وَيُعلمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمةَ وَإنْ كانُوا مِنْ قَبلُ لفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) .

وفي هذه الآيات جميعاً نرى لفظ الحكمة مقترناً بلفظ الكتاب معطوفاً عليه . ولا سبيل إلى أن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أنها مرادفة أيضاً لكلمة قرآن ، فقد ذكر الشافعي أن المقصود بها سنة النبي . والمتفق عليه بين علماء المسلمين أن كثيراً من سنن النبي نزل بها الوحي . وعلى هذا الوجه يمكن أن يفهم قوله تعالى : « وَأنزَلَ اللهُ عَليكَ الكِتابَ وَالحِكمَةَ) .

وقد ذكر الأستاذ مصطفى عبد الرزاق في محاضراته في الفلسفة الاسلامية أن من الممكن أن تكون كلمة « حكمة » في اللغة العربية مرادفة لكلمة « فلسفة » اليونانية وتتبع هذه الكلمة يهدينا إلى أصل التفكير الممتاز عند العرب ، وقد وجدت الكلمة في الجاهلية ، والشواهد عليها كثيرة جداً .. ومعنى الحكمة في القرآن ، في أكثر الأحيان ، سنة النبي . ولا خلاف في تقرير هذا المعنى . واستعملت الكلمة أيضاً في القرآن بالمعنى اللغوي الذي كان معروفاً عند العرب ، وقال اللغويون الحكمة والحكم من مادة واحدة . ويرى بعض المستشرقين أن الكلمة عبرية ، ومعناها في هذا اللسان : القضاء ، أي الحكم أيضاً والمحكمة في معناها العام تدل على السداد واتقان الرأي والفعل .

(وَمَن يُؤتَ الحِكمةَ فَقَد أوتِيَ خَيراً كثيراً) .

وعبر عن القرآن أيضاً بأنه آيات الله . وكلمة آية في الرأي الراجح عبرية لأنها تشبه كلمة عبريةً مقاربة في اللفظ . ومن معانيها المعجزة ، وكذلك كلمة سورة تشبه كلمة وهي بالمعنى نفسه [1] .

* * *

هذا ما يتصل ببعض الألفاظ المشهورة في القرآن .. ولننتقل بعد هذا إلى لغة القرآن . ويظهر أن الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » كان سبباً في نشوء هذا العلم من علوم القرآن ، ونعني به لغة القرآن . وقد أوردنا في مقدمة هذا الكتاب أسماء ستة كتب أوردها « فهرست » ابن النديم ، عرضت له بالبحث والتفصيل .

وطريقتنا في تناول هذا الموضوع ، هي أن نورد أهم الدراسات التي عرضت له ونلخصها ، ثم نذكر ما يعن لنا فيه .

وأحدث هذه الدراسات ، وأقومها إلى الآن ، ما ذكره الأستاذ الدكتور طه حسين في كتابه الأدب الجاهلي ، فقد أحاط في موضوعه بآراء المحدثين والقدماء من المسلمين ، كما أحاط بآراء المستشرقين .. قال [1] :

« أثبت البحث الحديث خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من اثبات هذا الخلاف في

---

١ — راجع تعليقات سيل في ترجمة المصحف .

١ — ص ٢٩ من الأدب الجاهلي وما بعدها .

اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً . وإذن فلا بد من حل لهذه المسألة ..

« إذا كان أبناء اسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب الذين نسميهم العاربة ، فكيف بعد ما بين اللغة التي كان يصطنعها العرب العاربة واللغة التي كان يصطنعها العرب المستعربة حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء أن يقول انهما لغتان متمايزتان ، واستطاع العلماء المحدثون أن يثبتوا هذا التمايز بالأدلة التي لا تقبل شكاً ولا جدالا ..

« الحق ان القدماء والمحدثين مضطربون اضطراباً شديداً في تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ العرب ، وفي تحديد ما ينبغي أن يفهم من لفظ اللغة العربية وهذا الاضطراب ليس من شأنه أن يعين على التحقيق العلمي ، ولا أن يمكننا من أن نضع أمامنا ـ في دقة وجلاء ـ المسألة التي يجب أن نعني بها ..

« فأما القدماء فقد كانوا يفهمون من لغة العرب سكان هذه البلاد العربية ، وإن لم يتفقوا في تحديدها على ما يحدده الجغرافيون الحديثون اليوم ولم يكونوا يفرقون بين سكان هذه البلاد في التسمية . وإنما كان الجنوب عرباً وكان أهل الشمال عرباً . ولم يكن ذلك شأن القدماء من العرب وحدهم ، وإنما كان القدماء من اليونان والرومان .. فأهل اليمن عرب والانباط عرب عند أولئك وهؤلاء .

« وأما المحدثون ففريق منهم يطلقون لفظ العرب كما كان يطلقه القدماء على سكان هذا الطرف من أطراف آسيا . ولكن عند فريق منهم ميلاً ظاهراً إلى أن يتجاوز الطرف قليلاً أو كثيراً . فهم لا يكتفون بعربية اليمنيين والحجازيين والنجديين . ولكنهم يريدون أن يكون النبط عرباً ، وأن يكون البابليون في عصرهم الأول عرباً .. وهم كما ترى يمدون لفظ العرب حتى يتجاوزوا به البلاد العربية الطبيعية . وهم يرتبون على هذا

نتائج غريبة : فحضارة النبط حضارة عربية ، وحضارة البابليين وتشريعهم من عهد « حمورابي » حضارة عربية وتشريع عربي ، واللغة العربية تتسع وتضيق بمقدار ما تتسع البلاد العربية وتضيق ، وبمقدار ما يتسع الجنس العربي نفسه ويضيق » .

ثم يمضي الأستاذ في ذكر الفروق بين لغة عرب الجنوب وعرب الشمال ، أو كما يقول لغات الجنوب ولغة الشمال . ويورد بعض النصوص التي كشفها الأستاذ جويدي من اللغة الحميرية : وكيف أنها تختلف اختلافات كثيرة جداً عن اللغة الحجازية القرشية التي نعرفها . ومثال هذا النص الذي يقول : « وهيم واخهو بنو كلبت هقنيو ال مقه ذهرن ذن فرندن حجن وقههمو بمسالهو لو فيهمو وسعد همو نعمتم » .

ومعناها « وهاب (اسم رجل) وأخوه بنو كلب أعطوا المقه (اسم إله في هران) هذا اللوح لأنه أجابهم عن سؤالهم وسلمهم وساعدهم بنعمته » .

ثم يتدرج من هذا البحث الطويل إلى قوله :

« إن القرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة ، هي لغة قريش ولهجتها ، لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت تبايناً كثيراً .. جد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه ، وأقاموا له علماً أو علوماً خاصة ، ولسنا نشير هنا إلى هذه القراءات التي تختلف فيما بينها اختلافاً كثيراً في ضبط الحركات سواء أكانت حركات بناء أو حركات إعراب . لسنا نشير إلى اختلاف القراء في نصب « الطير » في الآية (يَا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطيرَ) أو رفعها . ولا إلى اختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية (لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أنفسِكُمْ) .. الخ .

إنما نشير إلى اختلاف آخر في القراءات يقبله العقل ويسيغه النقل

وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش ... فقرأته كما كانت تتكلم : فأمالت حيث لم تكن تميل ، وقصرت حيث لم تكن تقصر ، وسكنت حيث لم تكن تسكن ، وأدغمت أو أخفت أو نقلت حيث لم تكن تدغم ولا تخفي ولا تنقل ..

وهنا وقفة لا بد منها . ذلك أن قوماً من رجال الدين فهموا أن هذه القراءات السبع متواترة عن النبي نزل بها جبريل على قلبه . فنكرها كافر في غير شك ولا ريبة . ولم يوفقوا إلى دليل يستدلون به على ما يقولون سوى ما روي في الصحيح من قوله عليه الصلاة والسلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

والحق أن ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير ، وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولا مغتمزاً في دينه ، وإنما هي قراءات مصدرها اللهجات واختلافها ... للناس أن يجادلوا فيها ، وأن ينكروا بعضها ويقبلوا بعضها . وقد جادلوا فيها بالفعل وتماروا ، وخطأ فيها بعضهم بعضاً . ولم نعرف أن واحداً من المسلمين كفر أحداً لشيء من هذا .

وليست هذه القراءات بالأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن ، وإنما هي شيء وهذه الأحرف شيء آخر .

فالأحرف جمع حرف ، والحرف : اللغة ... فمعنى أنزل القرآن على سبعة أحرف ، انه أنزل على سبع لغات مختلفة في لغتها ومادتها . يفسر ذلك قول ابن مسعود : « إنما هو كقولك هلم وتعال وأقبل » . ويفسر ذلك قول أنس في الآية :

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً) : « أصوب وأقوم وأهدى

واحد » . ويفسر ذلك قراءة ابن مسعود (مَا ينظرون إلا زقية واحدة) مكان (مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً) .

الأحرف إذن هي اللغات التي تختلف فيما بينها لفظاً ومادة . فأما هذه القراءات التي تختلف في القصر والمد وفي الحركة والسكون وفي النقل والإثبات وفي حركات الإعراب ، فليست من الأحرف في شيء... لأنها اختلاف في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ . وقد اتفق المسلمون على أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أي على سبع لغات مختلفة في ألفاظها ومادتها . واتفق المسلمون على أن أصحاب النبي تماروا في هذه الأحرف والنبي بين أظهرهم ، فنهاهم عن ذلك وألح في نهيهم . فلما توفي النبي استمر أصحابه يقرأون القرآن على هذه الأحرف السبعة ، كل يقرأ على الحرف الذي سمعه من النبي . فاشتد الخلاف والمراء في ذلك ، حتى كادت الفتن تقع بين الناس ـــ ولا سيما في جيوش المسلمين التي كانت تغزو وترابط في الثغور بعيدة عن مهبط الوحي ومستقر الخلافة ـــ فرفع الأمر إلى عثمان ، فجزع له وأشفق أن يقع بين المسلمين مثل ما وقع بين النصارى من الإختلاف في نص القرآن كما اختلفوا في نص الإنجيل ، فجمع لهم المصحف الامام وأذاعه في الأمصار وأمر بما عداه من المصاحف فمحي محواً .

وعلى هذا محيت من الأحرف السبعة ستة أحرف ولم يبق إلا حرف واحد هو هذا الذي نقرؤه في مصحف عثمان ، وهو حرف قريش ، وهو الحرف الذي اختلفت لهجات القراء فيه : فمد بعضهم وقصر بعضهم ، وفخم فريق ، ورقق فريق ، ونقلت طائفة ، وأثبتت طائفة .

ولقد حاول بعض القراء والرواة أن يعينوا هذه اللغات التي أنزل عليها القرآن فقالوا : خمس من عجز هوازن واثنتان لقريش وخزاعة . ولكن

الثقات لم يقبلوا هذا النحو من الكلام وأعرضوا عنه إعراضا » .

ثم أورد الأستاذ ما ورد فى الجزء الأول من تفسير ابن جرير الطبرى لتأييد رأيه .

* * *

وكلام الطبرى فى هذا الموضوع هو الحلقة الثانية من سلسلة بحثنا فى موضوع لغة القرآن ، لأنه من أقدم البحوث الموجودة بين أيدينا وقد عرض فى تفصيل واستنارة لما نحن بصدده .

قال ابن جرير ما ملخصه : إن قوما من العلماء ذهبوا إلى أن الأحرف السبعة هى سبعة معان جلتها : الأمر والنهى والوعد والوعيد والجدل والقصص والمثل . ولكنه يعارض هذا ويقول إن الأحرف السبعة هى سبع لغات من لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة الألسن . وذكر أن أصحاب رسول الله تماروا فى تلاوة بعض القرآن فاختلفوا فى قراءته دون تأويله « وأنكر بعض قراءة بعض ، مع دعوى كل قارئ قراءة منها ، أن رسول الله صلى الله علية وسلم أقرأه ما قرأ بالصفة التى قرأ . ثم احتكموا إلى رسول الله ، فكان من حكم رسول الله بينهم أن صوب قراءة كل قارئ منهم على خلاف قراءة أصحابه الذين نازعوه فيها . وأمر كل امرئ منهم أن يقرأ كما علم ، حتى خالط قلب بعضهم الشك فى الإسلام لما رأى من تصويب رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءة كل قارئ منهم على اختلافها ، ثم جلاه الله عنه ببيان رسول الله له أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

وعرض الطبرى لنقطة مهمة جدًّا وهى : هل نزل القرآن بلغة واحدة أم نزل بسبع لغات مع اتفاق المعنى ، واختار أنه نزل بالسبع المذكورة التى يوضحها المثال فى لفظ هلم ، يقال بدله أقبل وتعال ، وإلى وقصدى

ونحوي وقربي ، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من النطق ، وتتفق فيه المعاني وإن اختلفت بالبيان به الألسن .

وعرض لنقطة أخرى لا تقل أهمية ، وهي الرد على سؤال المستفسرين : فما بال الأحرف الأخر الستة غير موجودة ، وقد أقرأهن رسول الله أصحابه ، وأمر بالقراءة بهن ، وأنزلهن الله من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم .. أنسخت فرفعت ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهن الأمة ؟ فذلك تضييع ما قد أمروا بحفظه .. أم ما القصة في ذلك؟

وأجاب ابن جرير على هذه الأسئلة المحرجة جواباً بارعاً فقال :

لم تنسخ الأحرف السبعة فترفع ، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها ... ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت . وضرب لها مثلاً في الفقه : إذا حنث موسر في يمين فله أن يختار كفارة من ثلاث كفارات : اما عِتْقٌ ، وإما إطعام ، وإما كسوة ، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخيرت في قراءته بأي الأحرف السبعة شاءت قرأت . ولعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ، قرأته بحرف واحد ورفضت القراءة بالأحرف الستة الباقية . ولم تحضر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به .. ثم أورد الطبري أنباء ما حدث في أيام أبي بكر وعمر وعثمان مما سنفصله عند حديثنا عن جمع المصحف .

* * *

هذا رأي ابن جرير الطبري ، وهو يذهب أيضاً إلى أن الأحرف السبعة هي اللغات السبع .

وبحث آخر للسيوطي في (الاتقان) ، لا بد لنا من تلخيصه .

بدأ السيوطي فأكد صحة الحديث بشهادة واحد وعشرين صحابياً

ذكروه . ثم أراد عثمان بن عفان أن يستوثق عن صحته فطلب من المسلمين ، وهم مجتمعون في المسجد ، أن يقف منهم من سمع هذا الحديث فوقف من في المسجد كلهم فقال : (وأنا أشهد معهم) .

وانتقل السيوطي إلى بحث الأقوال التي قيلت في هذا الحديث ، فاذا هي نحو أربعين قولاً .. وبدأ فأضاف إشكالاً إلى الإشكالات الموجودة في هذا الموضوع فقال : (إنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات ولا يراد العدد المعين) . ثم أخذ يسرد الأقوال : فمنها أنها القراءات السبع ولكنه رد هذا القول بأن في القرآن آيات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ومنها ما يقرأ على أقل ، ومنها ما تغيرت حركته ولم يتغير معناه ولا صورته (مادة اللفظ) . ومنها ما ذكره الطبري من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني . وذكر الطحاوي أن ذلك كان رخصة لما يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة والضبط واتقان الخط . ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ . وضرب مثلاً لهذا أن عبد الله بن مسعود كان يعلم رجلاً القرآن ، فتلا عليه (طعام الأثيم) ، فقال الرجل : (طعام اليثيم) . فردها عليه ، فلم يستقم لسانه بها ، فقال : (أتستطيع أن تقول طعام الفاجر) . قال : (نعم) . قال : (فافعل) .

وقول آخر ذهب إليه كثير من العلماء مثل أبي عبيد وثعلب والزهري ، وهو أن الأحرف السبعة هي لغات سبع ، فلما قيل لهم إن لغات العرب أكثر من سبع أجابوا إن المراد هو أفصحها .

ورويت عن ابن عباس الرواية التي أوردها كتاب (الأدب الجاهلي) من تعيين القبائل السبع التي كانت أحرف القرآن بلسانها .

إلا أن ابن قتيبة يرفض أسماء هذه القبائل ، ويقول إنما هي بطون

من قريش وحدها ، بدليل قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) .

لأبي عبيد رأي قيّم وهو أن في القرآن سبع لغات متفرقة فيه : فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم . أي أن في القرآن ألفاظاً وجملاً مما كانت تعرف هذه القبيلة .

ورأي آخر لا يقل قيمة لأبي شامة ، وهو أن القرآن نزل بلغة قريش ، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والأعراب . ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغة إلى لغة أخرى للمشقة ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد . وقيد البعض هذا النقل بما سمع عن النبي عليه السلام .

ومضى السيوطي يعرض طائفة أخرى من الأقوال لا أهمية لها ... ثم انتهى كلامه بقوله : « وقد ظن كثير من العوام أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبع ، وهو جهل قبيح » .

* * *

وقبل أن نقول كلمتنا في هذا الموضوع الذي كثر حوله الخلاف ، واشتد فيه جدل القدماء ، نرجع — كعادتنا — إلى المصحف لنرى إذا كان من بين آياته ما يلقي ضوءاً على الأحرف السبعة أم لا ..

نقرأ في سورة فصلت : (كتابٌ فُصِّلَتْ آياتهُ قُرآناً عَرَبياً لِقَومٍ يَعلَمُونَ) ، وفيها أيضاً (ولَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أعجمياً لَقَالُوا لَولا فُصِّلَتْ آياتهُ ، أأعجمي وَعَرَبي ؟) .

ونستخلص من الآيتين أن القرآن نزل باللغة العربية لقوم يعلمون هذه اللغة . فهو لم ينزل بلغة يستغلق فهمها على العرب وإنما كانت آياته

وسوره واضحة مفهومة مفصلة لسامعيها .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية . ففي الزخرف :

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبياً لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ) .

وفي سورة يوسف الآية نفسها تقريباً .

(وَكذلكَ أنزَلنَاهُ قُرآناً عَرَبياً وَصَرَّفنا فِيهِ مِنَ الوَعيدِ لعلَّهم يَتقُونَ ، أو يحدِثُ لهم ذِكراً) وفي سورة الشعراء : (بِلسانٍ عَرَبِيٍ مُبينٍ) وفي سورة الزمر (قُرآناً عَرَبياً غَير ذِي عِوَجٍ) وفي سورة الدخان (فَإِنما يَسرّناهُ بِلسانكَ لعلهُم يَتذكَّرُونَ) .

فهذه الآيات الصريحة الدلالة على أن النبي كان يتلو القرآن باللسان العربي المبين الذي يعلمه هو . وقد حرصت آيات كثيرة ــ كما رأيت ــ على تأكيد هذا المعنى .

وهنا يخطر على الذهن أسئلة منها :

ما اللغة العربية التي كانت معروفة قبل ثلاثة عشر قرناً ، وما حدودها ؟

هل كانت هناك لغة عربية مبينة ، وأخرى غير مبينة تجنبها القرآن ولم يعبر عن معانيه بها ؟

هل كان النبي يعرف لغة قريش الحجازية المكية التي نراها في القرآن ، وفيما صح من الأحاديث ؟ .

وما شأن هذه الآيات التي تتحدث عن اللسان العربي وعن اللسان الأعجمي وتؤكد أن لسان النبي عربي . وما هذا اللسان أو هذه الألسنة الأعجمية التي يتحدث عنها القرآن ؟

والاجابات عن هذه الأسئلة جميعاً ليست سهلة ميسورة لنا . أو

لغيرنا . ذلك أن أبحاث العلماء القدماء والمحدثين لم تتفق على رأي قاطع في كثير من هذه النقط يمكن الاطمئنان اليه .. ومع كل فسنحاول أن نبسط القول في هذا الموضوع جملة واحدة وعسى أن نوفق إلى حل بعض المسائل التي سبقت الاشارة اليها :

ومهما اختلف الباحثون ، فقد أصبح واضحاً جلياً أن اللغة العربية في الجاهلية لم تكن لغة واحدة يتفق نطقها وصرفها ونحوها .. فبعد أن كشف الأستاذ جويدي عن نصوص اللغة الحميرية واثبت اختلافها التام عن اللغة القرشية التي نعرفها اليوم ، في بنية الفاظها وفي تركيب جملها . لم يعد هنالك شك في أن جزيرة العرب كانت مستقر شعوب لا شعب واحد ، وكانت هذه الشعوب تنطق بلغات كثيرة قد تتفق بينها بعض الألفاظ كما تتفق اليوم بعض ألفاظ اللغة الفرنسية والانجليزية ، ولكن كل لغة منها قائمة بذاتها مستقلة استقلالاً (لا شك فيه) ولم تكن الحميرية هي لغة الجنوب فقط ، وإنما كانت هنالك لغات أخرى مثل السبئية والمعينية .. ولم يكن العلماء بعد الإسلام بغافلين عن هذه الحقيقة ، فقد تنبهوا إلى اختلاف ألسنة الجنوب عن لسان قريش . وقد عبر أبو عمرو ابن العلاء عن هذا المعنى في وضوح تام .

وإذا كان هذا هو شأن لغات الجنوب حيث وحدت دول ثابتة وقامت حضارات بقيت آثارها إلى اليوم ، فماذا كان شأن الخليج العربي الذي يسمح موقعه بأن تنشأ فيه حضارة وأن يستقر فيه سكان لهم استقلالهم ويخضعون لما تخضع له الشعوب الأخرى من تأثر بالبيئة ، ونقل عن الشعوب المجاورة . ان ما يصدق على هذه يصدق على الحجاز ، وما يصدق عليها جميعاً يصدق على شمالي الجزيرة حيث كان يقيم المناذرة والغساسنة .

وإذن فنحن حين نتصور شبه الجزيرة العربية بقعة من الأرض لها

حدود واضحة . نخطىء إذ نتصور أن شعبا واحدًا له لسان واحد كان يسكنها ، وإنما كانت تقيم في جزيرة العرب شعوب ، فلنسمها الشعوب العربية رعاية لاسم شبه الجزيرة ، ولكن لا ينبغي أن تخدعنا هذه التسمية في أمر اللغة التي ينطق بها هؤلاء جميعا ويتخاطبون بها .

فإذا نحن أقمنا في الحجاز مدة من الزمان ، وأقمنا في مكة بصفة خاصة ، فإنا نجد هذه القرية تدير حركة تجارية واسعة تمتد إلى كل وجه من وجوه الجزيرة فقوافلها تسير إلى الشمال وتتصل بنصرانية بيزنطة ، وتعلم من شأن هذا الدين شيئا غير قليل ، وتسير أيضا إلى الشمال الشرقي ، وتتصل بمجوسية فارس وتعلم عن دينها وآدابها ما يسمح لأحد من أهل مكة أن يجلس في الكعبة ويقص أحاديث رستم واسفنديار ليعارض بها القرآن : وهذه الرحلات إلى الشمال كانت وسيلة لنقل التجارة كما كانت وسيلة أيضا لنقل كثير من الألفاظ والتعبيرات باللغات التي كانوا يتخاطبون بها هناك ، وهي اللغة السريانية واللغة العبرية . . وذلك أن اتصال الحجاز وأهل مكه باليهود كان أقوى من غيره من الاتصالات . فقد كان يسكن اليهود غير بعيد من مكة ، ويقيمون في أماكن تصعد شمالا حتى فدك ، وهو طريق من طرق التجارة الذي تنزل فيه القوافل وتمير يهود هذه البلاد وتمتار منها .

هذه رحلات الشمال ، ومايقال عنها يقال أيضا عن رحلات الجنوب .

ولم يقتصر الأمر على رحلات أهل مكة إلى هذه الأماكن جميعا ، وإنما تجاوزه إلى أن يقيم في مكة ناس من الفرس واليونانيين وأقباط مصر وأهل الجنوب وغيرهم . ومن المؤكد أن هؤلاء القوم الذين حملتهم ظروف شتى على الإقامة في مكة ، كانوا يقيمون فيها وألسنتهم معهم ، وكان اتصالهم بأهل هذه القرية يضطرهم إلى تعلم لغتها العربية القرشية . كما ينقل إلى لسان المكيين ألفاظا غير قليلة من هؤلاء الذين يقيمون بينهم .

فإذا صح لدينا هذا كله ــ وهو صحيح ــ فمن السهل أن نتصور أن لغة المكيين كانت تمتاز عن لغة بقية الحجاز بوجود هذه الألفاظ الكثيرة فيها ، التي تستعين بها في تحديد المعاني وفي وصف أشياء لا عهد لسكان القرى الأخرى في أطراف الحجاز وفي نجد بها . ومن السهل أيضاً أن نتصور امكان انتقال قليل من هذه الألفاظ إلى القبائل الأخرى تبعاً لحركة الحجيج كل عام ، الذي كان يفد إلى مكة وينصرف منها ليعود في عام قابل . وحركة الأسواق التي كانت تقام للتجارة وإنشاد الأشعار .

ومن هنا يمكن أن نقرر أن أهل مكة عرفوا لغات أجنبية إلى جانب لغتهم الأصلية ، وأن اللغة الأصلية نفسها تأثرت بهذه اللغات التي تنتقل إلى مكة من الأجانب المقيمين بها ، أو تنتقل إليها مكة في متاجرها .

وقد كونت هذه الرحلات وهذه الإتصالات إلى جانب التأثير اللغوي ثقافة غير هينة ، كما وجدت حركة تدوين وقراءة .

* * *

هذا هو شأن مكة ولغة أهلها . ورسول الله قد نشأ في مكة ، وتأثر في حياته الأولى بما كان يتأثر به أهلها من ظروف شتى . وكان رسول الله يسافر إلى الشمال ، وكانت له قرابة في بني النجار الذين يقيمون في يثرب ، حيث يستقر اللسان العبري والسرياني ، مع اليهود المقيمين هنالك . ولم يقل أحد أن رسول الله لم يكن يعلم شيئاً من أمر هذه اللغات التي تأثرت بها مكة ، وأمر هذه الثقافات التي ذابت فيها .

بل أكثر من هذا ، فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله وهو في مكة بهـؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون فيها ، وكان يزورهم ويطيل صحبتهم .. فقد روي عن عبيد الله بن مسلم قال :

«كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهما فيقوم فيسمع منهما» .

وروي عن ابن إسحق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة ـ غلام نصراني يقال له جبر ـ عبد لبعض بني الحضرمي . وعن إبن عباس أن النبي كان يزور ـ وهو في مكة ـ أعجمياً اسمه بلعام ، وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده . وفي رواية أخرى أن غلاماً (كان لحويطب بن عبد الله العزى) قد أسلم وحسن اسلامه إسمه عائش أو يعيش ، وكان صاحب كتب .. وقيل هو جبر ، وقيل هما اثنان جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل . فكان رسول الله إذا مر عليهما وقف يسمع ما يقرآن .. الخ .

وإذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة ، وكان يفهم ما يتلى عليه .. وقد ورد فيما ذكرنا قبل من آيات القرآن أن المشركين كانوا يتهمون النبي بأنه يأخذ هذا القرآن عن العجم ، فردّ عليهم ببطل قولهم : (وَلَقَدْ نَعلمُ أنهُم يَقولُونَ إنمَا يُعلمه بَشرٌ . لِسانُ الذِينَ يُلحدُونَ إليهِ أعْجميٌّ وَهَذا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ) .

* * *

وقد نزل القرآن باللغة العربية القرشية التي ذكرنا أن كثيراً من ألفاظ اللغات الأخرى ، ولغات القبائل المجاورة ، ذابت فيها . وقد فهم الصحابة القرآن اجمالاً ولكن ألفاظاً غير قليلة استغلقت عليهم ، بل ان بعضها لا لا يزال مستغلقاً علينا إلى اليوم على الرغم من أن وسيلة العلم ببعض اللغات القديمة قد توفرت لدينا . وقد ذكرنا في مقدمة الكتاب [1] أن عمر بن

---

١ — مقدمة الطبعة الأولى . وكلمة أب مرادفة لكلمة فاكهة ولكن الراغب الاصفهاني في كتابه : غريب القرآن ، فسر الأب بأنه المرعى .

الخطاب لم يفهم كلمة « أب » وله العذر ، فهي كلمة حبشية . وقد ذكرنا في باب لغة القرآن بعض الألفاظ التي تشبه ألفاظاً سريانية وعبرية ، وليس لها أصل عربي واضح .. ووردت روايات عن ألفاظ في القرآن لم يكن بعض الصحابة يفهمونها لأنها مستعملة عند بعض القبائل وليست مستعملة عند قريش . ومن هذا ما روي عن ابن عباس : أن اعرابيين اختصما لديه في بئر ، فقال أحدهما : « أنا فطرتها » وعارضه الثاني . فقال ابن عباس : ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى : (فَاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرضِ) .

وورد عن ابن عباس أيضاً أنه لم يكن يفهم معنى الآية : (رَبَّنا افتَحْ بَيننا وَبَينَ قَومِنا بِالحقِّ) حتى سمع فتاة من اليمن (بنت ذي يزن) تنادي زوجها : « تعال أفاتحك » تقصد أحاكمك . وروي عن عمر بن الخطاب أنه سأل عن معنى الآية : (أَوْ يَأْخذَهُمْ عَلَى تَخوُفٍ) فقيل له تنقص لهم .

وروي عن ابن عباس أيضاً قال : « كل القرآن أفهمه إلا أربعاً : غسلين وحنانا ، وأواه ، والرقيم » وهذه الرواية وغيرها لا نسوقها على أنها مقطوع بصحتها ، ولكن لكي ندلل على أن في القرآن ألفاظاً غير قليلة أغلق فهمها على الصحابة ، حتى أن أبا بكر قال : « أي سماء تظلني وأي أرض تقلني ان أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم » .

وقد ذكر ابن النقيب في خصائص القرآن : ان القرآن احتوى على جميع لغات العرب ، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير .

ومن الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون إلى وجودها في القرآن ما يأتي :

استبرق ـ يونانية .
أب ـ حبشية .
ابلعي (ماءك) ـ قالواهندية أوحبشية .
أخلد (إلى الأرض) ـ قالوا عبرية .
الأرائك ـ حبشية .
أسفار ـ سريانية أو نبطية .
اصر : أي عهد ـ نبطية .
أليم :أي موجع . قالوا زنجية أو عبرية
أواب ـ أي المسبح بالحبشية .
الأواه ـ الموقن بالحبشية .
بطائنها ـ أي ظواهرها بالقبطية .
بعير ـ عبرية .
تنور ـ فارسية .
الجبت ـ إسم الشيطان بالحبشة .
جهنم ـ يونانية أو فارسية .
حصب ـ بمعنى حطب في الزنجية .
دريّ ـ أي مضيء بالحبشية .
دينار ـ فارسية .
الرس ـ أي البئر باليونانية .
رهوا ـ سهلاً بالسريانية .
حواريون ـ أي غسالون بالنبطية وتنطق في النبطية « هواري » .

السجل ـ الكتاب بالفارسية .
سجيل ـ فارسية .
سريا ـ قيل سريانية ونبطية ويونانية .
سندس ـ فارسية وهندية .
الصراط ـ الطريق بلغة الروم .
الطاغوت ـ الكاهن بالحبشية .
عدن ـ الكروم والأعناب بالسريانية .
غساق ـ المنتن البارد بالتركية .
غيض ـ أي نقص بالحبشية .
الفردوس ـ البستان بالرومية .
قسورة ـ الأسد بالحبشية .
كافور ـ بالفارسية .
كفلين ـ أي ضعفين بالحبشية .
كورت ـ أي غورت بالفارسية .
مشكاة ـ الكوة باللغة الحبشية .
مرقوم ـ مكتوب بالعبرية .
منسأة ـ عصا بلسان النبط .
مناص ـ فرار بالنبطية .
المهل ـ الزيت بلسان البربر .
ناشئة ـ ناشئة الليل أي قيام الليل بالحبشية .
منبر ـ كرسي بالحبشية .
هيت لك ـ أي هلم بالقبطية .
وزر ـ الملجأ بالنبطية .
ياقوت ـ بالفارسية .
يحور ـ يرجع بالحبشية .

يسن ـ انسان ـ أو رجل بالحبشية . يعهد ـ ينضج باللغة البربرية .
اليم ـ البحر بالسريانية أو القبطية . الفوم ـ الحنطة بالعبرية .
هونا ـ يمشون على الأرض هونا أي حكماء بالسريانية .

وقد أورد السيوطي هذه الألفاظ وغيرها في اتقانه كما أورد مئات الألفاظ وردت في القرآن بغير لغة الحجاز ، ومنها لغات اليمن . وقد نص على كثير من الألفاظ الحميرية بالذات .. فقد ذكر مثلاً أن اسطوراً بلغة حمير تعني الكتاب ، وعلى هذا يفهم قوله (كِتَابٍ مَسطُورٍ) وذكر أن اللهو بلغة اليمن المرأة . وعلى هذا تفهم الآية (لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهواً) وذكر مثلاً من كلمات الجنوب نقب ، وحور . الخ .

وهذا كله يدل على أن قريش كانت تتبادل الألفاظ مع غيرها ، شأنها شأن اللغات جميعاً .

وقد شغف علماء المسلمين بتتبع ألفاظ القرآن وغريبه ، وذكر السيوطي أسماء كثيرين ألفوا فيه .. والطريقة التي كان يتبعها هؤلاء المؤلفون هي أن يحاولوا إيجاد أصول عربية لكل لفظ ، بأن يوجدوا له فعلاً . فكلمة سورة من سأر .. الخ .. وذلك لأنهم لم يكونوا يعلمون هذه اللغات التي كانت سائدة ومنتشرة في وقت النبي ، والتي حصرها الفتح الإسلامي في أضيق نطاق أو أماتها .. مثل ما صنع في لغات شبه جزيرة العرب .

ترى ما الذي يمنع ـ وقد صح لدينا أمر الألفاظ القرآنية ، والمصادر المتعددة التي جاءت منها ـ أن تكون الأحرف السبعة ، هي هذه اللغات المتعددة التي ذابت في لغة قريش والتي علم النبي بعضها والتي تضمنتها ألفاظ القرآن ؟! والرقم هنا لا يدل على عدد معين ، ولكن يفيد تعدد الأحرف .

إنا نرجح أن هذا هو الصواب في شأن الأحرف السبعة ، فهي تشير إلى ألفاظ كثيرة من لغات عدة استعملها القرآن ، منها الفارسية واليونانية والآرامية والكلدانية والحبشية والحميرية والعبرية والسريانية والمصرية . وكلها أضيفت إلى لغة قريش ، فقوت من شأنها ، وأزالت الركاكة والغثاثة التي كانت موجودة في لغة القبائل الأخرى حين كانت تفد إلى الحج ، فيقولون : «كتابش» بدل كتابك (قبيلة قيس) ومثل الذين لا يستطيعون النطق بالسين فيستبدلون بها تاء ، فالناس عندهم « النات » (وهم قبيلة تميم) .

خلا القرآن من هذه اللهجات الكثيرة ، والتزم الاعراب في أواخر الكلمات جميعاً ، ولم يكن ملتزماً في كثير من اللغات الأخرى . وعرف النبي ـ وهو متلقي الوحي ، ومعلم القرآن الأول ـ تفسير ما أنزل عليه كله . وما سأله عنه أصحابه كان يخبرهم به . ولعلهم كانوا يتحاشون سؤاله في كثير من الألفاظ ، بدليل جهل كبارهم ببعضها بعد وفاته ، ونهيهم عن التكلف والتعمق ، أي البحث في معنى كل لفظ ، والتنقيب وراءه .

وليس هذا الذي نقول في أمر ألفاظ القرآن ، وانها هي الأحرف السبعة ، قولاً شاذاً لم يقل به أحد ، وإنما قال به كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب ، وأبو حاتم السجستاني وغيرهم . وقد أورد القرطبي دفاعاً حاراً عن هذا الرأي معارضاً به الذين يقولون إن القرآن ينزل بسبع لغات مختلفة ، فكان جبريل (فيما نقل السيوطي) ينزل بالآية بلغة قريش ثم يتلوها باللغات الست الأخرى ، أي يترجمها إلى هذه اللغات !!

ورأينا هذا يحتاج إلى دفاع عنه حتى يثبت ويتقرر في الأذهان . وأول ما نقول فيه ، انا نريد أن نسأل الذين اختاروا القول بأن

القرآن نزل بسبع لغات متفرقة : كيف يكون الحال لو أن البحث أدى إلى الكشف عن وثائق تظهر هذه اللغات الست الباقية ، هل كان كل منها يعد قرآناً ، وهل يمكن لمعجزة البلاغة القرآنية إذا نقلتها من اللغة المعروفة إلى لغة أخرى ، أن تظل كما هي في بلاغتها وروعتها . وتسميها قرآناً ؟ !

يقولون لا . ليس المراد لغات كاملة بنحوها وصرفها وأصولها وفروعها مثل ما هو الحال مثلاً في اللغة العربية واللغة اللاتينية ، ولكن هذه الألفاظ تترادف ويمكن أن يوضع لفظ منها مكان لفظ !

وهذا أيضاً قول بغيض ، يدل على تمسك بأسطورة عتيقة جاء الوقت لهدمها ؛ وهي أن اللغة العربية كثيرة المترادفات إلى حد الازعاج ، حتى ليحكى عن الأسد عشرات الأسماء ، وعن كل لفظ مترادفات له لا حصر لها ولا وعد .

نقول إن هذه الأسطورة يجب أن تزول إلى الأبد إحتراماً للغة العربية نفسها فهم يقولون في الأحرف السبعة لكلمة « هلم » التي يمكن أن يكون القرآن قد نزل بها إنها : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإليّ ، وقصدي ، ونحوي ، وقربي .. من قال أن كل لفظ من هذه الألفاظ السبعة يتفق في مدلوله مع بقيتها ؟ من قال ان لفظ « قربي » يدل على المعنى الذي يدل عليه « إليّ » ؟ في « إليّ » معنى النداء مع شيء من اللهفة أو الاستغاثة . أما « قربي » فهي دعوة إلى أن يكون شيء أو شخص بقرب آخر . فمن قال إن هذا المعنى هو ذاك ؟ ومن قال إن « تعال » تدل في معناها على ما تدل عليه « نحوي » ؟ إني أستطيع أن أقول لك ، « تعال نحوي » فأفيد معنى غير الذي تفيده كلمة « تعال » وحدها . إن قليلاً من الفطنة والتفكير السليم يدل على أن اللغة العربية كثيرة الألفاظ . ولكنها ليست كثيرة المترادفات ومـا حاجة قريش إلى أن تستعير من هوازن وغيرها لفظاً

عندهـا وتستعمله . إنما تحتاج من هوازن إلى لفظ يؤدي معنى غير معنى اللفظ الذي تستعمله .. وهكذا .

وإذن فمن الخطأ كل الخطأ أن نقول إن قرآناً نزل لكي يكون معجزة نبي ، ثم تقول إنا قادرون على أن نبدل لفظاً مكان لفظ لأن لدينا الكثير من الألفاظ ، ولا يكفي أن يقال إنما كان ذلك برخصة من النبي ، فهو وحده الذي يستطيع إجازة هذا اللفظ مكان ذاك . أو يقال إن جبريل كان ينزل بسبع لغات معاً .. فهذه الرواية لا تثبت للنقد ، وإلا لاحترمنا الرواية التي تقول عن ابن مسعود إنه كان يعلم عربياً القرآن ، فتعذر عليه نطق لفظ أثيم فقال له قل مكانه فاجر .. ذلك أن الأثيم غير الفاجر ، ثم إنه إذا جاز جدلاً لابن مسعود أن يبدل هذا التبديل فهل هو جائز لغيره ؟

استمع مثلاً إلى هذه الآية :

(لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا) ثم نقرؤها على الأحرف التي يقولون عنها هكذا (للذين آمنوا أمهلونا) و (للذين آمنوا أخرونا) و (للذين آمنوا ارقبونا) ولنترك القارئ يدقق النظر قليلاً ، ويمعن الفكر ، ويرى هل يتفق معنى هذه الآيات ، وهل يبقى لها مكانها من الاعجاز وهي بهذه الكثرة ؟

واسمع الآية الأخرى : (كلمَا أضَاء لَهمْ مَشوا فيهِ) و (كلما أضاء لهم مروا فيه) و (كلما أضاء لهم سعوا فيه) .. من قال ان مشى ، بمعنى مر ، وانهما معاً بمعنى سعى ؟!

الأحرف السبعة إذن شيء آخر غير هذه التعديلات والتبديلات ، وأدنى إلى الصواب في توضيحها ما ذكرناه من تضمن القرآن كثيراً

من الألفاظ الأعجمية التي دخلت إليه وإلى لغة قريش من الشعوب المحيطة بشبه الجزيرة .

* * *

وسيقولون : وما شأن هذه الأحاديث التي تروى عن اختصام عدد من الصحابة لأن بعضهم كان يقرأ قراءة لم يسمعها صاحبه ؟.. ومن هذه الأحاديث ما رواه مسلم عن أبي بن كعب قال :

« كنت في المسجد فدخل رجل يصلي ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر ، فقرأ قراءة سوى صاحبه . فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه . ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه . فأمرهما النبي صلى الله عليه وسلم فقرآ ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما . فسقط في نفسي من التكذيب (حدث في نفسه شك) ولا إذ كنت في الجاهلية . فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ، ضرب صدري ففضت عرقاً ، وكأني أنظر إلى الله تعالى فرقا . فقال : يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف . فرددت اليه أن هون على أمتي ، فرد إليّ الثانية أن اقرأه على حرفين . فرددت إليه أن هون على أمتي . فرد إلى الثالثة أن اقرأه على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة رددتها تسألنيها ، فقلت اللهم اغفر لأمتي ، ورددت الثالثة ليوم يرغب إليّ فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم عليه السلام » .

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب قال : « سمعت هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ــ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها ــ فكدت أن أعجل عليه . ثم أمهلته حتى انصرف ، ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله فقلت : يا رسول الله اني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها . فقال رسول الله : أرسله .

اقرأ فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول الله : هكذا أنزلت ، ثم قال لي : اقرأ فقرأت . فقال : هكذا أنزلت ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

وغير هذين الحديثين أحاديث كثيرة ، تدل على اختلاف الصحابة في قراءة القرآن أيام النبي ، واجازة النبي لهذه القراءات .. إلا أن أحد هذه الأحاديث الكثيرة ـ ويروى عن أبي مسعود ـ يقول إنه سأل رسول الله في شأن هذه القراءات التي يسمعها ، فتغير وجهه وقال : « وإنما أهلك من قبلكم الاختلاف » .

والتوفيق بين هذه الأحاديث الكثيرة التي تكاد تتفق في معناها ، وما ذكرنا من تفسير للأحرف السبعة عسير . ولكن لتفهم الأحاديث على أي وجه شاء الناس ، أما الذي نعتقد أن من الخير فهمه هو عدم جواز هذا التبديل والتعديل في القرآن .. فاختلاف الناس في شأن أحاديث جمعها المتأخرون من المسلمين ، أهون كثيراً من اختلافهم في شأن نصوص القرآن . ولكن مع هذا نجد من الأحاديث ما ينهى عن الاختلاف الذي أهلك أمماً سابقة . والنهي عن الاختلاف معناه الدعوة للتوحيد . وما نقول في شأن هذه الأحاديث انها تشير إلى القراءات التي كان يقرأ بها هؤلاء الذين ورد ذكرهم ، تبعاً لتغير لهجات القبائل المختلفة من مد وقصر وإمالة وإشمام وإدغام ، أو انها تشير إلى تفسيرات لبعض ألفاظ أباح النبي في ظرف من الظروف ، التلاوة بها لبعض من سمعها منه تيسيراً وتسهيلاً . وقد مرت بنا كثرة من الألفاظ الأعجمية في القرآن ، وكثرة الألفاظ العربية المستعارة من قبائل غير قبيلة قريش .

ويشبه هذا ما تذكره كتب القراءات ، مع أنه بعد القراءات السبع توجد القراءات الشاذة ، والقراءة الشاذة هي أن بعض الصحابة والمفسرين أضافوا إلى بعض الآيات الفاظاً توضحها مثل قول عائشة وحفصة :

« والصلاة الوسطى ، صلاة العصر » ، فاضافة الجملة الثانية من باب التوضيح . ومثل قراءة جابر ، (فَإِنَّ اللهَ بَعدَ إِكراهِهِنَّ (لهنَّ) غَفُورٌ رَحيم) .

بل إن من القراءات الشاذة ما يبعث على الضحك ، كأن يكتب أحد القدماء على هامش مصحفه تفسير كلمة ، ويذكر بجوارها « قاله حسن » فيأتي مقرئ متأخر ويضيف الجملة كلها ، ويقرأها مع القرآن .. هذه القراءات الشاذة ــ مع ظهور تنافرها بين النصوص القرآنية ــ كانت موضع خلاف بين العلماء : فنهم من منع القراءة بها ، مثل الشافعي والقشيري وابن الحاجب ، ومنهم من أجاز القراءة بها مثل القاضيين أبي الطيب والحسين والرافعي .

فهل يجوز أن نفهم إباحة النبي بعض هذه القراءات مثلما أباح بعض المتأخرين قراءات أخرى ظاهر منها الشذوذ ؟ وإن فيها ما لم ينطق به النبي وما لم ينزل به وحي السماء !! ها نحن أولاء وقفنا عند الأحاديث التي تروى ، واضطررنا إلى أن نلتمس لها التفسير والتأويل .

* * *

وخير ما نختتم به هذا الفصل قوله تعالى :
(وتمَّت كلمةُ رَبِّك صِدْقاً وَعَدْلاً . لا مُبدِّلَ لِكلماتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم) .

وقوله : (واتْلُ مَا أُوحِىَ إِليكَ مِنْ كِتابِ رَبِّك لا مُبدِّل لِكلماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلتحِداً) .

وقوله : (إِنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكرَ وإِنَّا لهُ لحَافِظُونَ) .

— ٨ —

فواتح السور

ويتصل بعض الشيء بما ذكر عن لغة القرآن ، هذه الحروف التي تبدأ بها بعض السور مثل : حم ... كهيعص ... ن ... المص ... الر الم ... الخ .

ما شأن هذه الحروف ، وما قصتها ؟ .

أما السيوطي فقال : إن هذه الحروف سر من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ولكنه نقل بعض آراء . فنقل عن ابن عباس أنه قال « الم » معناها أنا الله أعلم « المص » معناها أنا الله أفصل « الر » معناها أنا الله أرى .

وروي عن ابن عباس أيضاً في « كهيعص » قال : الكاف من كريم والهاء من هاد والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق .

وذكر السيوطي روايات أخرى أن بعض هذه الحروف هي أسماء الله ، مثل حرف (ق) ، (طسم) ، (الم) ، (ص) .

وأورد روايات أخرى مؤداها أن هذه الحروف صوت الوحي عند أول نزوله على النبي ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه ـ كألا ، وأما ـ لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم .. والقرآن كلام لا يشبه الكلام فناسب أن يؤتى فيه بالألفاظ التي تنبه الناس تنبيهاً غير معهود لتكون أبلغ في قرع الأسماع .

وذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه ، فأنزل الله هذا

النظم البديع ليعجبوا منه ، ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم واستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفئدة .

ومما ذكر الزمخشري قوله : إنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه — في الفواتح من هذه الأسماء — وجدتها نصف أسامي حروف المعجم — أربعة عشر سواء (وأحصاها) في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم . ثم إذا نظرت في هذه الأربعه عشر ، وجدتها مشتملة ، على أنصاف أجناس الحروف . بيان ذلك أن فيها من « المهموسة » نصفها : الصاد ، والكاف ، والهاء ، والسين ، والياء ، ومن « المجهورة » نصفها ، الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والعين ، والحاء ، والكاف ، والياء ، والنون ، ومن « الشديدة » نصفها ، الألف ، والكاف ، والطاء ، والقاف ومن « الرخوة » نصفها ، اللام ، والميم ، والراء ، والصاد ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والياء ، والنون ، ومن « المطبقة » نصفها الصاد ، والطاء ، ومن « المنفتحة » نصفها ، الألف ، واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والكاف ، والياء ، والنون ، ومن « المستعلية » نصفها ، القاف ، والصاد ، والطاء . ومن « المنخفضة » نصفها ، الألف واللام ، والميم ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والسين ، والحاء ، والنون ومن حروف « القلقلة » نصفها القاف ، الطاء .

ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها ، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها عن هذا ، الأجناس المعدودة ، مكثورة بالمذكورة منها ، فسبحان الذي دقت في كل شيء كلمته ، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ، ينزل منزلة كله . وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ، فكأن الله عز اسمه ، عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب الكلام . .

وعلى الرغم من اجتهاد صاحب الكشاف ، في تأويل هذه الفواتح ،

ما كان منها من حرف ، وما كان من حرفين أو ثلاثة أو أكثر ، إلا أنه عندمسا وصل إلى الإجابة عن السبب في أن بعض هذه الفواتح تعد آيات ، دون البعض الآخر أجاب في تردد العالم الحريص . هذا توقيفي ، لا مجال للقياس فيه .

أما شيخ المفسرين ابن جرير الطبري ، فقد دون عشرين صفحة [1] في محاولة شرح هذه الفواتح ، بادئاً بما وصل إليه من روايات الصحابة والتابعين والمفسرين فنهم من قال إنها فواتح افتتح الله بها . ومن قال إنها أسماء للسور ، وأضاف آخرون انها من أسماء الله . حتى رواية أنها حروف من حساب الجمل وردت كذلك ، وأكثرهم على أن الله أعلم بتأويل هذه الفواتح .

ولكن الطبري يبدي رأيه هو بقوله . والصواب عندي في تأويل مفاتح السور التي هي حروف المعجم ، أن الله جل ثناؤه جعلها حروفاً مقطعة ، ولم يصل بعضها ببعض ، فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف ــ لأنه عز ذكره ــ أراد بلفظه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة ، لا على معنى واحد ، كما قال الربيع بن أنس .

وأما ما قاله الربيع بن أنس ، وارتاح له الطبري ، فهو أن هذه الأحرف ، ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه .. الألف مفتاح اسمه : « الله » واللام مفتاح اسمه : « لطيف » . والميم مفتاح اسمه : « مجيد » . الألف آلاء الله واللام لطفه ، والميم مجده .

وما رمى إليه الطبري من اختيار هذا التأويل ، حتى يجد جواباً

---

١ ــ طبعة دار المعارف ، وهي أحدث طبعات هذا التفسير .

لاستفسار قد يطرأ على الذهن ، وهو : هل يكون من القرآن ما ليس له معنى ؟ ! !

* * *

أما تفسير « أبو السعود » فقد استعرض الآراء السابقة التي دونها من قبله من المفسرين ، في شرح الفواتح لبعض السور ولكنه انتهى إلى قوله : فسبحان من دقت كلمته من أن يطالعها الأنظار ، وجلت قدرته عن أن تنالها أيدي الأفكار .

والمفسرون المحدثون لم يخرجوا أيضاً عن هذا المعنى . فقد ذهب إلى ما ارتضاه ابن تيميه وابن القيم والبغوي والرازي والجلالين والألوسي . وغيرهم من ترك التعرض لها .

وقد ذكرت دائرة المعارف الاسلامية في بحثها عن القرآن أن العلماء تعبوا كثيراً في فهم المقصود من هذه الحروف ، وأن بعضهم حاول أن يحلها كما يحل الأحاجي والألغاز كأن يؤلف كلمة الرحمن مثلاً من (الر ، حم ، ن) .

ووردت هذه الحروف في ٢٩ سورة كلها من العهد المكي ، إلا ابتداء سورتي البقرة وآل عمران فقد ورد في العهد المدني .

وجملة الحروف التي تكررت في هذه الابتداءات أربعة عشر حرفاً .

* * *

وورد في كتاب النثر الفني للدكتور زكي مبارك أن من مميزات القرآن « الابتداء » بألفاظ غير مفهومة مثل ألم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . التي اختلف في تأويلها المفسرون ، والتي لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية » .

ثم قال صاحب النثر الفني : «كنت أتحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو ، فعرض على تأويلاً جديراً بالدرس والتحقيق ، وفي رأيه أن الحروف (ألم ، الر ، حم ، طسم) هي كالحروف (AOI) التي توجد في بعض المواطن من (Chansons degeste) فهي ليست إلا (Neumes) أي اشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون .

« وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة . وكان ذلك كافياً لتوجيه المغني أو المرتل إلى الصوت المقصود .

« وفي الكنائس المسيحية بأوربا حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجوري (Le Chante gregorien) وفي أثيوبيا مثلاً يوجد اصطلاح موسيقي مشابه لذلك ، فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تقابل ، « الم » في القرآن أو (AOI) في نشيد رولان .

« ويؤيد رأي المسيو بلانشو أن « ألم » تنطق هكذا عند الترتيل (ألف . لام . ميم) فهي ليست رمزاً كتابياً . ولكنها رموز صوتية .

« ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفاً عند أهل الجاهلية : ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين في كل شيء حتى في الأصوات الموسيقية . فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل . وأن تكون متابعة لبعض الترانيم الجاهلية .

« ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأي نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية مع تطوعهم لعرض كثير من الفروض . ولو أنه كان معروفاً في الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الاغفال .

«ومن يدري ، فلعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذي سبق الإسلام تعود على هذا الرأي بشيء من التوضيح والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأي بين الشك واليقين» (انتهى كلام كتاب النثر الفني) .

ونحن نتفق مع الدكتور زكي مبارك في أن هذا الرأي قيمته ولكنه لم يهمل اهمالاً كما قال إذ يقرب منه ما ذكر من أن هذه الحروف كانت تنبيهاً من الوحي بقرب نزول القرآن أي أنها أصوات كان النبي يسمعها ، ثم يرى نفسه قد جاشت بمعاني القرآن وألفاظه .. فإذا أضفنا إلى هذا ما ذكره الزمخشري من أنه أريد بها تنبيه الأذهان وقرعها قبل ابتداء قراءة السور . كان القول قريباً من الصواب : وقد يكمله ما نقل السيوطي من أنه أريد مفاجأة العرب برموز واشارات لا عهد لهم بها ليزداد التفاتهم وتتنبه آذانهم ونفوسهم .

القلوب وأقفالها

«أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»

— ١ —

قـُرآن مَكَّة وَقـُرآن المَدينَة

نزل القرآن على رسول الله متتبعاً الحوادث التي عرضت له في حياته ، هادياً له ، ومجيباً على أسئلة الناس ، متضمناً المبادئ الكبرى للدعوة الاسلامية ومنيراً الطريق أمامها .

ولم يكن النبي يقيم في مدينة واحدة حتى يقال ان القرآن نزل في هذه المدينة ، ولكنه تنقل في قسم كبير من قرى الحجاز وصحرائه ، وكان الوحي ينزل عليه في الإقامة كما كان ينزل عليه في السفر .

ومن يفتح المصحف (الطبعة المصرية) يجد على رأس كل سورة ذكراً لاسمها وبياناً لمكان نزولها ، وعدد آياتها ووقت نزولها .

فمثلاً « سورة التكوير ــ مكية ــ آياتها ٢٩ ــ نزلت بعد المسد » .

« وسورة القلم ــ مكية ــ إلا من آية ١٧ إلى غاية آية ٣٣ ومن آية ٤٨ إلى غاية آية ٥٠ فمدنية ــ وآياتها ٥٢ نزلت بعد العلق » .

« وسورة محمد مدنية ــ إلا آية ١٣ فنزلت في الطريق أثناء الهجرة ــ وآياتها ٣٨ نزلت بعد الحديد » .

« وسورة القصص مكية ــ إلا من آية ٥٢ إلى غاية آية ٥٥ فمدنية ، وآية ٨٥ في الجحفة أثناء الهجرة ــ وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل » .

« وسورة المجادلة مدنية ــ وآياتها ٢٢ نزلت بعد المنافقون » .

« وسورة النصر نزلت بمنى في حجة الوداع فتعد مدنية وهي آخر ما نزل من السور وآياتها ٣ نزلت بعد التوبة » .

وفي التعريف بالمصحف نجد هذه العبارة (أخذ بيان مكيه ومدنيه من الكتب المذكورة وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي وكتب القراءات والتفسير على خلاف في بعضها) ..

وترى من هذه الأمثلة التي سقناها من قبل أن من السور ما نزل في مكة ، ومنها ما نزل في المدينة ، ومنها ما نزل في حجة الوداع ، ومن الآيات ما نزل في سفر من الأسفار .

فما الفوارق الواضحة بين قرآن مكة وقرآن المدينة وقرآن الرحلات ؟ وما الضوابط التي تراعى في تعيين أماكن نزول الآيات ؟

أما قرآن مكة فيمتاز بأن آياته أوفر عدداً وأقصر جملاً وأكثر التزاماً لنغمات موسيقية معينة .

ويبلغ القرآن المكي في كميته نحو ثلثي المصحف (١٩ من ٣٠) وقارئ المصحف يلاحظ أن جزء تبارك ، مكي كله وآياته ٤٣١ ، وجزء عم مكي أيضاً وآياته ٥٧٠ ، في حين أن جزءاً آخر هو جزء قد سمع مدني كله وآياته ١٢٧ فقط .

ومثال آخر يوضح الفرق بين طول الآيات المدنية بالنسبة للآيات المكية ، هو سورة الشعراء وسورة الأنفال : فالأولى منهما نصف جزء من أجزاء المصحف[1] وعدد آياتها ٢٢٧ . والثانية نصف جزء أيضاً وعدد

---

١ - المصحف ثلاثون جزءاً ، وسوره ١١٤ سورة .

آياتها ٧٥ فقط أي نحو ثلث عدد آيات الشعراء . وذلك لأن الأولى نزلت في مكة ، والثانية نزلت في المدينة

وقد أحصيت آيات القرآن المدني فبلغت ١٤٥٦ آية ، وهي تزيد قليلاً عن ربع مجموع آيات المصحف .

* * *

وقد ذكر السيوطي اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين قرآن مكة وقرآن المدينة . قال :

« اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

أولاً ـ ان المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار . أخرج عثمان بن سعيد الرازي بسنده إلى يحيى بن سدم قال : ما نزل بمكة ، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فهو مكي ، وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو مدني . وهذا أثر لطيف يؤخذ منه ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً .

الثاني ـ أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة . وعلى هذا تثبت الواسطة .. فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني . وقد أخرج الطبراني أن رسول الله قال : « أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة . مكة والمدينة والشام » . (وقال السيوطي : ويدخل في مكة ضواحيها . كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفي المدينة ضواحيها . كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

الثالث ـ أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً

لأهل المدينة . قال القاضي أبو بكر في الانتصار : إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول ، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة . وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ المنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال : « والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت . وقال أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل ، وأشار إلى سلع » .

* * *

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكي من المدني ، وهذه الضوابط هي من قبيل الاحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء في مصحف عثمان بن عفان .

أولاً ـ كل ما كان أوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أنزل بالمدينة وما كان أوله (يا أيها الناس أو يا بني آدم) فبمكة .. إلا أن هذه القاعدة لا تصلح للتطبيق في جميع القرآن ، فمثلاً سورة النساء مدنية وأولها (يا أيها الناس) وفي سورة البقرة كذلك يا أيها الناس [1] وسورة الحج مكية وفيها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا) .

ثانياً ـ كل ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فإنما نزل بمكة وما كان من الفرائض والسنن فإنما نزل بالمدينة .

---

١ – أحصى الشيخ الخضري سبع آيات في السور المدنية فيها « يا أيها الناس » .

ثالثاً ـ كل سورة في أولها «كلا» أو أولها حرف تهج ـ سوى الزهراوين والرعد ـ أو فيها قصة آدم وابليس، سوى البقرة، فهي مكية. وكذلك كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية. وكل سورة فيها ذكر المنافقين ـ سوى العنكبوت ـ فمدنية.

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التي عرض لها القرآن، وبذا وبذا تكون آياته أكثر وضوحاً وقرباً من الأذهان. وعندما نتحدث عن مصحف عثمان بن عفان سنذكر رأينا في الترتيب الذي التزمه. كما نذكر ما انتهى إليه العلماء في الترتيب التاريخي للمصحف.

— ٢ —

أسلوب القرآن

لم يلتزم القرآن أسلوباً واحداً من أساليب الأداء .

فقد ذكرنا أن آيات القرآن المكي قصيرة ، وأنها قوية اللهجة ذات تأثير خطابي يهز الأسماع والنفوس . وقد كان النبي في بدء دعوته ، ومدة مقامه بين أعداء لا يهدأون ولا يلينون ، في حاجة إلى أن يترجم القرآن في أسلوبه عن الحالة التي واجهها .

وهناك رأيان حديثان تناولا بحث أسلوب القرآن :

أحدهما للدكتور طه حسين يقول فيه : إن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وهو بهذا يرى أسلوب القرآن ينهج نهجاً خاصاً به لا هو بالشعر ولا هو بالنثر ولكنه قرآن ! وذلك أن القرآن عنده لا يخضع لقواعد النثر ولا لقواعد الشعر ، ولكن له موسيقى خاصة به ، تحسها في تركيب ألفاظه وفي تتابع آياته .

ويعارض هذا الرأي الدكتور زكي مبارك ، ويؤكد في كتاب النثر الفني أن القرآن نثر عربي ، بل هو أثر أدبي يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التي جاءت بعده ، ويتميز بالصفات الآتية :

أولاً — خلوه من الشعر الموزون خلواً تاماً ، بخلاف ما كان قبله ، وبعده من النثر .

ثانياً ــ نظام الآيات الذي يسمح في الغالب بوقف كامل تستريح عنده نفس القارئ ، وهو نظام يخالف النثر المرسل ونظام السجع الذي أثر عن الجاهليين وشاع بعد الاسلام .

ثالثاً ــ ضرب الأمثال وسوق القصص ، وتكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة .

رابعاً ــ الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل . ألم . حم . ص .

خامساً ــ نظم القرآن الغنائي .

سادساً ــ لا يلتزم القرآن السجع . فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفاً مسجوعة من السور الكبار ، ولكن ذلك لا يطرد فيه . وكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل .

ووصف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أسلوب القرآن فقال : نزل القرآن بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وقصيره معاً . فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحدة ، وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه عن طبيعته . وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة ، لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء وبدلت الأرض غير الأرض . وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها ، وأجراها في ظاهره على بواطن أسرارها ، فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب ، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب .. الخ .

* * *

وفي البحوث الطويلة التي عقدها المستشرقون عن القرآن ، يكاد رأيهم يجمع على أن القرآن هو من إنشاء النبي ، ويتحدثون عنه على أن أسلوب القرآن هو أسلوب محمد عليه السلام .

فمن هذا ما ورد في كتاب تاريخ الأديان [1] من أن أسلوب النبي في القرآن كان أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف ، قصير العبارات ، فخم الصور ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة ، وكثيراً ما يكرر الآيات حتى تنقلب معانيها إلى الضد !! فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب حيويته الأولى ، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء . مثلما تراه في تأريخه لقصة حب يوسف وزوجة بوتيفار ، وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك . وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن ، وأغرم بالجدل الديني مع النصارى واليهود .. الخ .

وهذا التلخيص لرأي واحد من المستشرقين يدل على مقدار الخطأ الذي يقعون فيه ، لأنهم في أغلب الأحيان يعجزون عن النفوذ إلى أسرار كثير من الآيات والسور القرآنية ، على الرغم من بحثهم الدائب الملح في كتب التفسير . وذلك أن إدراك معاني القرآن ، لا يحتاج فقط إلى القاموس ، وإلى الشرح وإنما يحتاج – قبل كل شيء – إلى نفس صافية وروح مشرقة تستطيع أن تستشف ، لا المعاني وحدها ، ولكن ما وراء المعاني . وألا تقف على مدلول اللفظ وحده ، ولكن على هذا الضوء النفسي الذي ينبعث من وراء المعنى .

فلنختر سورة من السور ، أي سورة ، ولتكن :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

---

(1) Manuel d'Histoire des Religiens P.D. Chantepie de la Saussaye.

يأتي العالم الأوربي ، وكل عدته عقله ، ويعلم معاني الألفاظ ، كل واحد على حدة ، وينتهي إلى أن معنى السورة هو أن الله قد نصرك ودخل الناس في دينك فاحمد الله واستغفره من ذنوبك فان الله يتوب عليك .

هذا المعنى الحرفي ، الذي تدل عليه الألفاظ ليس كل شيء في سورة الفتح . ذلك أننا نستطيع أن نؤدي هذا المعنى في تغيير يسير في الألفاظ لنرى ماذا تكون النتيجة ، فلنقل مثلاً :

إذا نصرك الله وأتاح لك الفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا .

إن هذا التعديل الخفيف في بعض الألفاظ ونقل لفظ من مكانه ، يحيل الصورة المحكمة الرائعة التي كانت عليها سورة الفتح إلى كلام عادي تأثيره قليل .

وسنذكر بعد قليل المحاولات التي بذلت لتقليد القرآن . ولكنا نسرع هنا قليلاً فنذكر أنه نسب إلى أبي العلاء المعري أنه أنشأ كلاماً يعارض به القرآن ، وقال : « فلتصقله الألسن في المحارب أربعمائة سنة ، وعند ذلك أنظروا كيف يكون » .

فهذا المعنى دقيق ، وهو أن الكلام الذي يكثر تكراره يخف على السمع وعلى النفس ، ويبلغ من التأثير مبلغاً لا يصل إليه غيره من الكلام . ولا نعلم بين جميع الآثار البيانية شعراً أو نثراً ، كلاماً ، كلما ازداد الناس له تلاوة وترديدا ، إزداد تأثيراً ... إلا القرآن . ففي اللغة العربية مثلاً قصائد وأبيات من الشعر محفوظة قبل أن ينزل القرآن ، وتردده‍ا الألسن ، ولكنها لم تتجاوز على مر القرون مستوى أي كلام من أي نوع . فكم من مرة أنشدت قصيدة امرئ القيس « قفا نبك » وكم من مرة وقف الناس وتأملوا فيها وعلموها للصغار ، ولكنها لم ترتفع من

مرتبتها الشعرية أمثلة واحدة .

كلام واحد ، كلما ازداد تكراره ازداد تأثيره ، هو القرآن .. ولا شيء يشبهه في هذه الميزة بين آداب الدنيا كلها ، وبين كتب السماء وكتب الأرض .

ولقد وصل الأمر بالقرآن إلى أن أصبحت نغماته ميراثاً ينتقل في حواس المسلمين الباطنة من جيل إلى جيل ، حتى انتهينا إلى أنه يكفي أن تقال آية فيها خطأ أمام شخص لا يحفظ القرآن ، ولكن له المام يسير بعض سوره ، لكي يدرك أن في هذه الآية لفظاً قلقاً ، وأن من الخير مراجعة المصحف .

فقداسة القرآن ، والإقبال على حفظه ، وترديده طوال ثلاثة عشر قرناً .. هذا كله يجعل هنالك فرقاً واضحاً جداً بين مسلم يحاول تفسير القرآن والتماس وجود التأثير والاعجاز فيه ، وبين أجنبي لا يحفظ ، وان حفظ فلا يدرك إلا بعقله ، ولا يقبل عليه إلا كما يقبل عالم النبات بمشرطه وبجهره .. هنالك فرق واضح جداً بين هذا وذاك . ومن هنا كان الخطأ أسرع إلى المستشرقين وعلماء الفرنجة في مباحثهم عن القرآن . وكان توفيقهم كبيراً جداً كلما تناولوا المسائل القرآنية التي لا تخضع إلا لحكم العقل ، مثل الاحصاء والترتيب والجمع والتفريق . فأما ما اتصل بموسيقى القرآن وبإسلوبه وبإعجازه فعلمهم به قليل ، ومشوب بما رأيت مثاله من أخطاء .

وهذه القاعدة النفسية التي ذكرناها ، هي وحدها التي ترد على هؤلاء الذين يقولون إن النبي هو الذي أنشأ القرآن من تلقاء نفسه .

فلدينا كتب الحديث ، وقد توفر المسلمون على دراستها وحفظ الكثير منها طوال قرون وقرون .. والمسلمون حريصون على كلام نبيهم

كما يحرصون على مصحفهم .. فإذا صح أن النبي هو منشئ هذا القرآن وأنه منشئ هذه الأحاديث أو بعضها على الأقل ، فمن أين يأتي الفرق الواضح في الأسلوب وفي مجموعة الألفاظ وفي التأثير بين الحديث وبين الآية ؟

إن خصائص القرآن الأسلوبية تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن خصائص الحديث الأسلوبية . بل إن ألفاظ القرآن تختلف في كثير من ألفاظ الحديث .. فهل يعقل أن يصدر عن شخص واحد كلامان أحدهما يخضع لقواعد معينة ، وتتطور هذه القواعد على مر الزمن الذي تم فيه التنزيل مثلما في القرآن . والثاني يخضع لقواعد أخرى تختلف تماماً عن قواعد الكلام الأول ، وتتجه في مرتبتها البلاغية وفي درجة تأثيرها وجهة أخرى .. ومع هذا فيقال إن صاحب الكلامين واحد ؟!

ولنزد هذه النقطة وضوحاً .

خطب رسول الله في حجة الوداع فقال :

« أيها الناس .. اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .. أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا .. ألا هل بلغت . اللهم اشهد .. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية »[1] .

وفي الوقت نفسه وفي المكان نفسه نزلت الآية :

---

١ — نص الخطبة كاملاً في كتاب العقد الفريد ج ٢ ص ١١٠، ١١١ .

(اليومَ يَئسَ الذِينَ كفَرُوا ، مِن دِينكُم ، فلا تخشَوهُمْ وَاخشَونِ . اليَومَ أكملتُ لكُمْ دِينكم وَأتمَمتُ عَلَيكُم نِعمتي ، وَرَضِيتُ لكُم الإِسْلاَمَ دِيناً)[1] .

ويكفي ترديد ما اقتبسناه من خطبة الوداع ، وما أخذناه من آية الوداع لنرى أن من المخالف لطبائع الأحياء والأشياء ، أن يصدر ذلك الكـلام بما فيه من نغم ومن معنى ومن أسلوب ، وهذا الكـلام بخصائصه كلها ، عن شخص واحد . وقد اتحد الظرف والمكان الذي صدر فيه كل من الكلامين .

وقد وصف النبي نفسه فقال : « أنا أفصح العرب » .

ووصف القرآن نفسه فقال : (لوْ أنزَلنا هَذَا القُرآنَ عَلَى جبلٍ لرَأيتَهُ خَاشِعاً مُتصدعاً مِنْ خَشيةِ اللهِ ، وتِلكَ الأمْثالُ نضربُها لِلناسِ لعلهمْ يَتفكَّرُونَ) .

وكثيراً ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن أو يتلى عليه فيبكي . روى عن ابن مسعود : « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إقرأ علي . ففتحت سورة النساء . فلما بلغت : (فَكيفَ إذَا جِئنا مِنْ كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ وَجِئنا بِكَ عَلَى هَؤلاء شَهيداً) رأيت عينيه تذرفان من الدمع ، فقال : « حسبك الآن » .

---

١ — آية ٣ سورة المائدة .

— ٣ —

تحدّي القرآن

مر بنا في الفصل الذي عقدناه عن قريش والقرآن ، كيف أنها حاولت بكل وسيلة أن تمنع تأثر الناس من سماع القرآن ، فاصطنعت القصاص الذين يحفظون قصص الفرس لكي يتلوها .. كما أن سويد ابن الصامت عرض على النبي مجلة لقمان التي تتضمن حكمته ، فلما تلا عليه النبي آيات من القرآن تمتم سويد : « إن هذا لقول حسن ، ثم طوى صحفه وانصرف » .

ولقد دعا القرآن قريشاً إلى أن تحاول محاكاته ، وأن تجتهد ما وسعها الاجتهاد في الإتيان بسورة أو آية تشبه آيات القرآن .. قال لهم في سورة القصص :

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِن عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنهُمَا أَتَّبِعهُ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَستَجِيبُوا لكَ فَاعلَمْ أَنما يَتبعُونَ أَهوَاءهُم وَمَن أَضَلُّ مِمَّن اتبعَ هَوَاهُ بغيرِ هُدىً مِن اللهِ ، إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَوْمَ الظَّالِمينَ) ٤٩ — ٥٠ .

وقال لهم في سورة الإسراء : (قُلْ لئِن اجتمَعتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمثلِ هَذَا القُرآنِ ، لا يَأْتُونَ بِمثلِهِ وَلو كانَ بَعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً) ٨٨

وقال لهم في سورة هود : (أَمْ يَقُولُونَ افترَاهُ ، قُل فَأتُوا بِعشر سُوَرٍ مِثلِه مُفترَيَاتٍ ، وَادعُوا مَنْ استَطعتُم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتُم صَادِقينَ) ١٣ .

وقال لهم في سورة يونس : (وَمَا كانَ هَذَا القُرآنُ أنْ يُفتَرَى مِن دُونِ اللهِ ، وَلكن تَصديقَ الذِي بَين يديهِ وَتفصيلَ الكِتاب لا رَيبَ فِيه مِن رَبِّ العالمِينَ . أمْ يَقُولُونَ افتراهُ ، قلْ فأتُوا بِسُورةٍ مِثلِهِ وادْعُوا مَن استَطعتُم مِن دُونِ اللهِ إنْ كنتُم صَادِقِينَ . بلْ كذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعلمِهِ ، وَلما يَأتِهِمْ تَأويلُه ، كذَلك كذَّبَ الذِينَ مِنْ قَبلِهم فَانظرْ كيفَ كَانَ عَاقِبةُ الظَّالمِينَ) ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

وقال لهم في سورة الطور : (أَمْ يَقُولُونَ تَقوَّلهُ ، بَل لا يُؤمِنُونَ . فَليأتُوا بحديثٍ مِثلِه إنْ كانُوا صَادِقِينَ) ٣٣ ، ٣٤ .

وقال لهم في سورة البقرة : (وَإن كنتُم في رَيبٍ مِما نَزَّلنا عَلَى عَبدِنا فأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثلِهِ وَادعُوا شهداءكم مِن دُونِ اللهِ إن كنتم صَادقِين . فَإن لَمْ تَفعلُوا ــ وَلن تَفعلُوا ــ فَاتَّقُوا النَّارَ الِتي وَقودُها النَّاسُ والحجارَةُ أعِدَّت لِلكَافِرينَ) ٢٣ ، ٢٤ .

وقد تدرجت دعوة التحدي كما هو واضح في ترتيب الآيات الذي اخترناه ، فبدأ بأن طلب منهم انشاء كتاب مثل هذا الكتاب . وقد وردت هذه الآية في سورة القصص ، وكان قد نزل قبلها سبع وأربعون سورة (حسب ترتيب ابن عباس التاريخي) منها سور طوال مثل سورة يوسف، وسور قصار مثل سورة الناس .

حارت قريش في أمرها لا تدري كيف تأتي بكلام مثل هذا الكلام . ويظهر أنها حاولت أن ترد على هذا التحدي فعجزت ، ولذا نرى القرآن يخاطبهم بما ورد في سورة الاسراء من أنهم لن يستطيعوا ، ولن

يستطيع أنس ولا جن أن يأتي بمثل هذا القرآن ...

ومضى القرآن في تحديه فلم يطالب بكتاب ، ولكن طالب بعشر سور كما في سورة هود .

ثم مضى خطوة أخرى فطالب ـ كما في سورة يونس ـ بسورة واحدة . وكذلك طلب في سورة البقرة أول السور المدنية .

* * *

ترى ما الذي منع قريشاً من أن تحاول الرد على هذا التحدي ؟ .. نحن للاجابة عن هذا السؤال أمام فرضين :

أولهما : أنها حاولت فكانت محاولتها غير مجدية ، وظهر لها أن سجع الكهان ـ وهو أرقى صورة من الصور النثرية عندها ـ لا يرقى إلى مرتبة البلاغة القرآنية . وقد ضاعت هذه المحاولات ولم تعلق بذاكرة أحد .

ثانيهما : أنها عجزت حتى عن هذه المحاولة .

ويقودنا هذا الحديث إلى أن نلقي نظرة على المستوى الفكري الذي بلغته قريش ، وهل كان يسمح لها بإجابة هذا التحدي أم لا ؟

والواقع أن الاجابه عن هذا السؤال عسيرة كل العسر . ذلك أن الحياة الأدبية في الجزيرة العربية أول ظهور الاسلام لم تؤرخ بعد تأريخاً يسمح بالحكم عليها . فلا شك أنه كان للعرب شعر ، وكان لهم نثر ، وكانت لهم خطب ورسائل . ولكن أمة الصحراء لم تكن لتحفظ هذه الآثار إلا كما تحفظ الرمال خطوطاً نقشت عليها .

وهناك طريقان لمعرفة المستوى الفكري الذي كان عليه العرب عند ابتداء الدعوة الاسلامية :

أولهما ـ مراجعة النصوص الأدبية الثابتة التي خلفها من شعر ونثر ، وهو أقرب العصور إلى العهد الفاصل والاسلام . وهذه النصوص نراها ممثلة في دواوين الشعر نقائض جرير والفرزدق ، وشعر عمر بن أبي ربيعة ، و (ليس منها نهج البلاغة المنسوب للامام علي فهو كتاب مت النصوص يمكن أن تعد حلقة في سلسلة التطور الفكري ، إلى الوراء قليلاً ، وأحصينا على وجه الدقة مقدار التأثير الإسلام إلى العقلية العربية ، أمكننا أن نهتدي إلى ما يلقي ذ النقطة . وهذا الضوء يكشف لنا عن عقلية ناضجة ، تستد الأشياء ، ويعلو إدراكها عن مستوى البداوة إلى مستو وأصلب عوداً .

ثانيهما ـ وثاني الطريقين اللذين نسير فيهما لمعرفة ا العربي في فجر الدعوة المحمدية . هو القرآن نفسه فقد ويجادل ويدفع عن نفسه وكان يشتد ويحتد ويعلو صوته وجه السماء . وما كان القرآن في جداله لقريش ليصل إلى من العنف إلا لأنه وجد أمامه خصوماً صامدين ، معاند وجد أمامه جيلاً قد انحط ادراكه ، ولم يتجاوز دور الط بعد ، لسهلت قيادته ، ولأمكن ادخاله في نطاق الدعوة في ؛ لكن شيئاً من هذا لم يحدث . فقد أنفق الوحي ربع قرن إلا ويدافع هذه الآراء والنظريات السائدة في الحجاز ، التي على أصول من العقائد الوثنية واليهودية والنصرانية .. كما بما ينقله المسافرون عبر الصحراء إلى بلاد الأمبراطورية البي فارس .

وإذن فنحن إزاء مجتمع حي ، قادر على التفكير .. ؟

منعه من أن يرد على تحدي القرآن ؟ وما الذي أعجزه عن أن يبذل الجهد في التقليد والمحاكاة في أثناء حياة النبي عليه السلام .

لا شك إنه العجز عن التشبع بالمعاني الجديدة التي كان يطرقها القرآن ؟ وهنا بعض المعجزة .

لا شك إنه العجز عن الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية وطريقة تناول الآيات للمعاني التي وضعت لها ، وهنا بقية المعجزة .

— ٤ —

محاولات التقليد

ولكن هل فترت رغبة الناس ، بعد حياة النبي ، عن تقليد القرآن ؟!

لقد شغلت هذه الفكرة ــ فكرة معارضة القرآن وتقليده ــ أذهان معاصري النبي فلم يصلوا إلى شيء يقيم حجتهم .. فلما قاربت حياة النبي عليه السلام نهايتها ، وبدأت قبائل العرب تحس تيار الطاقة المنطلقة التي بسطت عليها ، والتي أخذت تبدل معالم حياتها ، ورأت أن المقاومة المسلحة وحدها لم تكف لمنع هذا السلطان الجديد من أن يضمها تحت سيطرته ــ فكرت في أن تلجأ مع العنف إلى وسيلة أخرى ، هي أن تنشأ لها أنبياء مثل هذا النبي الذي ظهر في مكة !! ومن هنا كانت حركة التنبؤ . وهي ــ كما ترى ــ حركة تعتمد قبل كل شيء على نزعات قبلية ، وعاطفة وطنية تدفعها إلى عدم الخضوع لحكم المدينة . إنها تنشئ هذه الزعامات ، وتطلق عليها اسم النبوة ، وليس ما يمنع من أن تصطنع لها وحياً وأن ينطق هذا الوحي بقرآن .

تنبأ في هذه الفترة ــ وهي العام التاسع والعاشر للهجرة حتى حرب الردة ــ مسيلمة الذي ظهر باليمامة في بني حنيفة ، والأسود العنسي الذي تنبأ في اليمن ، وطليحة بن خويلد الذي تنبأ في قبيلة أسد ؛ وسجاح ذات العلم بالنصرانية التي ظهرت في بني تغلب وغيرهم .

فأما مسيلمة فقد زعم أن وحياً يهبط عليه من السماء يسمى « رحمن »

وأنه يهبط في الظلام لا في وضح النهار ، وأنه يقرئه قرآناً .

وقد روت الروايات عنه وعن غيره قرآناً زعموا أنه أنشأه . ولا سبيل إلى الجزم بأن هذا الكلام منسوب حقيقة لمسيلمة ، إذ ليس هناك ما يدعو إلى احتفاظ ذاكرة الرواة بهذا السخف قرنين من الزمان حتى بدأ عهد التدوين ، وإنما هذا الكلام الذي ينسب لمسيلمة ولغيره على أنه قرآنه هو ما تخيل المتأخرون من القصاص أن أمثال هؤلاء الثائرين يستطيعون انشاءه معارضة للقرآن وتقليداً .

فمن هذا الذي نسب لمسيلمة أنه كان يقول : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين . نقي ما تنقين . نصفك في الماء ونصفك في الطين . لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين » .. وواضح طبعاً أن هذا الكلام ليس من لغة الجاهلية في شيء ، ومع هذا فقد خدع عنه الجاحظ أو هو يسخر منه حين يقول : « لا أدري ما الذي هيّج مسيلمة حتى ساء رأيه في الضفدع » ...

مما قيل على لسان مسيلمة : « والباذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمنا .. لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه.. » الخ .

هذا هو مسيلمة ، وقد قصده طلحة النمري ، وسأل عنه قومه قائلاً :

ــ أين مسيلمة ؟ فصاحوا به أن يذكر أنه رسول الله . ثم قادوه إليه فحاوره قليلاً ، وتبين له سخفه فقال له : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر !

وأما وحي الأسود العنسي فكان ينزل عليه ملك أسماه «ذا خمار» وكان رجلاً فصيحاً يجيد سجع الكهان إلا أن كلامه بطبيعة الحال ضاع كما ضاع غيره .

أما وحي طليحة فقد كان ينزل به عليه ـ فيما زعم ـ ملك أسماه ذا النون . ثم عدل عنّ ذي النون ، وقال لا بل هو جبريل . ولم يعرف شيء عن قرآنه إلا إنه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول صلوا قياماً ، فإن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم ! !

وأما سجاح فقد ادعت قرآناً ؛ إلا ان وحيها صمت حين لقيت مسيلمة وتزوجته ، ودفع لها الصداق إنه أعفى أتباعها من صلاة العصر. وقد ظل بنو تميم وقتاً غير قصير لا يصلون العصر ، فقبيح بمثلهم أن يضيعوا صداق بنتهم ! !

وهكذا ترى أن محاولات تقليد القرآن في أواخر عهد النبوة ، وبعده بقليل قد أخفقت تماماً..

فلما تقدم العهد بالإسلام ، ودخلت الأمصار المفتوحة تحت حكم المدينة ، وذابت في الإمبراطورية الإسلامية مذاهب وعصبيات ونزعات لا أول لها ولا آخر . ودخلت في الإسلام عقليات جديدة غير عقلية العرب تنبه هؤلاء المسلمون الجدد إلى بلاغة القرآن وإلى تحديه البلغاء . وليس هناك مايمنع من أن يكون كثيرون قد حاولوا تقليد القرآن سراً ، إلا أننا لم نقف على شيء من هذا يصح الاطمئنان إليه ، وكل ما بين أيدينا روايات عن أشخاص اتهموا بمعارضة القرآن منهم إبن المقفع ، ولم تعزز هذه التهمة بذكر نصوص هذا القرآن المقلد .

فقد ذكر ابن القيم الجوزي والباقلاني أن ابن المقفع عندما انتهى إلى قوله تعالى «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ» إلى قوله تعالى

« وَقيلَ بُعداً لِلقوم الظَّالِمينَ » عدل عن إنشاء قرآنه وقال : هذا ما لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، وترك المعارضة وأحرق ما كان قد اختلقه . ويقول الباقلاني أن قوماً ادعوا ابن المقفع عارض القرآن في كتابه « الدرة اليتيمة » . ولم يجد الباقلاني فيما أنشأ ابن المقفع بهذا الكتاب ما يصح أن يكون تقليداً للقرآن[1] .

وكان الشاعر المعروف « المتنبي » قد تنبأ فعلاً في بادية السماوة ، وأنشأ كلاماً أسماه قرآناً منه قوله : « والنجم السيار ، والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ... امض على سننك ، واقف أثر من قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله ... » الخ .

إلا أنه عدل عن المحاولة ، وتفرغ لشعره فكان أشهر الشعراء .

* * *

ومن الذين اتهموا أيضاً بهذه التهمة ـ وهي محاولة محاكاة القرآن ـ أبو العلاء المعري في كتاب « الفصول والغايات »

ومما ورد في هذا الكتاب :

« سبحانك مؤبد الآباد ، هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتبهت أحداً من الأموات . وإذا هجعت لقيني قريب عهد بالمنية ، ومن قد فقد منذ أزمان . أسألهم فيجيبون ، وأحادرهم فيتكلمون ، كأنهم بحبل الحياة معلقون . لو صدق الرقاد لسكنت إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكذاب »

ومما قاله أيضاً في كتابه هذا ، يناجي ربه ويذكر والده في قبره :

---

١ ـ راجع كتاب ابن المقفع للأستاذ عبد اللطيف حمزة .

« أدعوك وعملي سيئ ليحسن ، وقلبي مظلم لكي ينير . وقد عدلت عن المحجة إلى ببناء الطريق . وأنت العدل ومن عدلك أخاف ! يا من سبح له زرقة الأفق وزرقة الماء ، وحمرة الفجر وحمرة شفق الغروب ! وإن كان الدمع يطفي غضبك هب لي عينين كأنهما غمامتا شتي (شتاء) تبلان الصباح والمساء ، واجعلني في الدنيا منك وجلا لأفوز بالآخرة في الأمان . وارزقني في خوفك بر والدي وقد فاد بره إهداء الدعوة له بالغدو والآصال . فاهد اللهم له تحية أبقى من عروة الحدب ، وأذكى من ورد الربيع ، وأحسن من بوارق الغمام ، تسفر لها ظلمة الجدث ، ويخضر أغبر السفاه ، ويأرج ثرى الأرض .. تحية رجل للقيا ليس براج » .

وواضح من هذه المقتبسات أن أبا العلاء لم ينشئ لنفسه قرآناً يعارض به وحي السماء ، فهو هنا مؤمن عميق الايمان ، وإن كان هذا لم يمنع من أن يحصى عليه مثل هذا الكلام :

« أقسم بخالق الخيل ، والرياح الهابة بليل ، بين الشرط ومطالع سهيل ، أن الكافر لطويل الويل ، وان العمر لمكفوف الذيل ، تعد مدراج السيل ، وطالع التوبة من قبيل ، تنج ولا أخالك بناج » .

وقد ذكر الرافعي في اعجاز القرآن : « وتلك ولا ريب فرية على المعري أراده بها عدو حاذق ، لأن الرجل أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه ، وما أراه الا أعرف الناس باضطراب أسلوبه والتواء مذهبه ، وأن البلاغة لا تكون مراغمة للغة ، أو اغتصاباً لألفاظها ، وتوطينها لغرائبها كما يصنع ... » الخ[1] .

---

[1] ص ١٨٩ .

وذكر الدكتور طه حسين في كتابه مع أبي العلاء في سجنه [1]

« هل أراد أبو العلاء إلى معارضة القرآن في الفصول والغايات كما ظن بعض القدماء ؟ نعم ، لا . نعم إن فهمنا من المعارضة مجرد التأثر ومحاولة المحاكاة . ان فهمنا من المعارضة أن أبا العلاء قد نظر إلى القرآن على أنه مثل أعلى في الفن الأدبي فتأثره وجد في تقليده ، كما يتأثر كل أديب بما يعجب به من المثل الفنية العليا . ذلك شيء لا شك فيه ... فأيسر نظر في كتاب الفصول والغايات يشعرك بأن أبا العلاء حاول أن يقلد قصار السور وطوالها . وليس المهم أنه وفق في هذا التقليد أو لم يوفق ، بل من المحقق أن التوفيق لم يقدر له كما لم يقدر لغيره ، بل من المحقق أيضاً أنه لم يظفر الا بمثل سجع الكهان . ولكن المهم أن هذه المحاولة ظاهرة ملموسة في الكتاب ، وهي لا تضير الشيخ ولا تلزمه اثماً ولا حوباً .

« وأنا لا أفهم من المعارضة الاستجابة للتحدي ومحاولة الاتيان بسورة أو سور مثل سور القرآن . فهذا خاطر ما أحسبه خطر لأبي العلاء فقد كان أشد تواضعاً من أن تبلغ به الكبرياء إلى هذا الحد . وقد كان أعقل من أن يطاول ما لا سبيل إلى مطاولته ، وقد كان أحرص على الاحتياط والتحفظ من أن يعرض نفسه لمثل هذا الخطر العظيم » .

* * *

وهناك آخرون غير هؤلاء الأدباء الثلاثة : ابن المقفع والمتنبي والمعري ، اتهموا بمحاولة تقليد القرآن ومعارضته الا أنهم لم يصلوا إلى شيء إن صحت الروايات عنهم . والغالب أن هذه التهم كانت تلصق

---

١ – ص ٢٤٦ .

بهم لتفوقهم في أساليب الانشاء وتملكهم نواصيها واعتناقهم المذاهب الفلسفية . وسنعرض بعد قليل لآراء بعض المتكلمين والفلاسفة من المسلمين في أسلوب القرآن وسبب إعجازه .. ولكنا الآن نريد أن نمضي إلى الأمام خطوتين فنذكر مثالين لنوعين آخرين من محاولة تقليد القرآن .

أحدهما سورة « النورين » التي يزعمون أنها من المصحف وقد أسقطها عثمان منه . والمثال الثاني « الخطبة الالهامية » لمدعي النبوة في الهند غلام أحمد صاحب مذهب القديانية .

أما سورة النورين التي يقولون عنها فهذا مثال منها :

« يأيها الذين آمنوا ، آمنوا بالنورين . أنزلهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم . نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . أن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات نعيم والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون في الجحيم . ظلموا أنفسهم وعصوا ولي الرسول (أي علي بن أبي طالب) أولئك يسقون من حميم . أن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل ، وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه ، يفعل ما يشاء لا اله هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم ، فأخذتهم بمكري ، أن أخذي شديد اليم ... » الخ .

ومن هذه السورة ، وهو بيت القصيد من إنشائها .

« يأيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون . مثل الذين يوفون بعهدك أني جزيتهم جنات النعيم . وأن علياً لمن المتقين » .

. « ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف ، فبغوا هرون فصبر جميل . فاصبر فسوف يبلون . ولقد أتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين وجعلنا لك منهم وصيا (أي علي بن أبي طالب) لعلهم يرجعون .

ان عليا قانتاً بالليل ساجداً ، يحذر الآخرة ، ويرجو ثواب ربه . قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون » .

وحسبنا هذا المقدار من السورة التي يزعم المستشرقون أنها سقطت من القرآن وأن عثمان أهمل أمرها إهمالاً ، وكانت مثبتة في مصحف علي ابن أبي طالب .

ولنلق نظرة على معناها ، فسنرى أنها أنشئت لغرض واحد ، وهو تأكيد معنى الوصي الذي يعد أساساً من أسس التشيع ، والوصي هو علي ، أي الذي أوصى النبي أن يكون خليفته من بعده . وقد عمدت هذه السورة المنتحلة إلى التصريح ، فذكرت اسم علي وتحدثت عن زهادته وعبادته .

ولا تعد هذه السورة من وثائق الشيعة ، وهم لا يتمسكون بها ويقفون عندها ... ففي كتاب الشيعة في التاريخ [1] فصل عن مجمل عقائدالشيعة فيه أن الله « أنزل على نبيه المعجزة العظمى ـ القرآن الكريم ـ مصدقاً غير قديم كقدمه تعالى .. فهذا الكتاب الشيعي لا يذكر ان القرآن نقص سورة ، كما يدعي المدعون وغاية ما يذكر الشيعة تأييد رأيهم القائل بأن النبي عليه السلام أوصى أن يكون خليفته علي بن ابي طالب ، هو تفسيرهم للآية : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنزِلَ إليكَ من رَبِّكَ وإنْ لَمْ تَفْعَل فَمَا بَلَّغتَ رسَالتَهُ . واللهُ يَعصِمكَ مِن النَّاسِ » .

فقد ذكر الفخر الرازي أن هذه الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب . وذكر الزمخشري أن الآية « إنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » إنما نزلت في فضل علي بن أبي طالب . وإذن فغاية ما يعتمد عليه

---

١ – للشيخ محمد حسين الزين طبعة صيدا .

الشيعة في إثبات الامامة لعلي هو تفسير لبعض آيات واردة في صلب المصحف الذي بين أيدينا . وهو تفسير فيه خلاف إذ النص غير صريح ، وإنما يعتمد في التفسير على رواية بعض أحاديث تؤيد رأيهم .

فسورة « النورين » التي نحلها احد الروافض (وهم فرقة من الشيعة) وتمسك بها المستشرقون ، إنما أنشئت لتأييد دعوى سياسية . ومما يستوقف النظر فيها أن صاحب هذه السورة حاول أن يقلد القرآن ، وأجهد نفسه في هذا إجهاداً لا شك فيه حتى ليمكننا أن نقول ان سورة النورين أقرب سورة مزورة من القرآن . ولكن إمعان النظر فيها وترديد جملها يشعرك بالخلل في تركيب ألفاظها . فإذا أمعنت النظر في الجملة مثلاً : « ولقد أتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين ، ترى لفظ (لك) قلقاً في مكانه لا يكاد يستقر . وتجد نغم الجملة كله فاتراً هامداً لا ينتفض بهذه الحياة التي تنتفض بها آيات القرآن . وكذلك تستطيع أن تدقق النظر في بقية الجمل . فستظفر بما يريبك ، ثم بما يسخطك .

والمثال الأخير الذي نريد أن نختم به هذا الفصل ، هو قرآن غلام أحمد ، وهذا الشخص هو آخر المتنبئين الذين يتحدثون عن صلتهم بوحي السماء ، وأنه ينزل عليهم قرآناً كما كان ينزل القرآن على محمد عليه السلام .

وغلام أحمد هذا ، هندي ولد في مدينة قديان منذ قرن وبضعة أعوام ، وقد ادعىأن الوحي ينزل عليه في عام ١٨٧٦ م ، فأذاع في الهند بياناً قال فيه إنه المسيح المنتظر ، وان له كتاباً منزلاً ، وقد ظهرت آية بيانه التي يدعيها في عام ١٩٠٠ عندما ألقى على أتباعه في مطلع هذا القرآن ما أسماه الخطبة الإلهامية ، حاول فيها أن يقلد القرآن ، فألقاها باللغة العربية ، وسجع فيها ، واقتبس ، ولكنه انتهى الى «إلهام »

يضحك الثكلى ، وقرآن إذا تلاه إنسان لم يتبع قرآنه .. اللهم إلا طائفة من أهل الهند تابعته متأثرة بنشاطه ونشاط أتباعه في الدعاية ، والهند ميدان عجيب للعقائد والنحل ، فلا يستغرب أن يكثر من أفرادها من يدين بالقديانية ، ويحملها على نصوص من القرآن أسوء فهمها وتأويلها . ولا نريد أن نناقش متنبي قديان ، ولكن نعرض طائفة من « قرآنه » الذي قال عنه في فاتحته :

« هذا هو الكتاب الذي ألهمت حصة منه من رب العباد ، في يوم عيد من الأعياد ! ! » .

يقول : « أرأيتم إن كنت من عند الله ، ثم كذبتموني فما بالكم ايها المكذبون ، إنكم ترون كيف تنصر الناس وارتدوا من دين الله ، ثم تقولون ما جاء مرسل من عند الله ، ما لكم كيف تحكمون . فأنعم الله على هذه الأمة بارسال مثيل عيسى وهل ينكر بعده إلا العمون . وكان عيسى علماً لبني إسرائيل ، وأنا علم لكم أيها المفرطون »

وقد مات غلام أحمد سنة ١٩٠٨ ، وترك من ورائه خليفة ،ثم خليفة .

وكانت آية هذا المتنبي الحديث خطبته الإلهامية ، وكانت هذه الخطبة في ذاتها دليل كذبه ، فحسب أي إنسان يعرف العربية أن يقرأ لغواً مثل قول غلام أحمد ـ بعد أن يورد الآية :

« وَمَرْيم ابنَةَ عمرَان التِي أحصَنَت فَرجَها فَنفَخنَا فِيهِ مِن رُوحنا » .

هذه بشارة بأنه سيكون في هذه الأمة الإسلامية رجل في درجة مريم الصديقة ثم ينفخ فيه روح عيسى ، أي أن الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية ، فكأنما كينونته المريمية انتجت كينونته العيسوية ، و بهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم » !

حسب الإنسان أن يقرأ كلاماً كهذا ، لكي لا يدرك فقط أنه فقد ميزة البلاغة ولكن يسرع فيدرأ عن نفسه التفاهة الكريهة التي تهب عليه منه .

ولكنا مع هذا نرى كيف صنع القرآن بخيال هذا الرجل . وكيف حسب أنه إذا جمع الفاظاً مما استعمل القرآن وضم بعضها إلى بعض يستطيع أن يصنع قرآنا فقوله مثلا : (وقد أوحى إلى من ربي قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا) يدل على مقدار تأثير النغمات والألفاظ القرآنية على ذهنه فألفاظ (قد أوحى) و (صنع الفلك بأعيننا) منتهبة من آيات القرآن ، ولكنه ضم بعضها إلى بعض في تركيب غير محكم وأضاف إليها كلمة الطاعون ، ثم جلس يستنشق نفسا طويلا ، ويقول هذا هو قرآني ! !

لفظ ومعنى

« الله نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني
تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم »

— ١ —

موضوع القرآن

قال إبن خلدون في مقدمته : إن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني . وإنما المعاني تبع لها وهي أصل ... فالمعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة .. واللفظ بمثابة القوالب للمعاني . فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ـ والماء واحد في نفسه ـ وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف طبقات الكلام في تأليفه »

ولو أننا جارينا ابن خلدون في مذهبه هذا ، وجعلنا المكان الأول للبلاغة في الألفاظ لا في المعاني ، إذن لقلنا إن القرآن معجز لأنه صاغ معانيه صياغة يعجز عن الإتيان بمثلها الناس .

ولا نحسب الأمر كذلك ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه ، إن لم نقل إنه معجز بمعناه أكثر مما هو بلفظه . ولقد ضرب إبن خلدون مثلا وقاس عليه الألفاظ والمعاني . فقال إذا أردت ان تشرب ، فاشرب من آنية الذهب لا آنية الخزف ، فالماء واحد ولكنه يمتاز في تلك ببهاء منظره وطابع الترف الذي يشع منه .. ولو أن ابن خلدون كان من سكان القاهرة في هذا العصر ، وكان يسكن حي عابدين ، ويشرب من ماء

النيل ويعتاد على مذاقه ، ثم زار كاتب هذه السطور في حدائق القبة وقدم له هذا الماء الذي يخرجونه من الأرض ملح المذاق[1] .. إذن لتأذى ، ولما صبر عليه ، ولعدل عن رأيه أن الماء واحد في نفسه .. فكما يختلف مذاق الماء في مدينة واحدة هي القاهرة ، كذلك يختلف المعنى في شخص عنه في شخص آخر . وقد وفق ابن خلدون في مقدمته إلى معان اجتماعيه ونظرات فلسفية ، كانت في رأسه وحده ، واستطاع هو دون غيره الاهتداء إليها ... ولو أنها كانت في رؤوس الناس جميعاً ، إذن لما امتاز هو عن غيره من المؤلفين ، بل ربما كان له أنداد في ثروة الألفاظ وفي المقدرة على التعبير ، يساوونه ، ان لم يزيدوا عليه .

معاني القرآن إذن ، مصوغة في الألفاظ التي عبر بها القرآن ، هي التي عجز الناس عن ابتكار مثلها . ولئن صح بعض المتكلمين أن يختلفوا في مراتب الفصاحة القرآنية ، وهل القرآن كله في مرتبة واحدة من الفصاحة ، فهم لا يختلفون في أن الأهداف التي رمى إليها القرآن ، والمعاني التي عبر عنها هي دستور الحياة الإنسانية الذي لا يأتيه نقص ، ولا يتطرق إليه قدم : دستور صالح للعمل به في كل مجتمع وفي كل زمن .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : إنه لا تفاوت في فصاحة أجزاء القرآن ، وأن كل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا ، وأن كل ما في القرآن على ارفع درجات الفصاحة) . ولكن القشيري (أبا نصر) يرى غير رأي أبي بكر ويقول (لا ندعي أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة) . وعلل بعض القدماء السبب في تفاوت الفصاحة القرآنية بأنه لو جاء القرآن فصيحاً في كل جزء من أجزائه لكان على غير النمط

---

[1] كان ذلك عام ١٩٣٩ ، وقد تغير الحال هنا .

المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته ، ولا تقول قريش مثلاً : أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه ، كما لا يصح للبصير أن يقول للأعمى قد غلبتك بنظري ، لأن الأعمى يرد عليه بقوله إنما تتم لك الغلبة لو كنت قادراً على النظر وكان نظرك أقوى من نظري ؛ وأما إذا فقدت العينين ، وهما أصل النظر ، فكيف تصح مني المعارضة !

وربما كان هذا الدفاع الذي ذكره القدماء عن تفاوت الفصاحة القرآنية محتاجا بدوره إلى دفاع لما يشوبه من تكلف واضح ... وذلك أن من عالج فن الإنشاء يرى أسلوب الأداء يتفاوت حسب الموضوع الذي يعبر عنه . فأنا حين أقرر حكما من الأحكام أضطر إلى نوع من الإيجاز ، واختيار طائفة معينة من الألفاظ لا أعدل عنها . وحين أهاجم عدوا ، أو أصف منظراً ، أخرج عن نطاق الألفاظ المحدودة والمعاني المحصورة إلى أفق أوسع يعمل فيه الخيال وتلتهب فيه العاطفة . وكذلك الشأن في القرآن ، فآية المواريث مثلاً تضمنت طائفة من الأرقام والتقسيمات لا مجال للعاطفة فيها لأنها حكم من الأحكام ..

أما قوله تعالى : « يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعُوا لَهُ ، إنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخلقُوا ذُبَاباً وَلَو اجتمعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسلبهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَستنقذُوهُ مِنهُ ، ضَعُفَ الطالبُ وَالمطلُوبُ . مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدرِهِ إنَّ الله لَقوِيٌّ عَزِيزٌ . الله يَصطفي مِنَ الملائكةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إنَّ الله سَمِيعٌ بَصيرٌ . يَعلمُ مَا بَينَ أيدِيهم وَمَا خَلفَهُم وَإلى الله تُرجَعُ الأمُورُ » .

فهذه الآية بما تضرب من مثل عجيب ، وما تتضمن من معنى خالد تثير في النفس طائفة من الإحساسات والانفعالات ، كما تحرك في الذهن طائفة من الآراء والأفكار والتأملات لا سبيل إلى حدها .

الخلاف الذي نراه إذن في أسلوب هذه الآية ، وفي أسلوب آية أخرى من آيات التشريع ، إنما يرجع إلى الموضوع في ذاته ، لا إلى طريقة الأداء . ومن هنا يفهم قول القاضي أبي بكر : (بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض) ذلك أن الصورة التي ترتسم في الذهن وفي النفس عن معنى الآية هي التي توضحها وتقربها . وهنا ينبغي أن نكرر المعنى الذي سبق أن ذكرناه ، وهو أن كل كلمة في آية من آيات القرآن ، إنما وضعت في مكانها أحسن وضع ، وأنه لو حدث أن بدلت هذه الكلمة بغيرها إذن لما اتسق نظم الآية ، ولأحس القارىء أن أمراً حدث فيها .

ذكر السيوطي في تعريف القرآن : « أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف ، متضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى وتنزيهه في صفاته ودعائه إلى طاعته وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه ، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلة والأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك آكد للزوم ، وما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه » .

والسيوطي هنا يرى الاعجاز يشمل المعنى في اللفظ الذي أدى به ، وهو قول صواب .

* * *

وقد عرف الأستاذ فريد وجدي مقاصد القرآن بقوله . « القرآن

وحي إلهي نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً . وعقيدتنا معشر المسلمين أنه الكتاب الجامع لأشتات الحكم ومتفرقات الأصول ، وأن فيه خلاصة سائر الكتب السماوية المتقدمة، وأنه جاء بالناموس الأعظم لكمال الحياتين الدنيوية والأخروية ، وأنه آخى بين طبيعتي الإنسان الجسدية والروحية ، وأنه أنزل للعالمين أجمعين وروعيت فيه مصالحهم على قسطاس مستقيم . ولا جرم أن كتابنا هذا شأنه لا بد من أن يكون راميا إلى مقاصد ومتوخياً في تعاليمه دستورا . ولا بد أن يكون قد وعد وأوعد وبشر وأنذر ، ورغب ونفر ، وبنى وهدم ، وقوى ووهن ، ووصل وقطع ، وسلك لكل ذلك مسالك خاصة أدته إلى المكانة التي بلغها في نفوس الآخذين به قديماً أو حديثاً[١] » .

وذكر الشيخ الخضري في تاريخ التشريع الإسلامي « الكتاب هو القرآن وهو أجل من أن يعرف » .

ثم ذكر في المصدر نفسه . اشتمل القرآن على أنواع من الأعمال كلف بها العباد :

الأول : معاملة بين الله والعبد ، وهي العبادات التي لا تصح الا بالنية ومنها عبادات محضة وهي الصلاة والصوم ، وعبادة مالية اجتماعية وهي الزكاة ، وعبادة بدنية اجتماعية وهي الحج .. وقد اعتبرت هذه العبادات الأربع بعد الإيمان أساس الإسلام .

الثاني : معاملة بين العباد بعضهم مع بعض وهي أقسام :

(أ) مشروعات لتأمين الدعوة وهي الجهاد .

---

١ – مقدمة المصحف المفسر ص ٩٨ .

(ب) مشروعات لتكوين البيوت ، وهي ما يتعلق بالزواج والطلاق والأنساب والمواريث .

(ح) مشروعات لطريق المعاملة بين الناس من بيع وإجارة وغير ذلك ، وهي المعروفة بالمعاملات .

(د) مشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي القصاص والحدود .

* * *

وعرف المرحوم الشيخ طه حبيب القرآن بقوله :

« القرآن هو اللفظ العربي المنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، المتعبد بتلاوته ، المتحدي بأقصر سورة منه ، المتواتر . فالمنزل هو اللفظ المقروء » . وقال عن الحديث القدسي : « أما الحديث القدسي فهو ماأسنده النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام . ولا يلزم أن يكون متواتراً ولا هو متعبد بتلاوته ولا متحدى به » . وفرق بين كلام الله وبين القرآن بقوله : أما كلام الله ، الذي هو صفة له عز وجل منافية للسكوت والآفة ، فليس من جنس الحروف والأصوات ، ولا يختلف إلى الأمر والنهي والأخبار ، ولا يتصف بالماضي والحال والاستقبال الا بحسب التعليقات والإضافات . وجملة القول أن المنزل والمقروء ليس هو الصفة القديمة كما هو ظاهر »[1] .

* * *

[1] – فتاوى مجلة الأزهر المجلد الرابع ص ١٩٨ .

وقسم هرشفلد « Hirschfeld » القرآن حسب موضوعه إلى أربعة أقسام :

(١) — تبليغ .
(٢) — قصص .
(٣) — وصف .
(٤) — تشريع .

وربما كان هذا التقسيم أدنى تقسيم معروف إلى الإيجاز والصواب .

وقد بذل جول لابوم[1] جهداً كبيراً محموداً في ترتيب آيات لقرآن حسب الموضوعات التي عرضت لها .

ولكن هذا الترتيب لم يرض الشيخ رشيد رضا ، بعد أن كتب مقدمته وامتدحه ، وذلك لأنه وجد هذا الباحث الأجنبي غاب عنه الكثير من معاني القرآن ، فأدخل أبواب آيات لا تصلح أن تكون منها ، وهذا العيب يصادف من نسميهم بالمستشرقين كلما عرضوا للقرآن الكريم بشرح أو تفسير .

---

١ — نقل هذا الترتيب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، وطبعته مطبعة الحلبي طبعاً متقناً .

— ٢ —

حِـوَار وَفـُرُوض

تلك هي المعاني التي طرقها القرآن ، وعلى أساسها وعلى أساس أسلوبه في أدائها يقوم إعجازه مضافاً إليها ما أنبأ به من أخبار الغيب . وسنتكلم في فصل خاص من هذا الكتاب عن نظر المسلمين المتأخرين إلى أجزاء هذه المعاني وكيف فسروا بعضها ، واختلفوا في هذا التفسير ، وكان اختلافهم هذا منشأ الفرق الإسلامية ، وأهم سبب من أسباب نشأة علوم الكلام التي استندت عليها الفلسفة الإسلامية كلها .

إلا أنا نريد أن نصل البحث الماضي بذيل له ، هو هذا المثال الغريب الذي ساقه ابن الراوندي ليوضح به مذهبه في الإعجاز ، وحوار اثنين من الباحثين حوله . ثم هذا الرأي الذي قال به النظام — أحد أئمة المعتزلة — ورد السيوطي عليه .

قال ابو الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي في كتاب له اسمه الفريد أو الفرند : (إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي ، فلم تقدر العرب على معارضته . فيقال لهم : اخبرونا لو أدعى لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال الدليل على صدق بطليموس أو اقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، أكانت نبوته تثبت ؟)

وقد أورد الرافعي هذا القول في كتابة إعجاز القرآن ، وبعد أن

سفه صاحب الرأي وأقذع في شتمه قال : « فاعجب لهذا الجهل الذي يكون قياساً من أقيسة العلم وأعجب للكلام الذي يقال فيه : أن هذا كتاب وذلك كتاب فكلاهما كتاب ، ولما كانا كذلك فأحدهما مثل الآخر ، ولما كان أحدهما معجزاً فالثاني معجز لا محالة ، وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثاني . وما دمنا نعرف أن صاحب الثاني لم تثبت له نبوة فنبوة صاحب الأول لا تثبت . لعمري أن مثل هذه الأقيسة التي يحسبها ابن الراوندي سبيلاً من الحجة وباباً من البرهان ، لهي في حقيقة العلم كأشد هذيان عرفه الأطباء قط ، وإلا فأين كتاب من كتاب وأين وضع من وضع ، وأين قوم من قوم ، وأين رجل من رجل . ولو أن الإعجاز كان في ورق القرآن ، وفيما يخط عليه لكان كل كتاب ككل كتاب في الأرض ، ولاطرد ذلك القياس كله على ما وصفه كما يطرد القياس عينه في قولنا إن كل حمار يتنفس ، وابن الراوندي يتنفس فابن الراوندي يكون ماذا ؟ »

ويظهر أن المرحوم الرافعي كان مهتاج الأعصاب وهو يرد على الراوندي ذلك أن هذا العالم القديم (توفي في نهاية القرن الثالث الهجري) يقول في عبارة هادئة أنه لا يكتفي أن يعجز العرب عن محاكاة القرآن لكي يكون القرآن معجزاً ويكون صاحبه نبياً ! وإلا فلو أن عالم رياضة أو صاحب فلسفة أتى بنظرية يعجز غيره عن الاتيان بمثلها ، هل يكفي هذا لأن يدعي صاحب النظرية النبوة ؟ وذكر رجلين من أعلام الفكر القديم هما بطليموس وإقليدس ، ولكلا الرجلين ما يعد إلى اليوم قمة الباب الذي ألف فيه ... ومع هذا فلا سبيل لأن يصدقهما احد إذا ادعيا أو ادعى واحد منهما النبوة !

وكان ينبغي للرافعي أن ينقض هذا الكلام بكلام من نوعه وفي اتجاهه ثم يصب عليه ما شاء من الشتائم . ولكنه ذكر الرد الذي أثبتناه ،

وختم رده بمقتبسات من رد المعري عليه ، وسمى رد المعري بصقاً على كتب ابن الراوندي بمقدار دلو من السجع .. ولا ننسى أن المعري الذي احتج الرافعي برده على ابن الراوندي لم يسلم من قلم الرافعي ، فقد أهال عليه بعد صفحة واحدة أكواماً من التراب[1] .

وقد تصدى الأستاذ عباس العقاد لهذه النقطة من مجادلات الرافعي في كتاب ساعات بين الكتب فقال قولاً سديداً نجمله فيما يأتي :

ما هي المعجزة ؟ هي حادث خارق لنواميس الكون التي يعرفها الانسان ، مقصود به إقناع المفكرين بأن صاحبها مرسل من قبل الله إذ كان يأتي للناس بعمل لا يقدر عليه غير الله . وانما الأساس فيها والحكمة الأولى أنها تخرق النواميس المعروفة وتشذ عن السنن المطردة في الكون ، وعلى هذا الوجه يجب أن يفهمها المؤمنون بها والمنكرون لها على السواء ، فيخطىء المؤمن الذي يحاول أن يفسر المعجزة تفسيراً يطابق المعهود من سنن الطبيعة لأنه بهذا التفسير يبطل حكمتها ويلحقها بالحوادث الشائعة .

المعجزة في لفظها العربي قوامها الإعجاز ، أي الاقناع بأن فاعلها هو الله لا سواه ، ومن ثم يكون الرجل الذي ساقها مساق الدليل رسولاً من عند الله .

ولا يكفي الإعجاز وحده دليلا على الرسالة الإلهية لأن الإعجاز قد يكون لغير براعة في الفعل المعجز ، وقد يكون لعمل من أعمال البشر التي لا بد فيها من رجحان واحد على الآخرين . مثال ذلك :

---

١ – راجع صفحات ١٨٥ إلى ٢٨٩ من كتاب اعجاز القرآن للرافعي .

جاء اليك صبي يتهجى وكتب لك سطراً من خطاب ، ثم طلب اليك أن تكتب أنت بيدك كما كتبه هو ، غير مستعين برسم ولا تصوير ، فأنت لا محالة عاجز عن محاكاة ذلك الخط أتم محاكاة وغيرك أيضاً عاجزون عن إجابة ذلك التحدي الساذج الصغير ، فماذا ترى في دعوى الصبي إذا هو ادعى النبوة أو ما شاء له عقله الصبياني المخدوع ؟ هذه محاكاة يعجز عنها أقدر القادرين في كتابة الخطوط لا لحسن رائع في الخط المحاكى ، ولا لزيادة في جهد الصنعة وطاقة التجويد ، ولكن لأن يد الصبي غير سائر الأيدي ، ومعرفته بالخط غير سائر المعارف ، فهو يكتب خطاً لا يحكيه أحد ويفعل فعلاً يعجز عنه الآخرون . فهل ترى هذا الإعجاز مما تنهض به الحجة وتعنو له العقول ! ! أو هل ترى أن مجرد العجز هنا دليل على انتصار الصبي القادر أو خذلان المقلدين العاجزين ؟ »

ثم عرض لما ذكر ابن الراوندي في الإعجاز ورد عليه بقوله :

« كلام ابن الراوندي هذا ظاهر المغالطة ، لأن إقليدس لم يخترع الحقائق التي أوردها في كتابه ، وليس في طاقته هو نفسه أن يبتدع كتاباً آخر ، أو يزيد قضية واحدة على تلك القضايا . فالعجز هنا يشمل إقليدس كما يشمل الآخرين ؛ والدعوى لا تظهر له فضل غير فضل الاهتداء والإشارة الى الحقائق الموجودة قبله ، والتي لا يد له هو في إيجادها بأي معنى من معاني الإيجاد[1] » .

ذلك قول ابن الراوندي في الإعجاز والرد عليه . وأما « النظام » فله مذهب آخر ؛ شائع معروف وهو مذهب الصرفة .

---

١ — ص ٧ وما بعدها من كتاب ساعات بين الكتب للعقاد .

في كتاب الاتقان : زعم « النظام » أن إعجاز القرآن بالصرفة ، أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ،وكان مقدوراً لهم ، ولكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات :

ورد السيوطي بقوله : وهذا قول فاسد بدليل : (قُل لَئنِ اجتمَعتْ الإنسُ وَالجن) الآية فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا لم تبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة إجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره ... هذا مع أن الإجماع منعقد على اضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً ، وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الاتيان بمثله ! ! وأيضاً يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة. إن معجزة الرسول باقية ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن » .

وقال القاضي أبو بكر : (ومما يبطل القول بالصرفة ، إنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون بالمنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة غيره في نفسه) .

ولا يكتفي النظام بهذا القول في الإعجاز ، وهو أن سببه صرف الله الناس عن محاكاته ، ولكن له آراء في أسباب الإعجاز ... كقوله : إن إعجاز القرآن إنما سببه ما فيه من إخبار عن الغيوب ، كالإخبار عن عالم الغيب ، وكالإخبار عن أحداث مستقبلة كقوله تعالى :

« آلـم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أدنَى الأرضِ وَهُم مِن بَعد غَلَبِهِمْ سيغلبُونَ في بضعِ سِنينَ » وقوله : « قُلْ لِلمخلّفينَ مِنَ الأعرَابِ ستُدعَونَ إلَى قَومٍ أولي بَأسٍ شَديدٍ ، تُقاتِلُونهُمْ أو يُسلمُونَ ، فَإن

تُطِيعُوا يُؤْتِكُم الله أَجْراً حَسناً ، وَإِن تَتَوَلَّوا كما تَوَلَّيتُم مِن قبلُ يُعذِّبكُمْ عَذَاباً أليما » .

وإخباره بما في نفوس قوم ، وبما سيقولونه . الخ . أما التأليف والنظم والأسلوب كان يجوز أن يقدر عليه العباد لـولا أن الله صرفهم عن الإتيان بمثله [1] .

ولم يكن النظام ـ ابراهيم بن سيار بن هانئ ـ ضعيف العقل ، ولا ممن يغمز جانب ايمانهم بسهولة ، فهو حجة المعتزلة وأشهر أئمتهم ، وقد مات شابا في سنة ٢٢١ للهجرة ، اذ لم يزد على السادسة والثلاثين ، ومع هذا كان إماما من ائمة الفكر الاسلامي . وقد أثارت آراؤه هذه وغيرها من الآراء المتصلة بفروع الدين لغطا شديدا متصلا في محيط المتدينين والفلاسفة . وقد تزعم النظام مدرسة من مدارس المتكلمين الإسلاميين ، وحسبه أن تلميذه الجاحظ .. كما أنه إلى جانب آرائه في الدين كان عالما مجربا ، يغرم بالحصول على النتائج من وراء المشاهدة العملية .

وكما روينا رأي ابن الراوندي ورأى النظام في إعجاز القرآن والرد عليهما ، لا نرى بأساً من أن نورد طرفاً مما قال في هذا الباب أحد قدماء الباحثين المحافظين وهو القاضي أبو بكر الباقلاني ، فقد ذكر في بحوثه عن اعجاز القرآن أن وجه اعجاز القرآن ما فيه من النظم والتأليف والترصيف ، وإنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم .. قال : « ولهذا لم يمكنهم معارضته . ولا سبيل إلى إعجاز القرآن من درس أصناف البديع التي أودعوها في الشعر ، لأنه ليس مما يخرق العادة ، بل يمكن استدراكه

---

١ – ضحى الإسلام الجزء الثالث ص ١٢٥ .

بالعلم والتدريب والتصنع به ، كقول الشعر ووصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة .. فأما نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ولا امام يقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا » . قال : « ونحن نعتقد أن الإعجاز في بعض القرآن أظهر وفي بعضه أدق واغمض » .

ونرى من عبارة القاضي أبي بكر أنه فهم المعجزة على النحو الذي فهمه الأستاذ العقاد في العبارة التي سقناها عنه ، فهو يرى أن محاولة التدليل على اعجاز القرآن بأن فيه هذه الاستعارة البارعة أو هذا الخيال الرائع عبث لا طائل تحته ، لأن هذه المقاييس إنما يقاس بها كلام الناس لا كلام الإله ، وكلام الناس مع تفاوته في الدرجات يحصل جيده بالعلم والتدريب . وليس شأن القرآن كشأن كلام الناس

— ٣ —

تَرتيلُ القُرآن

ورد ذكر (ترتيل) القرآن في آيتين هما :

١ ـ « وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآنُ جُملةً واحدة كذلك لِنُثبِّت به فؤادكَ ، وَرَتلناهُ ترتيلاً » . الفرقان ٣٢

٢ ـ « يَا أيهُّا المزملُ قُمَ الليل إلا قليلا ، أو زِد عليه ، وَرتـل القرآن تَرتيلا » المزمل ١ـ٤

وقيل في المعنى اللغوي للترتيل : يقال ثغر مرتل ؛ أي أسنان بيض منتظمة ؛ أشبه بنور الأقحوان . ونزل القرآن مرتلا أي على تمهل في عشرين سنة . وقيل في معنى القراءة المرتلة ؛ أي القراءة بترسل وتثبت .

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله ؛ عليه السلام ؛ فقالت : (لا كسردكم هذا . لو أراد السامع أن يعد حروفه ؛ لعدها) .

وروى البخاري عن أنس أن قراءة رسول الله ؛ كانت مدا . . ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، بمد الله ، وبمد الرحمن ، وبمد الرحيم .

وذكر القسطلاني[1] أن رسول الله كان يقرأ مترسلاً ، إذا مر

---

١ ـ المواهب جـ٧ ص ٤٠٩ .

بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ .

وما عناه القسطلاني أن طريقة التلاوة ، كانت تدل على معنى الآية .

وثمة حوار يدور بين المسلمين الآن عن الترتيل ، والتجويد .وقيل أن الترتيل هو السنة ، والتجويد فيه من النغم ما قد يصرف الناس عن التأمل في معانيه ، إلى التأثر بأدائه .

وكلنا يعلم أن بلال بن رباح كان مؤذن رسول الله عليه الصلاة والسلام . وكان صوت بلال وأداؤه يبعث التأثر في النفوس . وقد أذن مرتين بعد وفاة أبي بكر الصديق ، فكانت عيون الناس تفيض بالدمع الغزير ، لأنهم إفتقدوا رسول الله ، وقد استرجع الناس أيامه حاضرة أمامهم على صوت بلال ..

وتفصيل ذلك[1] أن عمر بن الخطاب حين وصل إلى الشام أذن بلال في الناس « فلم نر باكياً أكثر من ذلك اليوم »

ورأى بلال وهو بالشام رسول الله في منامه وهو يقول له ؛ « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ ما آن لك أن تزورنا » فانتبه بلال حزيناً ؛ وأسرع إلى المدينة ؛ فأتى قبر النبي عليه السلام ؛ وجعل يبكي عنده ، فأقبل الحسن والحسين ، فجعل يقبلهما ويضمهما . فقالا له :

نشتهي أن تؤذن في السحر ..

فعلا بلال سطح المسجد ؛ فلما قال : (الله أكبر ؛ الله أكبر ..) ارتجت المدينة ؛ فلما قال : (أشهد ألا إله إلا الله) . زادت رجتها . فلما قال : (أشهد أن محمداً رسول الله) خرج النساء من خدورهن ؛ فما رؤي يوم أكثر باكياً وباكية من ذلك اليوم .

---

١ — أسد الغابة لابن الأثير ص ٢٤٧ — جـ ١ تحقيق المؤلف وزملاء له .

وكان عمر بن الخطاب ، يقول : أبو بكر سيدنا . وأعتق سيدنا ، يعني بلالاً .

هذا واحد رفعه إيمانه ، ومحبته لرسول الله ، وصوته الجميل في الأذان وتلاوة القرآن ، حتى وصفه عمر بأنه سيد المسلمين بعد الرسول وأبي بكر .

أما تجويد القرآن ، فقد ورد في نفس المصدر عرض لسيرة أحد الصحابة وهو أسيد بن حضير ؛ من الذين كانوا يوصفون بين العرب بالكمال .. هو انصاري من بني عبد الأشهل ، وصف بأنه كان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن .

روى عن نفسه قال : قرأت ليلة سورة البقرة . وفرس لي مربوط . ويحيى ابني مضطجع قريب مني ، وهو غلام فجالت الفرس .فقمت وليس لي هم إلا ابني ـ ثم قرأت ، فجالت الفرس . فقمت . وليس لي هم الا إبني . ثم قرأت . فجالت الفرس . فرفعت رأسي . فإذا شيء كهيئة الظلة في مثل المصابيح . مقبل من السماء . فهالني : فسكت . فلما أصبحت غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخبرته . فقال إقرأ أبا يحيى ... واستمر أسيد في قراءته . وقد تكرر منظر الليلة الماضية . فقال له رسول الله : تلك الملائكة دنوا لصوتك . ولو قرأت حتى تصبح لأصبح الناس ينظرون اليهم »[1]

ويذهب كتاب « إعجاز القرآن »[2] إلى أن ترتيل القرآن داعية من أقوى الدواعي لشرح الصدور له . وتأليف القلوب عليه . وجذب النفوس إلى تقبل الحقائق التي حملها . والأخذ بها . والتجاوب معها .

---

١ – أسد الغابة ص ١١٩ . والبخاري مع خلاف يسير .

٢ – اعجاز القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ج ٢ ص ١٤٥ .

ذلك أن هذا الترتيل يعرض الحقائق عرضا مشبعاً بالجو العاطفي المناسب لها فتجد مساربها إلى العقول والقلوب . وتنفذ إليها في تدفق وقوة . فيستيقظ لها الكيان الإنساني كله . وتعمو لها المشاعر والمدارك . وتتلقاها في نشوة غامرة . وفي روح ، وراحة ، ورضى .

ومن أجل هذا كان هذا التوجيه الإلهي الذي حمل إلى النبي الكريم في صورة الأمر : ورتل القرآن ترتيلاً . وقد امتثل النبي هذا الأمر . وأخذ نفسه بهذا التوجيه الحكيم في قراءة القرآن . ودعا أصحابه . ومن دخل في دعوته أن يتابعوه فيه . وفي هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ما أذن الله لشيء . ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن » أي ما استمع الله لشيء مثل استماعه لنبي يتغنى بالقرآن . ويقول النبي الكريم أيضاً : « زينوا القرآن بأصواتكم » أ . هـ .

وكذلك أورد ابن سعد في طبقاته روايات عن أبي موسى الأشعري ، مؤداها أنه كان « حلو» الصوت وكان إذا قرأ القرآن في المسجد اقتربت نساء الرسول حتى يسمعن لتلاوته . وكان يقول أنه لو علم بإنصاتهن لزادهن شوقاً إلى التلاوة .

وإذا كانت بعض الشعوب الإسلامية ، فسرت الترتيل على أنه القراءة غير المنغمة والمجودة حسب أصول القراءات المعروفة ، والتي اشتهر بها بعض قراء مصر ، فإن السنة عن رسول الله ، فيما نرجح ، وفيما قدمنا من شواهد ، تتسع للأمرين جميعاً .

وقد لقي المصحف المرتل[1] المسجل على اسطوانات إقبالاً عظيماً

---

١ – قراءة الشيخ الحصري .

في العالم الإسلامي . ونحسب أن المصحف المجود[٢] سوف يلقى نفس الإقبال .

وحبذا أن نجد بين أيدي المسلمين أيضاً المصحف المفسر ، مسجلاً مجويداً وتفسيراً بين أيدي المسلمين في أمد قريب .

وكذلك المصحف الموجه . الذي ندعو له ، والذي يساعد على تعليم اللغة العربية ...

وما دمنا بصدد الأصوات التي يتلى بها كتاب الله ، فمن الواجب أن ننوه هنا بالتأثير البالغ على القراءة ، الذي أسبغه عليها صوت المرحوم الشيخ محمد رفعت فهو ثروة روحية ، ونفحة من نفحات السماء ، تنعش النفوس وتغذيها ، وتحلق معها إلى ملكوت العزة والجلال الإلهي .

---

٢ — قراءة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد .

مُصْحَفُ عُثْمَانَ

« ولا تَقْفُ مَا ليسَ لكَ بهِ عِلمٌ ، إنَّ السمعَ والبصرَ
والفؤادَ كلُّ أولئكَ كانَ عنهُ مسئولا »

— ١ —

التدوين بين النبيّ والصّحابة

انتهينا في الفصل الذي عقدناه في كتابنا الماضي عن (النبي والقرآن) إلى أن النصوص التي بين أيدينا لا تقطع بأن القرآن كان يدون في العهد المكي ... فقد استمر الوحي ينزل على رسول الله عشر سنين في هذه الفترة (باستثناء مدة انقطاعه في أول البعثة) . ولم تكن ظروف النبي في مكة لتسمح له بحالة من الاستقرار تساعد على التدوين المنتظم . وكل ما رجحناه هو أن صحفاً معينة كانت تكتب من القرآن ويتداولها المسلمون سراً ، ليتدارسوها في بيوتهم ، بعيداً عن أعين قريش وعن أذاها المتصل ..

ونعود الآن الى النصوص نفسها التي بين أيدينا لنرى ماذا كان عليه الحال في العهد المدني ، وكيف كان يدون القرآن ؟ ...

* * *

ورد في الاتقان عن زيد بن ثابت ، قال (قبض النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن القرآن جمع في شيء) .

وعن زيد بن ثابت أيضاً قال : « كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع »

قال الخطابي : (إنما لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ؛ فلما انقضى نزوله بوفاته الهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده

الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر) .

* * *

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن) .

وعلق السيوطي على هذا الحديث بقوله : « لا ينافي ذلك ، لأن الكلام في كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة .. وقد كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور » .

* * *

وقال الحارث المحاسبي في كتاب فهم السنن : «كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعسب . فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً . وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله فيها القرآن منتشراً فجمعها جامع وربطها بخيط لا يضيع منها شيء » .

قال صاحب هذه الرواية : « فإن قيل كيف الثقة بأصحاب الرقاع وصدور الرجال ، قيل لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجز ، ونظم معروف قد شاهدوا تلاوته من النبي عشرين سنة فكان تزوير ما ليس منه مأموناً . وإنما كان الخوف من ذهاب شيء من صحفه » .

* * *

وقال السيوطي : « وقد تقدم في حديث زيد أنه جمع القرآن

من العسب واللخاف . وفي رواية والرقاع . وفي أخرى وقطع الأديم . وفي أخرى والأكتاف ، وفي أخرى والأضلاع . وفي أخرى والأقتاب والعسب » (جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض واللخاف جمع لخفة وهي الحجارة الدقاق) .

وقال الخطابي : « صفائح الحجارة ، والرقاع : جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد . والأكتاف جمع كتف : وهو العظم الذي للبعير ليركب عليه » .

* * *

وفي كتاب تاريخ القرآن للشيخ الزنجاني [1] :

«كان الكتبة يكتبون الآيات في العسب واللخاف والرقاع ، وأحياناً في الحرير وقطع الأديم والأكتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك الأشياء . وكان يطلق عليها الصحف . وكانت من تلك الصحف تكتب لرسول الله (ص) وتوضع في بيته » . قال محمد ابن اسحق في الفهرست : « وكان القرآن مكتوباً بين يدي رسول الله في اللخاف والعسب وأكتاف الابل » . وروى البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال : « تتبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعسب وصدور الرجال » .

روى العياشي في تفسيره في ذيل رواية له : قال علي عليه السلام : ان رسول الله أوصاني إذا واريته في حفرته الا أخرج من بيتي حتى أؤلف كتاب الله . فإنه في جرائد النخل وفي أكتاف الإبل » .

---

١ — ص ٢٢ .

وفي رواية علي بن إبراهيم عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد قال : إن رسول الله قال لعلي : (يا علي إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس . فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة) وانطلق علي عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه[1] .

هذه هي جملة الروايات التي تتحدث عن صلة رسول الله بتدوين القرآن وكلها كما نرى لم تتعرض للتدوين في الفترة المكية ، والراجح أنها كلها تشير إلى الفترة المدنية من حياة النبي للأسباب التي ذكرناها .

ثم إننا نرى خلافاً واضحاً بين هذه الروايات . فنها من ينكر أن القرآن جمع في عهد النبي . ومنها من يقول أن القرآن كان في صحائف وراء فراش النبي . ومنها ما يمعن في التفاصيل فيقول أن هذه الصحائف جمعت في خيط أو أن علي بن أبي طالب حزمها في ثوب أصفر ! !

والذي نراه أن النبي عليه السلام كان يبيح للمسلمين كتابة القرآن لمن يستطيع منهم الكتابة ، وأنه كان يأمر كتابه بتدوينه ، ولكن التدوين لم يكن وفق نظام مقرر بحيث يطمأن إلى أن النبي خلف القرآن كله مدوناً مرتب السور مجموعاً . وسنرى فيما بعد أن القرآن الذي نزل رفع بعضه بالنسخ ، وقد أشارت روايات مما ذكرنا إلى هذه النقطة ، فقالت إن القرآن لم يجمع لما كان النبي يترقب من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته .

وينبغي هنا أن نفرق بين التدوين وبين الجمع : فأما التدوين

---

١ – الأستاذ عبد الله الزنجاني من كبار مجتهدي الشيعة المحدثين ونراه هنا يورد روايات من مصادر شيعية .

فهو التسجيل دون اتباع نظام ثابت . وأما الجمع فهو تأليف مصحف وترتيبه .

ولنقل كلمة عن الصحابة الذين عنوا بتدوين المصحف . فقد وردت روايات كثيرة منها رواية الفهرست التي تقول إن الذين جمعوا القرآن في عهد النبي وأكملوه بعده هم : علي بن أبي طالب ، وسعد ابن عبيد ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي ابن كعب ، وعبيد بن معاوية ، ومن أسماء الفهرست أبو زيد ثابت ابن زيد (وهذان الأخيران غير معروفين على وجه التحقيق ، ووردت عنهما احتمالات في أسد الغابة) .

وفي البخاري أن جماع المصحف على عهد النبي أربعة : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد .

ويزيد الإتقان على هؤلاء ، ويبدل غيره في الأسماء ، ولا تكاد الروايات تتفق على واحد منهم .

وسنرى عندما نتكلم عن الجهود التي بذلها زيد بن ثابت لجمع المصحف أن هذه الروايات عن مصاحف كاملة وجدت في عهد النبي لا تستقيم مع منطق التاريخ . فلو أنها كانت كذلك إذن لتناسخها المسلمون ، ولما اضطرب عمر بن الخطاب هذا الاضطراب الشديد عندما سمع بمصرع حفاظ القرآن في حروب الردة ... حسب الروايات الذائعة عن جمع القرآن والتي سنناقشها بعد .

وما نقول هنا عن تدوين الصحابة للقرآن ، هو ما قلناه عن صلة رسول الله بالتدوين ، وهو أنه كان مجرد تسجيل لسور وآيات ،يمكن استخلاص مصحف منها إذا راعينا الناسخ والمنسوخ .

— ٢ —

النَاسِخ وَالمنسُوخ

نسخ في القاموس كمنع بمعنى أزال وغير وأبطل وأقام شيئاً مقام شيء وهذا غير نسخ الكتاب أي نقله .

والنسخ في اصطلاح الفقهاء يطلق على معنيين[1] .

الأول ـ إبطال الحكم المستفاد من نص سابق بنص لاحق ؛ ومثاله ما ورد في حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، ألا فزوروها » فالنص الأول يطلب الكف عن الزيارة ، والنص الثاني يرفع ذلك النهي ويحل محله الإباحة والطلب .

الثاني ـ رفع عموم نص سابق ، أو تقييد مطلقه . ومثاله قوله تعالى في سورة البقرة : « وَالمطلقاتُ يَترَبَّصْنَ بِأنفسِهِنَّ ثلاثةَ قُرُوءٍ » ثم قال في سورة الأحزاب : « إذَا نكحتُم المؤمِناتِ ثُمَّ طَلَّقتمُوهُنَّ مِن قَبلِ أنْ تمسُّوهنَّ فما لكُم عَليهنَّ مِن عدَّةٍ تَعتَدُّونَها » فإن النص الأول عام ينتظم المدخول بها وغيرها . والنص الثاني يعطي غير المدخول بها حكماً خاصاً بها :

وكذلك قوله تعالى في سورة النور : « وَالذِينَ يَرمُونَ المحصَنَاتِ

---

١ – تاريخ التشريع ص ٢٣ .

ثمَّ لمْ يَأْتوا بِأَربَعَةِ شُهداء فَاجلدُوهُم ثمانِينَ جَلدةً » ثم قال عقب ذلك

« وَالَّذِينَ يَرمُون أزوَاجَهم وَلم يَكن لَهم شُهداءُ إلا أنفسُهُم فَشهادَةُ أَحَدِهم أرْبَعُ شَهاداتٍ بالله إنه لَمِنَ الصَّادِقِينَ » .

فإن النص الأول عام ينتظم جميع القاذفين ، أزواجاً كانوا أم غير أزواج والنص الثاني جعل للأزواج حكماً خاصاً بهم حيث جعل إيمانهم الخمس قائمة مقام الشهداء الأربعة ،وجعل للمرأة حق الخلاص من حد الزنا بأيمانها الخمس .

ومثال تقييد المطلق قوله تعالى في سورة الأحزاب : « حُرِّمت عَليكُم الميتةُ والدَّمُ » وقال في آية أخرى في سورة الأنعام : « قُل لا أجِدُ فِيما أوحِيَ إليَّ مُحرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطعمُهُ إلا أنْ يَكُون مَيتةً أو دَماً مَسفُوحاً » .

فالنص الأول مطلق للدم المحرم ، والثاني مقيد له بالدم المسفوح . أ هـ

* * *

ولقد خاض المؤلفون كثيراً في هذه الآيات والسور التي كانت من القرآن ثم لم تصبح قرآناً ، حتى قال السيوطي بحق عن الناسخ والمنسوخ : « أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون » .

وسبب اهتمام القدماء بهذا الفرع من علوم القرآن أنه يساعد المشرعين مساعدة مباشرة على تفهم الأحكام التي يعمل بها من القرآن ، والأحكام التي لا يعمل بها . وسبب اهتمام غيرهم من العلماء هو البحث في تطور الدعوة الإسلامية أيام النبي عليه السلام ، والبحث في الأدوار التي مر بها التنزيل حتى انتهى إلى المصحف الذي بين أيدينا الآن .

ففي الإتقان : « قال الأئمة : لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ . وقد قال علي بن أبي طالب

لقاضٍ من القضاة : أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال لا . قال هلكت ، وأهلكت » .

ووضعت قواعد للنسخ ، هي من غير شك مجرد اجتهاد من الباحثين في علوم القرآن ، إذ أنه لم يرد في القرآن أو الحديث الثابت ذكر قواعد صريحة لهذه المسألة الهامة .

وما قاله العلماء في النسخ :

أولاً — لا ينسخ القرآن إلا بقرآن استناداً على آية النسخ .

ثانيا — وقيل : بل ينسخ القرآن بالسنة لأنها أيضاً من عند الله ..

قال تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى » .

ثالثا — وقيل : إذا كانت السنة بأمر الله من طريق الوحي نسخت .

وإذا كانت باجتهاد من النبي لا الوحي فيه ، فلا تنسخ القرآن .

رابعا — وذكر الامام الشافعي أنه حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن مؤيد لها ، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمع القرآن سنة مؤيدة له ، ليتبين توافق هذين المصدرين الرئيسين من مصادر التشريع الإسلامي . .

* * *

ومعروف بداهة أن النسخ لا يقع إلا في أمر يجب اتباعه ، أو طلب أو خبر يجري مجرى الطلب . فأما الوعد والوعيد والقصص وغيره فلا نسخ فيه .

وأحصيت سور المصحف التي قيل أن فيها ناسخاً ومنسوخا فكانت كلها من السور المدنية .

ويمكن القول إن السور التي لم يحدث تعديل في أحكامها هي السورة المكية . وأما السور التي تضمنت أحكام التشريع فهي التي حدث فيها النسخ . وسنرى من الأمثلة ما يمكن أن يكون نسخاً ، وما لا يجوز أن يكون .

• • •

وقد اتسع مجال الخلاف بين القدماء في الآيات التي لا تزال في المصحف وأبطل العمل بأحكامها أو عدلت الأحكام .

وذكر في سبب بقاء الآيات الكثيرة التي اتفق على نسخ أحكامها والتي اختلف عليها : « إن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه ؛ فتركت التلاوة لهذه الحكمة . ولما كان النسخ غالباً للتخفيف فقد أبقيت التلاوة تذكيراً للنعمة ورفع المشقة » .

وهذا الكلام لا يصلح سبباً قوياً لما ذكر من أجله .

ولنذكر الآن مقتبسات مما ورد على أنه ناسخ ومنسوخ .

ورد النسخ بمعناه الأصولي في ثلاث من آيات القرآن الكريم هي :

١ — « مَا نَنْسَخْ مِن آيةٍ ، أو نُنسِها ، نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها » .
(البقرة — ١٠)

٢ — « يمحو الله ما يشاءُ ويُثبِتُ ، وعنده أمُّ الكتاب »
(الرعد — ٣٩)

٣ — « وإذا بدلنا آيةً مكانَ آيةٍ ، والله أعلمُ بما يُنَزِّلُ ، قالوا إنما أنت مُفترٍ ، بل أكثرُهم لا يعلمونَ » . (النحل — ١٠١)

وقد ورد موضوع النسخ بصفة عامة في ثلاث آيات وهي :

١ — « وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبي ، إلا إذا تمنى أَلْقَى الشيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ ، فينسَخُ الله مَا يُلقي الشيطانُ ، ثم يُحكمُ الله آياتِه ، والله عليمٌ حكيمٌ » . (الحج ـ ٥٢)

٢ — « هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحقِّ ، إنا كنا نَستَنْسِخُ ما كنتم تعلمون » . (الجاثية ـ ٢٩)

٣ — « ولما سكتَ عَن موسى الغضبُ ، أخَذَ الألواحَ وفي نُسختَها هُدىً ورحمةٌ للذين هم لِربِّهم يَرْهبونَ » . (الأعراف ـ ١٥٤)

وفي الآيات الثلاث الاولى ، نص على أن النسخ ، والمحو والاثبات ، والتبديل مما حدث أيام رسول الله عليه السلام .

أما الايات الثلاثة الأخرى ، فإنا نجد كلمة النسخ في سورة الأعراف تعني ما كان مكتوباً في ألواح موسى . أما سورة الحج فقد وردت الكلمة بمعنى الإزالة من القلوب ، بإنزال ما يبطله . في حين أن النسخ في سورة الجاثية يعني الكتابة والإثبات .

وقد نقلت رسالة « النسخ في القرآن الكريم »[١] عدة أمثلة وردت في المراجع القديمة توضح ما عناه المفسرون والأصوليون بهذا الموضوع ، منها ما رواه البخاري في تفسير قوله تعالى : « وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله . فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير » ... روى ابن عمر أن هذه الآية نسخت ، والآية

---

١ — موضوع رسالة الدكتوراه للدكتور مصطفى زيد أستاذ الشريعة المساعد بكلية دار العلوم . وهذه الرسالة تعد أحدث وأقوم ما كتب في الناسخ والمنسوخ .. وقد صدرت في نحو ألف صفحة عن دار الفكر العربي .

الناسخة هي قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت » .

وإذا تأملنا في معنى الآيتين ، ومدلول كل منهما ، نجد كلاً منهما تناولت معنى ، غير صاحبتها .. إن كل ما نظر إليه القدماء هو صاحب الرواية ، والمرجع الذي اعتمدها ، دون رعاية للنص نفسه .

ومن هذه الأمثلة أيضاً ، ما رواه البخاري في تفسير قوله تعالى : « استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم » (التوبة ـ ٨٠) فقد نسختها آية « ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » (التوبة ـ ٩)

وسبب نزول الآيتين ، أن رسول الله أعطى قميصه كي يكفن به عبد الله بن أبي ، وصلى عليه عند دفنه . فقد اعترض عمر بن الخطاب على هذه الصلاة لأن ابن أبي كان على رأس المنافقين ، وسبق أن طالب بقتله ، فرفض رسول الله حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

وأيضاً اذا رجعنا إلى نص الآيتين ، فلا نجد ناسخاً ، ولا منسوخاً . وإنما وافق القرآن الكريم رأي عمر بن الخطاب .

ومثل ثالث ، مروي عن ابن عباس ، أن آية « ومن كان يريدُ حَرثَ الدنيا نؤته منها وما له في الآخرةِ من نصيب » (الشورى ـ ٢٠) نسختها آية « من كان يريد العاجلةَ ، عجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريدُ ، ثم جعلنا له جهنمَ يصلاها مذموماً مدحورا » (الإسراء ـ ١٨) .

ومرة أخرى لا نرى تعارضاً ، ولا ناسخاً ولا منسوخاً في كل من الآيتين .

وهكذا تمضي الأمثلة حتى نصل إلى ثلاث آيات هي :

١ ـ « إن الذين يُلحِدون في آياتنا ، لا يَخفَون علينا ، أفمن يُلقى في النارِ خيرٌ ، أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » (فصلت ـ ٤٠) .

٢ ـ « إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم » (التكوير ٢٧ و ٢٨)

فآيات المشيئة هنا ، يقولون أنها نسخت بآية المشيئة التالية الواردة في سورة التكوير ، وبعد الآية السابقة مباشرة ونصها :

٣ ـ « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين » (التكوير ـ ٢٩)

والرواية هنا عن عبد الملك بن حبيب :

ومرة أخرى ، لا نرى في التأمل في النصوص الثلاثة تعارضاً . حتى توضع هذه الأمثلة في باب النسخ . ويرى الأصوليون أن الآيات الثلاث ، انما جاءت في معرض الوعيد والتهديد ، وهو معنى لا يقبل النسخ ، إذ ليس فيه حكم تكليفي ، وفي نسخه تكذيب للمتوعد ، تعالى الله أن يوصف بالكذب[1]

* * *

ولكن للإمام الشافعي رضي الله عنه رأياً حكيماً في هذا الموضوع ، إذ يقول في الرسالة : وليس ينسخ فرض أبداً ، إلا أثبت مكانه فرض ، كما نسخت قبلة بيت المقدس ، فأثبت مكانها الكعبة .

ولكن ضرب الشافعي مثلاً لما رآه في نسخ القرآن بالقرآن .. قال :

قال تعالى : « يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال . إنْ يكن منكم عشرون صابرون ، يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا

---

١ ـ المصدر السابق ص ٢، ٧ .

ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال . ٦٥) .

وفي الآية التالية مباشرة من سورة الأنفال قوله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فان يكن منكم مائة صابرة ، يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله ، والله مع الصابرين » (الأنفال ـ ٦٦) .

واضح أن الاثنين لا تتضمنان حكماً من الأحكام .. وحتى تتبين الأمر ، نذكر أن سورة الأنفال نزلت بعد غزوة بدر ، ورسول الله في الطريق من مكان المعركة إلى المدينة المنورة (إلا الآيات من ٣٠ إلى ٣٦) ، وقد تناولت السورة المعركة ، كيف حدث التمهيد لها ، والتفاصيل التي صحبتها .

وعندما وصل المفسرون إلى هاتين الآيتين ، كادوا يجمعون على أن الثانية نسخت الأولى في موضوع العدد ، فقد أوجبت في الأولى أن يثبت واحد من المؤمنين لعشرة من المشركين . ثم ما لبث الوحي أن نزل في الآية التالية بالتخفيف فأوجب أن يثبت واحد من المؤمنين لاثنين فقط من الكافرين .

نقل ابن إسحق[1] ،عن ابن عباس ؛ لما نزلت هذه الآية اشتد على المسلمين ،وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ، ومائة ألفاً ، فخفف الله عنهم . فنسختها الآية الأخرى . فقال : « الآن خفف الله عنكم ... » إلى آخر الآية .. فكانوا إذا كانوا على الشطر من عددهم ، لم ينبغ لهم أن يفروا منهم ، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم ، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم .

---

١ ـ سيرة ابن هشام ص ٤٩٨ .

وذهب الطبري[1] في تفسيره ، أنه وان تكن الآية مخرجة مخرج الخبر ، فإن معناها الأمر . يدل على ذلك قوله ، الآن خفف الله عنكم . فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل ، وفيما نقله الطبري من مصادره أن الآية الثانية نسخت الأولى في موضوع العدد .

ومن روايات الطبري أيضاً ، ما أورده عن ابن عباس ، بأن الله تعالى أراد من الآية الأولى أن يوطن المؤمنون أنفسهم على الغزو ، وأن الله ناصرهم على العدو ولم يكن أمراً عزمه الله عليهم ، ولا أوجبه . ولكن كان تحريضا ووصية أمر الله بها نبيه . ثم خفف عنهم . ليعلم المؤمنون أن الله بهم رحيم ، فتوكلوا على الله واصبروا

واستطرد ابن عباس ـ وهنا بيت القصيد ـ ولو كان (موضوع العدد والنسبة) عليهم واجباً ، كفروا إذن كل رجل من المسلمين نكل عمن لقي من الكفار ، إذا كانوا أكثر منهم فلم يقاتلوهم . فلا يتركن رجالا يقولون : إنه لا يصلح لرجل من المسلمين ، أن يقاتل حتى يكون على كل رجل رجلان . وحتى يكون على كل رجلين أربعة ، ثم بحساب ذلك . وزعموا أنهم يعصون الله ، إن قاتلوا حتى يبلغوا عدة ذلك !

ولقد تخيلنا ، ونحن نراجع هذه التفاسير والأقوال ، موقفاً كهذا أمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فإنه ما كان يصلح له إلا درته الشهيرة ينزل بها على أبدان هؤلاء المتعمقين في غير حاجة إلى عمق ، حتى ليصل بعضهم إلى أن القتال لا يجوز إلا إذا اجتمع لكل عدد من المسلمين مثلي عددهم !

إن قراءة الآيات ، وتصور الموقف في وقعة بدر ، يعطينا التفسير السليم الأمين للآيتين ، دون الالتجاء إلى أحكام الناسخ والمنسوخ ...

---

١ ـ ص ٦٠ ج ١٤ طبعة المعارف .

فقد عرضت سورة الأنفال للمسلمين عددا ، وقدرة على القتال ، فقالت : « إذ يُريكَهُم الله في منامك قليلاً ، وَلَوْ أراكَهُم كثيراً ، لفَشَلتُم ، ولتنازعتُم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور »

وهذه الآية تشير إلى أن الله سبحانه أدخل في روع رسوله أن العدد هين أمره قليل عدده ، وأن في الوسع التغلب عليه . ولو أن كثرة العدو ــ كثرة ساحقة ــ استقرت في نفوس آل بدر لحدث خلاف كبير .

ونحن نعلم في تقدير القليل والكثير ، أن رسول الله استطاع باستجواب احد الأسرى ، أن يعلم عدد الأعداء على وجه دقيق ، وظهر له بوضوح أن أمام كل واحد من جنوده ، ثلاثة من كفار قريش . وادرك عليه السلام ، أنه بفضل الله ، وبثبات أصحابه ، سوف يتغلب على جموع الشرك التي جاءت تحاد الله ورسوله . ولقد شاور عليه السلام أصحابه ، فكلهم أجمع على المضي في المعركة ، وعلى إدراك النصر .

ويمضي القرآن ــ في وصف الحالة النفسية للفريقين فيقول :

« وإذْ يريكمُوهُمْ ، إذ التقيتُمْ ، في أعينكُمْ قليلا ، ويُقللكمُ في أعينهم ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » ، (الأنفال ــ ٤٤)

ويصدر القرآن حكماً عاماً في الآية التالية :

« يا أيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفْلِحُونَ » الأنفال ــ ٤٥ .

وفي أول هذه السور ، يتحدث القرآن الكريم عن المدد المعنوي ، والروحي الذي أسبغه الله على مقاتلي بدر من المؤمنين الأبطال .. قال تعالى :

« وإذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أني مُمِدُّكُم بألف من الملائكة مُردفين ، وما جعله اللهُ إلا بشرى ، ولتطمئنَّ به قلوبكم . وما النصر إلا من عند الله . ان الله عزيز حكيم » الأنفال ٩ ـ ١٠

وكان دور الملائكة هو تثبيت قلوب المؤمنين :

« إذْ يُوحِي ربُّك إلى الملائِكَةِ أني مَعكُم ، فثبتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سأُلقِي في قُلُوبِ الَّذِينَ كَفرُوا الرعبِ ، فَاضرُبُوا فَوقَ الأعْنَاقِ وَاضرِبُوا مِنهمْ كُلَّ بَنانٍ » . (الأنفال ـ ١٢)

وهكذا نجد الحديث كله يدور عن القلة المؤمنة ، لا عن الأعداد المحددة .. وإن ماورد في الآيات إنما يؤخذ على معناه العام قلة قليلة وكثرة كثيرة ، كأنها واحد لعشرة .. ثم قلة وكثرة كأنها واحد لاثنين . وإنما الأرقام من قبيل التمثيل لا التحديد ..

يشبه ذلك هؤلاء الأبطال الأربعة الذين بعث بهم عمر بن الخطاب يمد بهم جيش الفتح في مصر ، ويقول إن كل واحد منهم بألف .

ويشبه ذلك جيش المسلمين في حنين ، وكان يزيد على عشرة آلاف ، وقد انهزم في أول المعركة لا من كثرة العدو ، ولكن من فرط اعتداده بقوته . فلما ثبتت فئة قليلة جدا من الصحابة يعدون بالعشرات أمام جيش المشركين وكان بضعة آلاف ، حولوا الهزيمة إلى نصر مبين .. وقل مثل ذلك عن جيش اليرموك أمام جيوش الرومان الجرارة ...

الأمر ـ كما نعتقد ـ ليس أمر أعداد ، فتؤخذ آيتا الأنفال على أنها ناسخ ومنسوخ . ولكنها تشير إلى ما حدث من نصر كان يحتاج إلى شجاعة فائقة ، وإن في وسع المسلمين بعد ذلك أن يطمئنوا إلى أن أعدادهم سوف تزيد وإلى أن هذا العبء الضخم الذي احتملته القلة في بدر لن يتكرر بإذن الله .

من هذا المثل وما سبقه لا نرى بنا حاجة إلى الوقوف طويلاً ـ كما صنع القدماء ـ في موضوع النسخ . ونحن مع صاحب رسالة « النسخ في القرآن الكريم » ، عندما قدم بين يدي بحثه قوله : كنت مشغولاً بتفسير سورة الأنفال ... فإذا في سورة الأنفال ست من دعاوى النسخ ، على ست من آياتها التي لا تتجاوز خمساً وسبعين . وهالني الأمر . فلما فسرت تلك الآيات ، وفهمت حقيقة ما أريد بها ، تبينت أن خمساً من الدعـاوى الست متهافتة واهيـة ، لا تقوم على أساس من المنقول أو المعقول . وإن الآيات الناسخة لها في زعمهم لا تعارضها إطلاقاً »[1]

* * *

وما يدور حوله موضوع النسخ ، ينحصر في روايات عن آيتين قيل إنهما تتضمنان حكماً خاصا بالرجم في حالة من حالات الزنا ، وحكماً آخر خاصاً بالرضاعة .

وتنسب الرواية الأولى لعمر بن الخطاب وهي : الشيخ والشيخة ، فارجموهما البتة ، بما قضيا من اللذة .

أما آية الرضاع ، فقد ذكر عن عائشة أنها قالت : « أن القرآن جاء في الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخن بخمس معلومات . فالعشر مرفوعة التلاوة والحكم جميعاً ، والخمس مرفوعة التلاوة وباقية الحكم »

---

١ ـ عرض الدكتور محمود مصطفى زيد في رسالته للنسخ في أحاديث رسول الله وضرب مثلاً بالحديث : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث ، فامسكوا ما بدا لكم منها . ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها ، ولا تشربوا مسكراً » ص ١٢٦ جـ ١ وقد أشرنا إلى هذا الحديث في أوائل هذا الفصل .

وقد ذكر أن عمر كان شديد الاحتفال بحكم الرجم حتى أنه قال : (لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها) .

وروي أيضاً : أنه لما نزلت آية الرجم ذهب عمر إلى رسول الله واستأذنه في كتابتها ، فكره رسول الله ذلك . ويرى السيوطي أن سبب عدم إثبات هذه الآية هو التخفيف على الأمة بعدم اشتهار تلاوتها وكتابتها في المصحف ، وإن كان حكمها با قياً ، لأنه أثقل الأحكام وأشدها ، وأغلظ الحدود .

ويظهر أن الناس في عهد عمر بن الخطاب تباحثت في حكم الرجم فصعد عمر بن الخطاب إلى المنبر وقال : (لا تشكوا في الرجم فإنه حق ، وقد هممت أن أكتبه في المصحف فسألت أبيّ بن كعب فقال : أليس أتيتني وأنا أستقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفعت في صدري وقلت تستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحمر ؟) .

وفيما عدا هذين الحكمين لا يصح التعويل على رواية من الروايات في هذا الشأن . وقد أحصت رسالة النسخ في القرآن ٢٨٠ (مائتين وثمانين) دعوى من دعاوى النسخ ، لم يقم لدى صاحبها دليل على صحة هذا النسخ . اللهم إلا توسع القدماء في التفسير والتأويل دون ما حاجة إلى ذلك .

* * *

وقارىء سيرة النبي عليه السلام يعلم أنه كان شديد الحرص على بيان وجهة نظره في كل أمر من الأمور ، وعلى أن يكون صحابته من حوله ـ وهم حملة رسالته من بعده ـ فاهمين كل الفهم لتصرفاته ، لأن هذا الفهم أساس من أسس الثقة الكاملة به .

ولعل محمداً عليه السلام هو أول نبي ، بل أول صاحب دعوة ،

كائنة ما كانت يعمد إلى هذه الأناة الطويلة ، لا في افهام وجهة نظره ، ولكن في تفهم وجهات نظر الآخرين ، وكثيراً ما رأيناه يباحث في رأي قال به ، ثم يأخذ بما قالوا ويعدل عن رأيه ، أو يأخذون بما قال ويعدلون عن رأيهم .

وقد قرأت في هذا الصدد بحثاً نفيساً للشيخ عبد الرحمن الجزيري وموضوعه «كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة في الأحكام الشرعية» . وقد عرض فيه لطريقة النبي وأصحابه في تفهم المسائل وإبداء الرأي فيها . وهذا البحث يؤيد ما قلناه ، وهو أن جو (السلام) الفكري كان يسود المدينة في حياة النبي ولو أن موضوع الناسخ والمنسوخ كان مما يثير جدلا ، إذن لتردد صداه وإذن لاختلف فيه المسلمون بعد النبي خلافاً واضحاً قوياً ، واذن لخطأ بعضهم بعضاً في أهم أساس من أسس الإسلام وهو القرآن ... ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، مما يدل على الاطمئنان الكامل إلى أن القرآن الذي تركه رسول الله ، هو القرآن الذي أمره ربه بتركه للناس لا يزيد ولا ينقص .

ويحسن أن نقتبس هنا سطوراً من بحث الشيخ الجزيري الذي أشرنا إليه تأييداً لما قلنا . وهو أن ما يوهمه ظاهر البحث في موضوع الناسخ والمنسوخ من وجود خلاف لم يكن له ظل أو صدى في حياة رسول الله . كما لم يكن لغيره من المباحث تأثير يعكر هذا السلام الفكري الذي ذكرناه . قال الشيخ :

« ... هذا هو اجتهاد الرسول وأصحابه . فهل رأيتهم اختلفوا في اصل من أصول الدين ، أو في عقيدة من العقائد أو في نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ وهل رأيتهم ينتحون في اختلافاتهم دليلاً واهناً أو معنى بعيداً كي يصلوا بذلك إلى غرض شخصي أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيت أحداً منهم يتعصب لرأي

أو يحاول الظهور بين الناس بالعلم والذكاء والقدرة على افحام مناظره ؟ أو هل رأيت أحداً منهم يضحي في اجتهاده بالمصلحة العامة طمعاً في الحصول على مصلحة خاصة ... أو رأيتهم جميعاً في اجتهادهم ، على العكس من ذلك ، لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التي يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم فلا يبغون بها بديلاً ولو قطعت رقابهم وزهقت نفوسهم[1] ؟

« نعم . إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لمن يتأمل . فكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم ، وساروا في طريقهم واتبعوا آثارهم فلم يخرجوا عنها قيد شعرة .. » .

---

١ — ص ٦٢٧ إلى ٦٨٨ من مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن .

- ٣ -

القرآن في عهد أبي بكر وعمر

ما ذكرنا من بحث حتى الآن يدور حول القرآن في حياة رسول الله .. فلما توفاه الله ، بدأ التفكير في جمع المصحف .

تقول الرواية الذائعة عن جمع المصحف : إن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة . فقال : لنا الله . وأمر بجمع القرآن ..

وفي البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال :

ـ أرسل إليّ أبو بكر (عقب) مقتل أهل اليمامة . فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر :

ـ إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

فقال زيد لعمر :

ـ كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله ؟

قال عمر :

ـ هذا والله خير :

فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت الخير في الذي رأى عمر .

قال أبو بكر :

ـ إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه .

قال زيد :

ـ فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ... قال :

ـ فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره : « لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أنفسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ » إلى آخر براءة .

هذه أشهر رواية في كتب الحديث . وتزيد في بعضها وتنقص في بعض آخر ولكن جوهرها واحد .

ولنرجع إلى كتب التاريخ لنرى قصة أهل اليمامة ، وما قالته عن صلتها بجمع القرآن .

يقول ابن الأثير بعد أن انتهى من ذكر ما كان بين خالد وجيش مسيلمة : وقد قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلاثمائة وستون . ومن المهاجرين من غير المدينة ثلاثمائة رجل . وقتل ثابت بن قيس ... قطع رجل من المشركين رجله ، فأخذها ثابت وضربه بها فقتله ... وقتل من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبالحديقة مثلها وفي الطلب نحو منها ... ولما رجع الناس قال عمر لابنه عبد الله وكان معهم : ألا هلكت قبل زيد[1] هلك زيد وأنت حي الا واريت وجهك عني ؟

---

[1] ــ الظاهر أنه زيد بن الخطاب . فقد ذكر الواقدي أن زيد بن الخطاب كان يحمل ــ

فقال عبد الله : سأل الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت في أن تساق إلي فلم أعطها ... وفي هذه السنة بعد واقعة اليمامة أمر أبو بكر بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قتل من الصحابة لئلا يذهب القرآن » .

ثم ذكر ابن الأثير بعض أسماء القتلى ومنهم عباد بن الحارث الانصاري (شهد أحداً) وعمير بن أوس الأنصاري (شهد أحداً أيضاً) وعامر بن ثابت الأنصاري وعمارة بن حزم الانصاري (شهدا بدرا) وعلي بن عبيد الله بن الحارث ومرة بن النعمان الأنصاري وسعد بن حجاز الأنصاري (شهد أحداً) وسلمة بن مسعود الأنصاري والسائب ابن عثمان بن مظعون (هاجر إلى الحبشة وشهد بدراً) والسائب بن الزبير أخو الزبير والطفيل بن عمر السلمي (شهد خيبر) وعبد الله بن عبد الله ابن أبي بن السلول وعبد الله بن عتيك وهريم بن عبد الله المطلبي القرشي وأخوه جنادة والوليد بن عبد شمس ابن عم خالد بن الوليد ويزيد بن ثابت أخو زيد بن ثابت .

والسبب في ذكرنا لهذه الطائفة من الأسماء أننا سنعود اليها لنرى هل كان حقيقة مقتل هؤلاء ـ وهم أشهر صرعى حروب الردة ـ يؤثر في عدد حفاظ القرآن حتى تصح لدينا الرواية الشائعة عن أن مقتلهم كان سبباً مباشراً في جمع القرآن .

وفي كتاب « خالد بن الوليد » لطه (باشا) الهاشمي [1]

أما خسائر المسلمين فكانت كثيرة بالنسبة إلى عددهم ، أو مقدار

= راية المسلمين ، فلما رأى أصحابه يتصرفون صاح بهم : « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتي . عضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قدما » . ولم يزل كذلك حتى قتل .

١ ــ ص ١٦٢ .

الخسائر التي كابدوها في المعارك السابقة .

فالروايات عن عدد القتلى المسلمين مختلفة . فهي متفاوتة بين ٥٠٠ و ١٧٠٠ ؛ ويروي عيسى بن سهل عن جده رافع أن قتلى المسلمين بلغ عددهم نصف قتلى الحنفيين (جيش مسيلمة) وأن الأنصار وحدهم (وكان عددهم خمسمائة مقاتل) خسروا سبعين قتيلاً ومائتي جريح أما أبو سعيد الخدري فيروي أن عدد قتلى الأنصار بلغ سبعين . ويقول زيد بن طلحة أن قتلى المهاجرين بلغوا السبعين قتيلاً وقتلى الأنصار بلغوا السبعين أيضاً وأن مجموع قتلى باقي المسلمين بلغ الخمسمائة .

أما سالم بن عبد الله بن عمر فيذكر أن مجموع قتلى المسلمين بلغ الستمائة .

وأما البلاذري فيقول وقد اختلفوا في عدة من استشهد في اليمامة : فأقل ما ذكروه عن مبلغها سبعمائة . وقال بعضهم إن عدتهم ألف ومائتان . والذي يلوح لنا أن هذا العدد الأخير هو الأصح ، وهو يؤيد الرواية التي يرويها الطبري نقلاً عن سهل إذ يقول « قتل من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون ومن المهاجرين من أهل المدينة والتابعين بإحسان ثلاثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء ... ستمائة أو يزيدون » .

ثم قال طه باشا الهاشمي :

« وذكر المؤرخون أسماء من المهاجرين والأنصار ، ونظموا قائمات بذلك . ويتضح من مطالعتها أن بين القتلى زيد بن الخطاب قائد القلب ، وأبا حذيفة بن عتبة قائد الميمنة ، وشجاع بن وهب قائد الميسرة ، وقيس ابن ثابت قائد الأنصار . ويدل كل ذلك على شدة القتال في المعركة » أهـ.

ـ وقد سقنا المعلومات التي لدينا على هذا النحو لنحاول جلاء نقطتين

غامضتين أولهما ـ أن سبب جمع المصحف ـ كما تذكر الروايات ـ أن عمر سأل عن آية فقيل هي عند فلان الذي قتل باليمامة .

ثانيهما ـ أن في رواية زيد بن ثابت التي ذكرها البخاري شيئاً من الغموض فبعد أن ذكر أن عمر أقنعه بضرورة جمع القرآن لأن (القتل استحر في المواطن) قال إن أبا بكر طلب منه الطلب نفسه ، وكان حاضراً في هذا الاجتماع ، وان زيداً أبى عليه ، فما زال به حتى أقنعه .

والذي يبدو لنا أن موت القراء في حروب الردة ليس هو السبب المباشر في إشارة عمر بجمع القرآن . لأننا لو أخذنا بهذا النص الغامض الذي يقول إن عمر سأل عن آية فلم يجدها لأن حاملها قتل ، فاننا نسلم أنفسنا إلى مشاكل أشد تعقيداً منها مثلا : هل يجوز أن نوافق على أن آيات القرآن كانت مفرقة على هذا النحو في صدور الرجال ، بحيث لا تكون آية من الآيات في ذاكرة أحد إلا هذا الجندي الذي مات في حرب الردة ؟ ! وأين هذه الصحف التي قيل إنها كانت تكتب بإشراف رسول الله ؟ وأين هؤلاء الصحابة الذين كانوا لا يزالون في المدينة ، وهم زعماء الإسلام ورؤوس الدعوة المحمدية بعد رسول الله . وكيف تفوتهم هذه الآية وغيرها ؟ ! نحن بين أمرين : إما أن نسلم بأن القرآن لم يكن في صدور الرجال وفي الصحف على نحو دقيق يبعث على الاطمئنان بحيث تجوز هذه الرواية ، وهذا عسير كل العسر .. وأما أن نسلم بأن هذه الرواية وما سار في طريقها ـ وهو كثير ـ غير صحيح أو على الأقل غير دقيق .

ويؤيد هذا الذي ذكرناه من اضطراب الروايات عن تاريخ القرآن ، ووجوب أخذها بشيء غير قليل من الاحتياط ، ما لاحظناه في رواية زيد بن ثابت من التدافع الذي يبدو من النظرة الأولى .

وقد أشرنا إشارة سريعة ، ونحن نورد رواية ابن الأثير إلى أن من

الواجب أن نمعن النظر كثيراً في هذه الأسماء التي تذكر عن قتلى حروب الردة ، والتي ذكر طه باشا الهاشمي أن المؤرخين تفننوا في إحصائها وعرضها واختلفت الروايات اختلافاً كبيراً في عدد القتلى .. إننا نلمح في هذه الأسماء ـ بقدر ما تدل عليه معلوماتنا عن الصحابة ، وما تذكر الكتب التي عنيت بأخبارهم ، مثل أسد الغابة من يصبح أن نقول أن فقده يوجد خللاً في البناء العقلي للمدينة .. فلا يزال أئمة الصحابة بخير ، ولا يزال الكتاب والحفاظ ، ولا يزال الصحابة الذين كانوا يلازمون النبي ملازمة متصلة ، أحياء حتى نهاية حرب الردة ..

ولقد وقفت دائرة المعارف الإسلامية حائرة أمام هذه النقطة ، فهي لا ترى أن جند خالد فقدوا في حرب الردة من أصحاب الأسماء اللامعة في تاريخ السيرة النبوية . ونحن مع الدائرة في أن حيرتها تستند إلى أساس قوي .

ماذا إذن ؟ .. وما هو وجه الصواب ؟

نحسب أن الأمر ليس عسيراً كل العسر . والذي نرجحه أن أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة خشوا ، وقد اندفع المسلمون في حروب الردة ثم في حروب الفتح ، أن يهمل أمر القرآن ، وهو معجزة محمد الكبرى ، ودعامة الإسلام الأولى فاتفقوا على جمعه من هذه الصحائف المتفرقة ، التي كان يكتبها عارفو الكتابة من الصحابة ، ومن صدور الناس . فكتب القرآن ، أو على الأصح نقل ما كان مكتوباً وأكمل بما كان محفوظاً في صدور الرجال .

وقد ذكرنا قبل أن من الروايات ما يقول أن هناك مصاحف كانت موجودة في أيام النبي ، بعضها تم في عهده وبعضها أكمل بعده . ونعقب هنا على هذه الروايات بقولنا أنها لا تثبت للنقد الدقيق ، فلو أنها كانت موجودة إذن لما وجد أبو بكر عناء في الأمر بتدوين المصحف

ولا كتفى بمراجعة مصحف من المصاحف الموجودة واعتماده .. ثم إن أبا بكر لم يكن يقصد جمع مصحف وإنما قصد مجرد التدوين دون ترتيب .

وفي كتاب المصاحف لابن أبي داود روايات كثيرة عن البدء بجمع المصحف . ويظهر أن من الواجب أن ندقق في فهم كلمة « الجمع » فهي ترد أحياناً بمعنى التدوين وضم الصحائف بعضها إلى بعض ، وترد أحياناً أخرى بمعنى الحفظ والاستظهار . وليس المعنى الثاني بغريب فهو مستعمل في اللغة العربية ، ولا تزال طوائف من تلاميذ الأزهر وغيره من مكاتب العلم تستعمل كلمة جمع بمعنى حفظ واستظهر .

وقد أشرنا قبل إلى الروايات التي ترددها كتب الشيعة وغيرها عن أن علي بن أبي طالب تلقى أمراً من رسول الله بأن يتفرغ « لجمع » القرآن بعد وفاته . وقد ردد كتاب المصاحف وغيره هذه الرواية ، فمثلا قال علي : لما مات رسول الله آليت ألا آخذ على ردائي الا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعته . وشك ابن حجر في هذه الرواية ، وقال : إن صحت فإن المقصود منها أن يكون علي بن أبي طالب قد أراد حفظ القرآن في صدره .

وفي رواية أخرى عن عكرمة : لما كان بعد بيعة أبي بكر قعد علي ابن أبي طالب في بيته فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك . فأرسل إليه فقال : أكرهت بيعتي ؟ قال : لا والله . قال : ما أقعدك عني ؟ قال : رأيت كتاب الله يزاد فيه ، فحدثت نفسي ألا ألبس ردائي لصلاة حتى أجمعه . قال أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت .

وإذن فلم يكن هنالك قرآن مجموع في عهد النبي . ولم يكن السبب المباشر لجمع المصحف قتل من يسمون القراء في حروب الردة . وإنما بدىء بجمع المصحف بعد وفاة النبي ، لشعور المسلمين بالحاجة

إلى جمعة حتى لا يزاد عليه أو ينقص منه .

وأما طريقة زيد بن ثابت في العمل فهي أنه جمع ما استطاع جمعه من الآيات والسور المدونة . وكان يسأل ثقات الصحابة ما في صدرهم من القرآن حتى تم له تدوين جميع القرآن في أوراق . وبطبيعة الحال يحتاط لما نسخ من الآيات والسور . وكان يراجع في هذا الصحابة حتى يستوثق .

ففي كتاب المصاحف « قدم عمر فقال . من تلقي من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به . وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب . وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان » .

ويعلق السيوطي على هذه الرواية : وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً ، مع كون زيد كان يحفظ . فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط » .

وفي المصدر نفسه (كتاب المصاحف) : ان أبا بكر قال لعمر ولزيد : أقعدا على باب المسجد فن جاء كما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه .

ووفق بعض القدماء بين هذه الروايات وبين القول بأن القرآن كان كله مدوناً في أيام رسول الله . فقال أبو شامة : وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي لا من مجرد الحفظ . وذكر عن آخر سورة التوبة أن زيداً لم يجدها الا عند شخص واحد . أي أنه لم يجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة .

وقال السيوطي عن هذين الشاهدين إنهما يشهدان على أن ذلك مما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم عام وفاته ، كما يؤخذ مما تقدم آخر النوع السادس عشر .

وآخر النوع السادس عشر هو أن زيد بن ثابت شهد عرض القرآن آخر مرة على رسول الله . وقد بين فيه ما نسخ وما بقي .

ورواية أخرى عن طريقة الجمع تقول : أقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق .

ويورد ابن حجر رواية أخرى عن زيد بن ثابت . قال : أمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأديم والعسب . فلما توفي أبو بكر ، وكان عمر ، كتبت ذلك في صحيفة واحدة فكانت عنده .

وهذه رواية غير معقولة طبعاً إذ يستحيل أن يجمع القرآن في صحيفة واحدة !!

وفي موطأ ابن وهب عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : جمع أبو بكر القرآن في قراطيس . وكان سأل زيد بن ثابت في ذلك فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل .

وفي كتاب تاريخ القرآن للزنجاني : التأمل الصادق والشواهد يعطي أن اقتراح عمر جمع القرآن إنما كان لجمعه في الورق . ونقل عن المزهر أن عمر قال : لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان من قريش وثقيف ، وقال عثمان : اجعلوا المملي من هذيل ، والكاتب من ثقيف .

وبعد أن أتم زيد عمله ، أودعت الصحف التي دونها عند أبي بكر ، ثم عند عمر مدة حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر .

وعلى الرغم من كثرة النصوص التي رجعنا إليها ، والتي نقلنا بعضها هنا لا يزال هناك بعض الغموض يحيط بالطريقة التي اتبعها زيد بن ثابت في جمع صحف القرآن .

فقد ذكر أنه كان يحفظ القرآن كله ، ومن المرجح أن عدداً من الصحابة كانوا يحفظون القرآن منهم عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي

طالب .. وربما أبو بكر وعمر . فلماذا لم يجتمع هؤلاء ويتموا عملهم مستعينين بالصحف التي أملاها النبي وبذاكرتهم .

يظهر لنا أن هذه الطريقة الطبيعية المعقولة هي التي اتبعت . أما الجلوس على أبواب المسجد ، واستعراض ما لدى الناس من قرآن ، فأقرب أن يكون إلى الوهم منه إلى الحقيقة . بل إن هذه الآيات من آخر سورة براءة التي يذكرون أنها لم توجد إلا عند شخص واحد تحتمل روايتها الشك .. فلماذا لم تكن عند أبي بكر وعند عمر وعند زيد بن ثابت وعند عبد الله بن مسعود وعند علي بن أبي طالب ؟ !

وكما وقفنا قبل بين فرضين نختار أحدهما ، نقف هنا أيضاً بين فرضين آخرين لنختار : فإما أن كبار الصحابة لم يكونوا يحفظون القرآن ، ولم يكن قد دون منه القدر الكافي ، فلجأ زيد بن ثابت إلى اصطياد الآيات بهذه الطريقة التي رويت . وإما أنهم كانوا يعلمون القرآن علماً دقيقاً ، ويعلمون ما نسخ منه ، وما أبطلت تلاوته ، وتم لهم جمع المصحف بطريقة هادئة لا ارتجال فيها . والقراء معنا في أن الفرض الثاني هو الذي نختاره ، لأنه اقرب إلى الصواب وأدنى إلى طبائع الأشياء . وهو الذي يحقق الآية الكريمة (إِنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ وَإِنا لَهُ لَحافِظونَ) .

— ٤ —

في عهد عثمان

ظهر من الروايات التي سبق ذكرها في الفصل الماضي ، أن زيد ابن ثابت أتم تدوين المصحف في عهد أبي بكر ، أي أنه استغرق في عمله عاماً أو نحوه ، إذا قدرنا أنه لم يبدأ بالعمل أول خلافة أبي بكر مباشرة وربما كانت هذه الفترة أقل مما يتطلبه عمل ضخم كهذا ، يحتاج إلى كثير من التدقيق واعمال الروية وخصوصاً أنه كان يحتاج إلى استخلاص الآيات والسور مما نسخ من القرآن ولم يصبح قرآناً .

وسواء تم هذا العمل قبل وفاة أبي بكر أو تم في خلافة عمر ، فالثابت أن الصحف كانت تودع عند الخليفة .. ولم نقف على روايات تقول ان عمر راجع مرة أخرى هذه الصحف ، وذلك لما نرجحه من أنه كان مشتركاً اشتراكاً فعلياً مع زيد بن ثابت وغيره في جمعها وتدوينها .

ولقد مات عمر بن الخطاب ، ونبحث عن الصحف بعده فإذا بنا نجدها عند حفصة بنت عمر وزوج رسول الله .

وتسأل دائرة المعارف الإسلامية : لماذا أودعت عند حفصة ؟ ولم لم تودع عند الخليفة الجديد الذي ولي أمر المسلمين وهو عثمان بن عفان ؟ !

ويظهر أن اختيار حفصة لكي يكون عندها الصحف تم لسببين :

أولهما ـ أنها كانت زوج رسول الله وبنت خليفة رسول الله .

ثانيهما ـ أنها كانت تعرف القراءة والكتابة .

وعلى كل حال لن تترتب نتائج هامة على تحقيق المكان الذي أودعت فيه الصحف فما دام قد ثبت أن هذه الصحف كتبت ، وأنها كانت عند عمر ، فلتكن من بعده عند حفصة أو عند غيرها ، فالذي يعنينا هو أن نسأل سؤالاً آخر أهم مما سألت دائرة المعارف :

لماذا لم يأمر أبو بكر ، أو عمر بنسخ صور مما كتب زيد بن ثابت ؟ ولماذا لم يحرص كبار الصحابة على أن يكون لدى كل واحد منهم أو لدى بعضهم نسخ على الأقل من هذه الصحف التي تتضمن كتاب الله ؟

الجواب على هذا السؤال عسير . ويمكن أن نقول إن هذه الصحف التي كتبها زيد ، إنما أريد منها أن تكون وثيقة للتسجيل أكثر منها أي شيء آخر .. ولم يقصد منها أن يستعان بها في حفظ أو مراجعة . وذلك لأن تلاميذ محمد عليه السلام الذين علمهم القرآن ، وبصرهم به ، كانوا أحياء . وكانت مدارس تحفيظ القرآن لا تزال موجودة . ثم إن المسلمين ـ وقد اطمأنوا في هذا العهد إلى تسجيل قرآنهم ـ لم يشغلوا أنفسهم به ، فقد كانت أمامهم مسائل جسيمة على غاية من الخطورة تستنفد كل وقتهم ، ونعني بها هذه الغارة التي شنوها على أمبراطوريتي كسرى وقيصر .

فلما كان عهد عثمان بن عفان ، جد من المناسبات ما دعا إلى إعادة النظر في أمر هذه الصحف التي كتبها زيد بن ثابت .

روى البخاري عن أنس : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية واذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا

اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلي الينا الصحف التي ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم انتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم . ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في مصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

قال زيد :

ففقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري وهي : (مِنَ المؤمنين رجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عليهِ) .

فألحقناها في سورتها في المصحف .

وهنالك رواية أخرى في كتاب اختلاف المصاحف لابن أبي داود مؤداها أن عثمان لما أراد أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار فبعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر ؛ فجيء بها . وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا اذا تدارءوا في شيء أخروه . قال محمد : فظننت إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبوا على قوله » .

وإذن فقد أمر عثمان بتأليف لجنة تقول رواية البخاري إن عددهم أربعة وتقول رواية أخرى انهم اكثر ، ولكن من المؤكد أن من بينهم

زيد بن ثابت ... والسبب في تأليف هذه اللجنة لإعادة النظر في أمر صحف القرآن هو هذه اللغات التي فصلنا أمرها فيما مضى ، والتي ورد فيها حديث (نزل القرآن على سبعة أحرف) وقد اختصم الناس في عهد عثمان ، وربما كان خصامهم أسبق من عهده ، ولكن لم تظهر له نتائج حتى أيامه ..

وقد روي في شأن هذا الخصام عن أنس بن مالك قال : اختلفوا في القرآن على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلمون . فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه . فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً .. فاجتمعوا فكتبوا . فكانوا إذا اختلفوا وتدارءوا في أي آية قالوا هذه اقرأها رسول الله فلاناً . فيرسل إليه وهو على رأس ثلاث من المدينة فيقال له : كيف اقرأك رسول الله آية كذا وكذا فيقول كذا وكذا فيكتبونها وقد تركوا لها مكاناً .

وفي رواية اخرى أن الخلاف كثر في عهد عثمان في وجوه القراءة حتى قرأوا بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك ببعضهم إلى تخطئه بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره . .

ومن هاتين الروايتين يفهم أن الخلاف في القرآن كان فاشياً في البلاد البعيدة حيث سافر المسلمون للفتح ، كذلك وجد في المدينة وفي غيرها .. وهذه الخلافات في عهد عثمان تقطع بأن أبا بكر وعمر لم يفرضا مصحف زيد بن ثابت على الناس ، بل ظل كل من لديه ورقة مكتوبة من عهد النبي متمسكا بها . وكل من لديه صيغة من الصيغ — سواء كانت من القرآن الباقي أو من القرآن المنسوخ — كان يتلوها ويعتقد أنها هي القرآن .

ما الذي عملت هذه اللجنة التي تقول رواية انها من أربعة ، وتقول أخرى انها أكثر من أربعة ؟

راجعت اللجنة ، كما في رواية البخاري ، الصحف التي كانت عند حفصة ورتبت سورها ، وما غاب منها أكملته .

وإذن فلم يجمع القرآن في عهد عثمان ، وإنما اعتمد اعتماداً كبيراً على ما تم في عهد أبي بكر : وبعد أن تم الإتفاق على صيغ الآيات ، ومكانها من السور ، وترتيب السور ، ووافق عثمان على ما انتهت إليه اللجنة من رأي ، انتسخت أربع نسخ أو أكثر من « الإمام » (هكذا سمي مصحف عثمان) وأرسلت إلى الأنصار ، وصدر أمر أمير المؤمنين بأن تصادر جميع الصحف والأوراق التي يحتفظ بها المسلمون حتى ذلك العهد ، وأمر بها فأحرقت إحراقاً وألزم الناس بقراءة واحدة هي التي وردت في « الإمام » .

قال القاضي أبو بكر في الانتصار : لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في نقش القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعهم على القراءات (كذا ! !) الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه . ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته ، وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد .

— ٥ —

الصحابة ومصحف عثمان بن عفان

أتمت اللجنة التي اختارها عثمان بن عفان عملها ، وكان ذلك في عام ٢٥ للهجرة أو في عام ٣٠ . وربما كان بين هذين العامين ، لأنه عمل كثير يستغرق انجازه أكثر من عام .. وصدر أمر أمير المؤمنين بأن يحمل الناس على اتباع مافي « الإمام » وهو المصحف الذي تمت كتابته ، وأن يبطل ما عداه من قراءات .

ومن ذلك الوقت والحديث متصل حول عثمان ومصحفه ..

ففي أخبار سنة ٣٠ يروي كتاب « الكامل » لابن الأثير سبب اختلاف الناس في القرآن ... يقول : إن أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد . وأهل دمشق يصوبون قراءتهم عن قراءة غيرهم . وأهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على عبد الله بن مسعود . وأهل البصرة يتمسكون بما أقراهم أبو موسى الأشعري ويسمون مصحفه لباب القلوب .

وقد نقل تفصيل هذا الخلاف إلى عثمان ، فأمر بنسخ مصحف الإمام كما ذكرنا ، وفرق النسخ في الآفاق ..فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلا ما كان من أهل الكوفة ، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب رسول الله . وأما أصحاب عبد الله بن مسعود ومن وافقهم فقد امتنعوا من ذلك وعابوا الناس . فوقف فيهم عبد الله يأمرهم بالهدوء

والتزام الطاعة . وكان مما قال لأحد المسلمين الذين نقدوا مصحف عثمان على ملأ من الناس : اسكت ، فعن ملأ منا فعل ذلك . فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله .

ولكن الروايات الأخرى التي أوردها كتاب الإتقان نقلا عن الكتب التي عرضت لعلوم القرآن تدل على شيئين :

أولا – ان عثمان لم يصادر مصاحف كبار الصحابة أمثال على ابن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب .

ثانيا – إن هذه المصاحف كانت تختلف في بعض التفاصيل عن مصحف عثمان .

وأظهر الروايات التي تروى في هذا الصدد ما ينسب إلى عبد الله ابن مسعود ، من إنه أنكر على اللجنة العثمانية أن تضيف إلى القرآن المعوذتين (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) .. و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) .

قال ابن حجر في شرح البخاري : قد صح عن ابن مسعود إنكار المعوذتين فاخرج أحمد وابن حيان عنه أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه .

وأخرج غيره : أن عبد الله بن مسعود كان يحك المعوذتين من مصاحفه ، ويقول إنهما ليستا من كتاب الله .

وأخرج البزاز والطبراني من وجهه آخر : أن ابن مسعود كان لا يقرأ بهما وكذلك كان يرى هذا الرأي في فاتحة الكتاب .

وبذا يكون مصحف ابن مسعود ١١٢ سورة بدلا من ١١٤ .

وقد حاول كثيرون من القدماء والمحدثين الرد على هذه الروايات المنقولة عن ابن مسعود ، وهذا الرد على قسمين :

أولا ــ رد ينكر أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا أو تأوله .

ثانياً ــ رد يعتمد هذه الروايات ولكنه يخطئها .

فأما إنكار أن ابن مسعود قال كلاماً كهذا ، فقد ذهب النووي في شرح المهذب إلى أن المسلمين اجمعوا على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، ومن جحد منها شيئاً كفر . وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح .

وقال ابن حزم : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع » .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : نقل في بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ، وهو قول في غاية الصعوبة لأنا إن قلنا أن النقل المتواتر كان حاصلا في عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن فإنكاره يوجب الكفر . وان قلنا لم يكن حاصلا في ذلك الزمن فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر في الأصل .. والأغلب على الظن أن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل ، وبه يحصل الخلاص من هذه العقدة .

وقال القاضي أبو بكر : لم يصح عنه إنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه ، وإنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكاراً لكتابتها ، لا جحداً لكونها قرآناً لأنه كانت السنة عنده ألا يكتب في المصحف الا ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإثباته فيه ، ولم يجده كتب ذلك ولا سمعه أمر به .

وفي بحث أنشأه الأستاذ فريد وجدي تحت عنوان : « رد شبهات على القرآن الكريم » يناقش فيه ما ورد في كتاب الوحي الجديد ، تعرض لهذه النقطة ... فهو ينقل عن هذا الكتاب قوله :

« أن ابن مسعود هذا ــ وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن ــ لم

يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة ، وأنه رفض أن يسلمه نسخة فيحرقها ، وأنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلا : يا أهل العراق اكتموا المصاحف التي عندكم وغلفوها . وأنه حذف السورة الأولى (أي الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته . بحجة أن تلك السور من كتاب الله ... »

ويرد الأستاذ وجدي بقوله :

« يمكن أن يتساءل منهم : أي مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه في شيء ؟ ارموا بذلك إلى غرض من الأغراض التي تحمل النفوس السافلة على التحريف ، وليس فيها ما يشوه جمال القرآن » ولا ما يناقض الحكمة التي أتى بها ؟

وهل يعقل أن يضع المحرفون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين في أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم في جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه الى ناحية أخرى لهان الخطب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج لشيء من العلاج ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة في أظهر مكان منه ، فامر لا يحتمل النظر فضلا عن الدحض .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخبا ولا يهيج غضباً ، ولا يستدعي شغباً[1] ويمر كأنه لم يكن في أمة دستورها هذا

---

١ — في كتب التاريخ أن من أسباب فتنة بعض الأمصار على عثمان حرق الصحف السابقة له : وقد روينا قبل أن ابن مسعود نفسه كان يحاول تهدئة الناس في الكوفة وكان علي ابن أبي طالب ينهى أن يسمى عثمان حراق المصاحف .

الكتاب وحده ومقيدها سوره وآياته ؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوي في العالم الإسلامي دوى الرعود القاصفة ؟ لعلك تقول خشى بأس عثمان : فقد قتل عثمان وابن مسعود حي يرزق [1] فلم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ، ويلجأ الى الخليفة ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التي ليست منه ؟

ما الذي حمل المسلمين : والدين لا يزال في نضرته . وكتابه مرجعهم في شئونهم ومقيدهم في صلواتهم : على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأسا ؟ الأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة . أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرفوه ، وقد دالت دولتهم ، وتلتها دولة أخرى على رأسها علي ابن أبي طالب أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على انها كانت راشدة ؟ .

وهذا الإجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود ، وهو ينبه إلى أمر جلل ، يكفي خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيران ».

* * *

ذلك هو رد من ينكر أن ابن مسعود حذف الفاتحة والمعوذتين من القرآن .

ونحسب أن ناساً إذا وقفوا على رأينا هذا في ابن مسعود قد يستعظمونه ، ويقولون إنه قول لائق في حق جليل . ونحن لا ننكر

---

١ – مات عبد الله بن مسعود عام ٣٢ هـ في السنة التي مات فيها عبد الرحمن بن عوف والعباس عم النبي عليه السلام . وكان عثمان في ذلك الوقت حياً – إذ كان مقتله سنة ٣٥ هـ .

أن ابن مسعود من أجل الصحابة شأناً وأعلاهم مكاناً ، ولكن لم يقل أحد بعصمة عبد الله ، ولا بعصمة غيره من الصحابة .

لقد قال غيرنا من القدماء في بعض الصحابة ما عن لهم من رأي لا رغبة في التجريح ، ولكن إيثاراً للحق فيما دلهم عليه يقينهم .

فقد أورد ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث مناقشة النظام لحديث رواه ابن مسعود قال :

« زعم ابن مسعود أن القمر انشق وانه رآه . وهذا من الكذب الذي لا خفاء به . لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ، ولا لآخر معه . وإنما يشقه ليكون آية للعالمين وحجة للمرسلين ، ومزجرة للعباد ، وبرهاناً في جميع البلاد ، فكيف لم تعرف بذلك العامة ، ولم يؤرخ الناس بذلك العام ولم يذكره شاعر ، ولم يسلم عنده كافر ، ولم يحتج به مسلم على ملحد » .

ويعلق كتاب ضحى الإسلام على هذا النقد بقوله : وإنما قال النظام ذلك لما روي له أن ابن مسعود قال : رأيت حراء بين فلقتي القمر . وكان النظام يرى أن انشقاق القمر الوارد في الآية إنما يكون يوم القيامة . فترى كيف كان النظام جريئاً في تحكيم المنطق في في رواية ابن مسعود .

وما نحن بصدده ليس رواية من هذا النوع ، ولكنه يتصل بصلب القرآن ، فأحر بنا ألا نجامل وألا نقيد بقيود لا خير منها ، ولا طائل تحتها .

هذا نوع من أنواع النقد الذي وجه إلى مصحف عثمان ، وهو ينصب على زيادات وردت فيه .

ونوع آخر يخالفه ، وهو ينصب على نقص ورد فيه .

لقد كان مصحف أبي بن كعب من المصاحف الموجودة ، وقد أورد فيه أبي دعاء القنوت وهو في سورتين : اللهم إنا نستعينك ، واللهم إياك نعبد . ويقال إن علي بن أبي طالب كان يرى أن القنوت من القرآن .

تناقش عبد الله بن زريز الغافقي الشيعي مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . قال الخليفة :

لقد علمت ما حملك على حب أبي تراب إلا أنك أعرابي جاف .

فقال عبد الله :

ـ والله لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك ، ولقد علمني منه علي أبن أبي طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ما علمتهما أنت ولا أبوك : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك . إن عذابك بالكفار ملحق .

وروي إن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك .. الخ . قال ابن جريج : حكمة البسلمة إنهما سورتان في مصحف بعض الصحابة .

وروي أن أبي بن كعب كان يقنت بالسورتين وأنه كان يكتبهما في مصحفه وتابعه عبد الله بن عباس وأبو موسى الأشعري .

وبذا يكون مصحف أبي ١١٦ سورة . قيل والصواب ١١٥ لأنه جعل سورة الفيل وسورة الائتلاف واحدة .

وكانت سورتا القنوت تسميان سورتي الخلع والحفد .

ونكتفي في مناقشة هذه الروايات بهذا الرد الحازم القوي الذي رد به القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابة إعجاز القرآن . قال في الفصل

الخاص عن « كلام النبي وأمور تتصل بالإعجاز » ، وهو رأي يؤيد ما سبق ان ذهبنا إليه في التفريق بين أسلوب النبي وأسلوب القرآن :

« إن قال قائل : إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصح العرب ، وقد قال هذا في حديث مشهور ــ وهو صادق في قوله ــ فهلا قلتم ان القرآن من نظمه لقدرته في الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره . قد علمنا أنه لم يتحدهم مثل قوله وفصاحته . والقدر الذي بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين في الفصاحة . وذلك مما لا يقع به الإعجاز . وقد بينا قبل هذا . إنا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور ، وبين نظم القرآن ، يبين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس . ولا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم معجز ، وإن كان دون القرآن في الإعجاز . فإن قيل لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن . وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت في أنه هل هو من القرآن ! ! ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره ، وعدد السور عندهم محفوظ مضبوط وقد يجوز أن يكون شذ من مصحفه لا لأنه نفاه من القرآن ، بل عول على حفظ الكل . على أن الذي يروونه خبر واحد ، لا يسكن إليه في مثل هذا ، ولا يحمل عليه ، ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه . وهذا نحو ما يذكر الجهال من اختلاف كثير بين مصحف ابن مسعود ومصحف عثمان رحمة الله عليهما » .

— ٦ —

المصحف بعد عثمان

هذا الذي أشار اليه « الباقلاني » من أن مرجع الإضافات الكثيرة التي تروى في أخبار الآحاد الى القرآن ، إنما هي شروح أو مذكرات كتبها أصحاب المصاحف القديمة عليها ، فحسبها المتأخرون قرآناً ، وأضافوها الى متن مصاحفهم .

وقد ألفت كتب كثيرة تعرض هذه الأقوال وتفندها ، منها كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة عن الكسائي ، وكتاب اختلاف المصاحف لخلف ، وكتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف للفراء ، وكتاب اختلاف المصاحف لأبي داود السجستاني ، وكتاب اختلاف المصاحف وجميع القراءات للمدائني ، وكتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبي ، وكتاب محمد بن عبد الرحمن الأصفهاني في اختلاف المصاحف .

ومن أشهر من روى القراءات الشاذة محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ ، فقد أورد الكثير من الروايات التي تقحم في الآيات كلمات بل جملاً نسبها للمتقدمين . وكان المسلمون في عصره أوسع صدرا من أن يحكموا بتأثيمه وكفره ، وغاية ما وصفوه به أنه أحمق ، وقد توفي في رواية ابن النديم سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة في محبسه بدار السلطان ، وكان الوزير أبو علي بن مقلة ضربه أسواطاً ،

فدعا عليه بقطع اليد ، فاتفق أن قطعت يده ، وهذا من عجيب الاتفاق .

ومن الروايات الشاذة التي أوردها ابن شنبوذ : إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة « فامضوا » إلى ذكر الله .

ومنها : وكان (أمامهم) ملك يأخذ كل سفينة (صالحة) غصبا .

ومنها : ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف (ناهون) عن المنكر (ويستعينون الله على ما أصابهم) أولئك هم المفلحون والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ..

يروي ابن النديم . ويقال إنه اعترف بذلك كله ثم استتيب وأخذ خطه بالتوبة فكتب يقول : قد كنت أقرأ حروفاً تخالف مصحف عثمان المجمع عليه ، والذي اتفق أصحاب رسول الله على قراءته . ثم بان لي أن ذلك خطأ ، وأنا منه تائب وعنه مقلع وإلى الله جل اسمه بريء . إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذي لا يجوز خلافه ولا يقرأ غيره .

* * *

وإذا استثنيا القراءات الشاذة ، فإن مصحف عثمان ظل هو الامام ، ولم يعرف عن خليفة من الخلفاء جاء بعده ـ حتى علي بن أبي طالب الذي كان في صف المعارضة أيام حكمه ـ أنه بدل في مصحف عثمان أو غير فيه ، بل يقول الشيعة انه هو الذي أشار على عثمان بجمع المصحف .

ففي كتاب تاريخ القرآن للعالم الشيعي الأستاذ الزنجاني :

« ذكر علي بن محمد الطاوس العلوي الفاطمي في كتابه سعد السعود نقلا عن كتاب أبي جعفر محمد منصور ورواية محمد بن زيد بن مروان في اختلاف المصاحف أن القرآن جمعه عهد أبي بكر

زيد بن ثابت . وخالفه في ذلك « أبي » وعبد الله ابن مسعود وسالم مولى حذيفة . ثم عاد فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام . وأخذ عثمان مصحف أبي وعبد الله بن مسعود وسالم مولى حذيفة فغسلها . وكتب عثمان مصحفاً لنفسه ، ومصحفاً لأهل المدينة ؛ ومصحفاً لأهل مكة ، ومصحفاً لأهل الكوفة ، ومصحفاً لأهل البصرة ، ومصحفاً لأهل الشام .

ويروى أن علي بن أبي طالب كان يدافع عن عثمان ضد أعدائه ويقول « اياكم والغلو في أمر عثمان ، وقولكم حراق المصاحف » .

وقد جد المسلمون بعد مضي قرن على الهجرة في حفظ القرآن وتجويده وانتساخ مصاحفه حتى أنا نرى المصاحف ترفع في الحرب بين علي ومعاوية حقنا للدماء وطلباً للهدنة .

ولا نكاد نعرف على وجه دقيق عدد المصاحف التي كانت موجودة في هذه الحادثة ، والتي قيل انها ثلاثمائة ، وقيل أقل . ولكن من المرجح أنها كانت أقل حتى أن دائرة المعارف ترجح أنها كانت مصحفاً واحداً . وربما كان هذا صحيحاً إذا راعينا جواز كتابة المصحف في عدة أجزاء . وذلك لعدم احكام الكتابة وكبر الحروف الهجائية في ذلك الوقت .

ومضى الزمن كان يجمع المسلمين أكثر وأكثر حول المصحف الإمام حتى نسيت المصاحف الأخرى التي كانت موجودة ، والتي يقال إن بعضها موجودة حتى الآن . فقد ذكر الشيخ الزنجاني أنه رأى في سنة ١٣٥٣ في دار الكتب العلوية في النجف مصحفاً بالخط الكوفي كتب على آخره : « كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة » .

— ٧ —

ترتيبُ المُصحَفْ

البحث في ترتيب المصحف على قسمين :

أولا ـ قسم يتناول ترتيب الآيات .

ثانيا ـ قسم يتناول ترتيب السور .

يقول السيوطي : الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك .

وذلك أن رسول الله كان يدل على مكان كل آية في سورتها .

ويؤيد هذا الرأي قول عثمان بن أبي العاص :

كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ شخص ببصره ثم صوبه قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعدْلِ والإحسَانِ وإيتَاءِ ذِي القُرْبَى ..) إلى آخرها .

وقد التزم عثمان في تدوين المصحف ما علم أنه رأى رسول الله في ترتيب الآيات .. فقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً » قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها قال عثمان : يا ابن اخي لا اغير شيئاً منه من مكانه .

والمفهوم بداهة أن رسول الله كان يقرأ في صلاة الجماعة وغيرها الكثير من سور القرآن . وكان يقرأها مرتبة الآيات .

ولكن السجستاني في كتاب المصاحف يروي عن الزبير بن العوام قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال إني سمعتهما من رسول الله ووعيتهما . فقال عمر : وأنا أشهد لقد سمعتهما . ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا آخر سورة في القرآن فألحقوها في آخرها .

والمفهوم من هذه الرواية أن الصحابة بعد رسول الله كانوا يجتهدون في ترتيب الآيات ويعملون برأيهم لا بتوقيف من رسول الله حسب الروايات السابقة إلا أن من العسير أن نسمح لهذه الرواية بأن تقتحم اجماع المسلمين على أن ترتيب الآيات كان بأمر النبي .

ومع تسليمنا بأن هذه الآيات رتبت في سورها حسب أمر رسول الله ، إلا أني لم أقف بعد على رأي القدماء في القواعد التي كان النبي يتبعها في ترتيب السور .

فالثابت أن حكماً من الأحكام كان ينزل مجزءا وكان ينزل بين أجزاء هذا الحكم او السورة آيات أخرى في موضوع آخر . ومعنى هذا أنه لم تكن تنزل آيات موضوع واحد في وقت واحد ، فكان على رسول الله أن يدل على مكان هذه الآية من سورتها .

ولا يمكن الاهتداء حتى الآن ـ على الجزم واليقين ـ إلى خطة معينة تقول إن رسول الله سار عليها في الترتيب أو أن الوحي التزمها في إرشاده الى هذا الترتيب . إذ الثابت من الروايات السابقة وغيرها أن الوحي كان يدل النبي على مكان الآيات من السور .

ولنضرب مثلاً لما نقول بسورة المزمل :

فهذه السورة مكية إلا الآيات ١٠ ، ١١ ، ٢٠ فمدنية . تبدأ بقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّها المُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَليلاً . نِصفَهُ أو انقُصْ مِنهُ قَليلاً أو زِدْ عَليهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتِيلاً ﴾ .

وهي تسع عشرة آية من السورة نراها تلتزم فواصل واحدة تقريباً ، ونغماً متصلاً . وموضوعاً متسلسلاً .. ولكننا نرى في الآية الأخيرة من السورة ، الفاصلة التي تكررت في ـــ قليلا ، وترتيلا ، وقيلا ، وطويلا .. الخ تتغير . والنغم الذي يتمشى في الآيات يتغير ، كما يتغير الموضوع نفسه الذي تناولته . وهذه هي الآية الأخيرة رقم ٢٠ وهي مدنية كما قلنا :

﴿ إنَّ رَبَّكَ يَعلمُ أنَّكَ تقُومُ أدنى مِن ثلثي الليلِ وَنصفَهُ وثلثهُ وَطَائفة مِن الَّذينَ مَعكَ ، وَالله يُقَدِّرُ الليلَ والنهارَ ، عَلمَ أن لَنْ تُحصُوهُ فَتابَ عَليكم ، فَاقرَأوا مَا تَيسَّرَ مِنَ القُرآنِ ، عَلمَ أن سَيكونُ مِنكمْ مَرضَى وَآخرُونَ يَضرِبونَ في الأرضِ يَبتغونَ مِن فَضلِ الله وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ الله ، فَاقرأوا مَا تيسَّرَ مِنهُ وأقيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأقرضُوا الله قرضاً حَسَناً وَمَا تُقدمُّوا لأنفسكم مِن خَير تجدُوهُ عِندَ الله هُو خَيراً وَأعظمُ أجْراً وَاستَغفِرُوا الله إنَّ الله غفُورٌ رَحيمٌ ﴾ .

فهذه الآية تعد من أطول آيات القران ألحقت بسورة آياتها قصيرة ونغماتها وفواصلها متصلة .. فما هو وجه اضافة هذه الآية الى هذه السورة ؟

لا سبيل الى الرد على هذا السؤال : وغاية ما نقول إنها أرادة الهية اقتضت هذا الوضع لهذه الآية ولغيرها من الآيات التي يمكن أن يقف القارىء عندها كما وقفنا نحن هنا . ولم يرد عن رسول الله ولا عن صحابته قول يفسر حكمة الترتيب كما أن العلماء تحاشوا البحث

في هذه النقطة ، اكتفاء بما تقرر وثبت أن جبريل كان يرشد النبي عليه السلام إلى الترتيب فكان النبي يأمر الكتاب والمسلمين بأن تكون الآية في الموضع الذي قرره لها[1] ..

قال البغوي في شرح السنة : الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله يلقن أصحابه ويعلمهم فأنزل عليه القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل اياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت أن سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه . فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزلـه الله جملـة إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله مفرقاً عند الحاجة ... وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة .

هذه هي عقيدة علماء المسلمين في ترتيب آيات القرآن . أما

---

١ — في غير هذا الباب ـ وهو موضوع ترتيب الآيات ـ بذلت محاولات كثيرة طول ثلاثة عشر قرناً لمحاولة وضع ضوابط للقرآن . ولكن كل القواعد التي وضعت حتى الآن لم تطرد اضطراداً ، حتى قواعد النحو والبلاغة التي أخذت مباشرة من القرآن ي يمكن تطبيقها في جميع الحالات . ومن أطرف ما يروى في هذا الباب ما حدث في محاورات الرافعي والعقاد . فقد حاول أولهما أن يستنبط قاعدة وهي أن تتابع الحروف المتشابهة في القرآن يحدث نغماً معيناً ، وضرب مثلاً الآية : (ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وأطنب في وصفه ـ وهي محاولة سبق إليها الرافعي ـ وقد رد عليها العقاد يسأله رأيه في تكرار للم في الآية : « قيل يا نوح اهبط منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) .

المستشرقون فلهم مذهب آخر . فهم كما ذكرنا قبل لا يسلمون ابتداء بأن القرآن من عند الله وتمشياً مع هذا الحكم يشكون شكا قوياً في أن النبي هو الذي أملى ترتيب آيات المصحف وأن لجنة عثمان هي التي قامت بهذا العمل ويقولون ان أكثر من يد وأكثر من رأي عمل فيه . وهذه آراء فاسدة وتافهة لا تستحق حتى مناقشتها .

وأما ترتيب السور فهو باجتهاد اللجنة العثمانية ، ولا سبيل إلى الأخذ بالأقوال التي تحاول أن تسند هذا الترتيب إلى أمر رسول الله . وكل مايمكن أن يؤخذ به هو أنه قد يكون عرف عن النبي أنه قال : إن هذه السورة قبل تلك وعين سوراً معينة ، أما ترتيب القرآن كله فقد تركه لاجتهاد أمة المسلمين من بعده . ولا داعي لنقل الأقوال التي تؤيد هذا الرأي ، إذ أن الخلاف عليه قليل . ولكنا نثبت هنا رواية عن ابن عباس توضح هذا المعنى كما تزيد الطريقة التي كان يتبعها عثمان بن عفان ولجنته في عملهم بياناً .

روى ابن عباس : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان :

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد . فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . فظننت أنها منها . فقبض رسول الله ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله

الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال ..

والظاهر من مراجعة مصحف عثمان أنه هو وأعوانه اختاروا تر المصحف حسب طول السور وقصرها في أغلب الأحيان لأن القاعدة لا تطرد أطرادا منتظماً . وإلا لكانت سورة العصر مع الكوثر وسورة الإخلاص في آخر المصحف ، ولما تأخرت عن ال سورة الماعون مثلا .

وكم كان يكون نافعاً ومفيداً لو أن عثمان أشار بترتيب المص حسب تاريخ نزول السور . ولكن يظهر أنه اعترض هذا العمل صعو أهمها أن السور لم تنزل دفعة واحدة وإنما كانت بعض آيات من تنزل قبل البعض الآخر بمدة طويلة . بل إن سوراً كثيرة نزلت مكة وأكملت في المدينة . كما أن الترتيب التاريخي على فرض وجود هذه الصعوبة يقتضي جهداً أكبر في الترتيب الحاضر روعي فيه ـ على الأغلب ـ الطول والقصر . ولكن من المؤكد أن المس في ذلك العهد كانوا أقدر من غيرهم على القيام بهذا العمل . ترتيب المصحف ترتيباً تاريخياً لأنهم كانوا صحابة رسول الله . وقد القرآن عليه وهو بينهم . فعرفوا مناسبة كل سورة وكل آية ، و في ذاكرتهم . وقد علموها لتابعيهم من بعده . ووصلت إلينا معلو في عصر التدوين أي بعد قرن ونصف على الأقل . وهي مدة غير قد سمحت لكثير من الجدل والتحوير أن يشوب هذه الروايات .

ولم يكن ترتيب مصحف عثمان متفقاً مع ترتيب أشهر المصا التي كانت موجودة في عهده ، وأهمها مصحف علي بن أبي ط ومصحف أبي بن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود ومصحف الله بن عباس .

وفي كتاب الإتقان طائفة كثيرة من الترتيبات حسب أسد

النزول . وقد أورد كتاب تاريخ القرآن ترتيب المصاحف السابقة مع ترتيب مصحف جعفر الصادق .

وقد وصف تاريخ القرآن مصحف الإمام علي بأنه كان في سبعة أجزاء ، وقد أتى به يحمله على جمل وهو يقول : هذا القرآن جمعته ! !

ولم يلتزم الترتيب التاريخي في مصحفه ، ولا ندري حكمة انصراف هؤلاء الصحابة عن اختيار هذه الطريقة في ترتيب مصاحفهم ، مع أنا نرى مثلاً ابن سعد ينقل عن عبد الله بن عباس أنه سأل أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فيخبره بأنها ٢٧ سورة ويذكرها له . فلم يكن إذن الصحابة غافلين عن هذه المسألة ومع هذا نراهم أهملوها في مصاحفهم ، كما أهملها عثمان في المصحف « الامام »

وفيما يلي الترتيب التاريخي كما رواه ابن عباس :

الترتيب التاريخي لابن عباس	رقم السورة في المصحف	الترتيب التاريخي لابن عباس	رقم السورة في المصحف
١ — إقرأ (العلق)	(٩٦)	٢٥ — الضحى	(٩١)
٢ — ن	(٦٨)	٢٦ — البروج	(٨٥)
٣ — المزمل	(٧٣)	٢٧ — التين	(٩٥)
٤ — المدثر	(٧٤)	٢٨ — قريش	(١٠٦)
٥ — تبت	(١١١)	٢٩ — القارعة	(١٠١)
٦ — الشمس	(٨١)	٣٠ — القيامة	(٧٥)
٧ — الأعلى	(٨٧)	٣١ — همزة	(١٠٤)
٨ — الليل	(٩٢)	٣٢ — المرسلات	(٧٧)
٩ — الفجر	(٨٩)	٣٣ — ق	(٥٠)
١٠ — الضحى	(٩٣)	٣٤ — البلد	(٩٠)
١١ — ألم نشرح	(٩٤)	٣٥ — الطارق	(٨٦)
١٢ — العصر	(١٠٣)	٣٦ — الساعة	(٥٤)
١٣ — العاديات	(١٠٠)	٣٧ — ص	(٣٨)
١٤ — الكوثر	(١٠٨)	٣٨ — الأعراف	(٧)
١٥ — التكاثر	(١٠٢)	٣٩ — الجن	(٧٢)
١٦ — الماعون	(١٠٧)	٤٠ — يس	(٣٦)
١٧ — الكافرون	(١٠٩)	٤١ — الفرقان	(٢٥)
١٨ — الفيل	(١٠٥)	٤٢ — الملائكة	(٣٥)
١٩ — الفلق	(١١٣)	٤٣ — مريم	(١٩)
٢٠ — الناس	(١١٤)	٤٤ — طه	(٢٠)
٢١ — الإخلاص	(١١٢)	٤٥ — الواقعة	(٥٦)
٢٢ — النجم	(٥٣)	٤٦ — الشعراء	(٢٦)
٢٣ — عبس	(٨٠)	٤٧ — النمل	(٢٧)
٢٤ — القدر	(٩٧)	٤٨ — القصص	(٢٨)

الترتيب التاريخي لابن عباس	رقم السورة في المصحف
٤٩ — بني إسرائيل	(١٧)
٥٠ — يونس	(١٠)
٥١ — هود	(١١)
٥٢ — يوسف	(١٢)
٥٣ — الحجر	(١٥)
٥٤ — الأنعام	(٦)
٥٥ — الصافات	(٣٧)
٥٦ — لقمان	(٣١)
٥٧ — سبأ	(٣٤)
٥٨ — الزمر	(٣٩)
٥٩ — المؤمنون	(٤٠)
٦٠ — السجدة	(٤١)
٦١ — الشورى	(٤٢)
٦٢ — الزخرف	(٤٣)
٦٣ — الدخان	(٤٤)
٦٤ — الجاثية	(٤٥)
٦٥ — الأحقاف	(٤٦)
٦٦ — الذاريات	(٥١)
٦٧ — الغاشية	(٨٨)
٦٨ — الكهف	(١٨)
٦٩ — النحل	(١٦)
٧٠ — نوح	(٧١)
٧١ — ابراهيم	(١٤)
٧٢ — الأنبياء	(٢١)
٧٣ — المؤمنون	(٢٣)
٧٤ — السجدة	(٣١)
٧٥ — الطور	(٥٢)
٧٦ — تبارك	(٦٧)
٧٧ — الحاقة	(٦٩)
٧٨ — المعارج	(٧٠)
٧٩ — النبأ	(٧٨)
٨٠ — النازعات	(٧٩)
٨١ — الانفطار	(٨٢)
٨٢ — الانشقاق	(٨٤)
٨٣ — الروم	(٣٠)
٨٤ — العنكبوت	(٢٩)
٨٥ — المطففين	(٨٣)

الترتيب التاريخي لابن عباس	رقم السورة في المصحف	الترتيب التاريخي لابن عباس	رقم السورة في المصحف
٨٦ – البقرة	(٢)	١٠٠ – الحشر	(٥٩)
٨٧ – الأنفال	(٨)	١٠١ – النصر	(١١٠)
٨٨ – آل عمران	(٣)	١٠٢ – النور	(٢٤)
٨٩ – الأحزاب	(٣٣)	١٠٣ – الحج	(٢٢)
٩٠ – الممتحنة	(٦٠)	١٠٤ – المنافقون	(٦٣)
٩١ – النساء	(٤)	١٠٥ – المجادلة	
٩٢ – الزلزلة	(٩٩)	١٠٦ – الحجرات	(٤٩)
٩٣ – الحديد	(٥٧)	١٠٧ – التحريم	(٦٦)
٩٤ – القتال (محمد)	(٤٧)	١٠٨ – الجمعة	(٦٢)
٩٥ – الرعد	(١٣)	١٠٩ – التغابن	(٨٤)
٩٦ – الرحمن	(٥٥)	١١٠ – الصف	(٦١)
٩٧ – الإنسان	(٧٦)	١١١ – الفتح	(٤٨)
٩٨ – الطلاق	(٦٥)	١١٢ – المائدة	(٥)
٩٩ – البينة	(٩٨)	١١٣ – براءة	(٩)

وكان هذا الترتيب هو الذي سار عليه المستشرق نولدكه[1]

وقد حاول أن يستنبط القواعد التي سار عليها هذا الترتيب فوجد أن الأحداث التاريخية حسب تتابعها علامات في طريق الترتيب . فإنه جعل بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهها من المعارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها . وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتاريخ آياته .

---

١ – ص ٥٨ ، ج ١ « تاريخ القرآن » لنولدكه .

ويقول إن الغالب في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ (يأيها الناس) والشدة في الإنذار نزلت في أول النبوة وقلة عدد المسلمين . وتوجيه الخطاب بآيات (يأيها الذين آمنوا) وآيات الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين .

— ٨ —

نقطُ المصَاحِفِ وَشكلهَا وتَفسِيرهَا

كانت المصاحف الأولى التي كتبت في عهد عثمان رضي الله عنه . بنفس الطريقة التي كانت تكتب بها اللغة العربية في وقته بغير نقط على الحروف . وبغير حركات الشكل ؛ وإن كان المصحف بصفة عامة ، قريباً من أحجام الكتب الكبيرة التي كانت معروفة في ذلك الوقت وتوجد فيها أنواع كثيرة في دور الكتب العامة بمختلف البلاد الإسلامية . كبيرة الحجم عما نتداوله الآن . وكان الورق الذي تكتب عليه من مادة تسمح بحك أو غسل أو مسح مادة الكتابة منها .. ولعل هذا الورق كان مصنوعاً من الجلد الرقيق . أو ألياف نباتية مضغوطة [1] وقد أوضحنا ذلك من قبل .

وقد ذكر أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني . وهو من بلدة دانية الاندلسية ومن أكبر علماء القرآن في أواخر القرن الرابع ومنتصف الخامس .. ذكر السبب في نشأة علم نقط المصاحف وشكلها .. قال :

اعلم أيدك الله بتوفيقه . أن الذي دعا السلف . رضي الله عنهم . إلى نقط المصاحف . ما شاهدوه من اهل عصرهم . مع قربهم من

---

١ — شاهدنا في آثار النوبة الأخيرة رسوم مجلدات على هيئة الكتب ذات الصحائف مع جلد خارجي سميك منقوش هندسياً . ويرجع تاريخ هذه الرسوم إلى القرن الرابع الميلادي

زمن الفصاحة ومشاهدة أهلها . من فساد ألسنتهم . واختلاف ألفاظهم . وتغير طباعهم . ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم . وما خافوه مع مرور الأيام . وتطاول الأزمان . من تزيد ذلك . وتضاعفه فيمن يأتي بعد . ممن هو ـ لا شك ـ في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهده . ممن عرض له الفساد . ودخل عليه اللحن . لكي يرجع إلى نقطها . ويصار إلى شكلها . عند دخول الشكوك ، وعدم المعرفة ، ويتحقق بذلك إعراب الكلم ، وتدرك به كيفية الألفاظ » .

ويروي الداني [1] أن معاوية بن أبي سفيان جزع عندما رأى اللحن فاشياً حتى أن ابنه لحن أمامه ، وذلك لما فشا في البلاد من الأعاجم ، وإفساد ألسنة العرب . وطلب من واليه على العراق زياد ، أن يصنع شيئاً . فطلب من أبي الأسود أن يصنع هذا الشيء ! ! فكرة أبو الأسود ما طلبه زياد . فلجأ الوالي إلى الحيلة . وذلك بأن أمر شخصاً أن يجلس في طريق أبي الأسود ، فإذا مر به رفع صوته بقراءة القرآن ، ولحن فيه متعمداً . ففعل ، فاستعظم أبو الأسود ذلك . ورجع من فوره إلى الأمير زياد ، وقال له : يا هذا .. قد أجبتك لما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن . فابعث لي ثلاثين رجلاً . أختار منهم عشرة ، ثم أختار من العشرة واحداً أتوسم فيه الكفاءة على ما يريد ، وألقي إليه بما يريد .

قال أبو الأسود الدؤلي لصاحبه : خذ المصحف ، وصبغاً (حبراً) يخالف لون المداد ، فإذا فتحت شفتي ، فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتهما ، فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتهما ،

---

[1] ـ كتاب المحكم في نقط المصاحف للداني ، عني بتحقيقه الدكتور عزة حسن وطبعته الحكومة السورية .

فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات (التنوين) فانقط نقطتين

وسار العمل على هذا النحو ، حتى أتم أبو الأسود شكل المصحف بالنقط لا بالحركات .

وكان الكتاب الذين يقومون في المصاحف بهذه المهمة ، يسمون « النقاط » .

ثم جاء دور الخليل بن أحمد ، فكان أول من صنف النقط ، ورسمه في كتاب ، وذكر علله وأسبابه .

إلا أن عملية شكل المصحف ، عن طريق النقط الذي ابتكره أبو الأسود الدؤلي ، لم تمض بغير اعتراض . فإن المحافظين من المسلمين المتقدمين كرهوا هذا العمل ، وطالبوا بتجريد المصاحف من النقط ، حتى لا يدخل على القرآن ما ليس منه ! قالوا : كره هذا العمل الحسن وابن سيرين .. حتى الإمام مالك فكان يرى أن يبقى المصحف الإمام على الكتابة الأولى ـ العثمانية ـ أما المصاحف التي يتعلم فيها الصغار ، وألواحهم ، فلا يرى بنقطها (أي شكلها بالنقط) بأس .

ولكنهم عادوا فرووا عن الحسن البصري أنه وافق على نقطها بالأحمر . وروي عن الكسائي أنه كان يقرأ على الناس ، وينقطون مصاحفهم بقراءته عليهم .

وجاء بعد ذلك التعشير وهو وضع علامة بعد كل عشر آيات ، ثم التخميس ، وهو وضع علامة بعد كل خمس آيات .

ثم تبع هذه العلامات رسم فواتح السور ، وعدد آيات كل سورة . وكما جرت العادة تخوف البعض أن ينشأ قوم يظنون هذه الفواتح والأعداد من القرآن .

وأمامنا رواية غريبة ، أن الإمام مالك ، كان يملك مصحفاً ، كتبه جده أيام الخليفة عثمان بن عفان ، وكان محلى بالفضة . وتقول الرواية ان خواتمه من حبر ، على هيئة السلسلة في طول السطر . قال الراوي انه رآه معجوماً .. أي أن الشكل بدأ في أيام الخليفة عثمان .

وكان هنالك تشديد ، من أوائل المسلمين عند ابتداء النقط ، بأن يكون بحبر ذي لون مخالف لما كتبت به الآيات . وكان أهل المدينة يستعملون اللونين الأحمر والأصفر . أولهما للحركات والسكون والتشديد والتخفيف وثانيهما للهمزات .

قال أبو عمرو الداني : ان الشكل الذي هو على رسم الحروف (فتحة وضمة وكسرة) ، كان يسمي شكل الشعر ، وقد اخترعه الخليل ابن أحمد ، مما يحسن تركه .. ومعنى الشكل المثل ، والشبيه . ونقل هذا المؤلف الأندلسي : أن الشكل سمة للكتاب . كما أن الإعراب سمة لكلام اللسان . ولولا الشكل لم تعرف معاني الكتاب ، كما أنه لولا الإعراب لم تعرف معاني الكلام .

يقول محقق كتاب المحكم : تأثر العرب في طريقة نقط المصاحف بالسريان ، واستعانوا بما اخترعه هؤلاء قبلهم من علامات الحركات والاعراب . وقد فعل العبرانيون ما فعله السريان . وهكذا اتبعت هذه الأمم السامية الثلاث (معهم العرب) طريقة واحدة لرسم علامة الحركات ، أي حروف الأصوات ، في ضبط كتاباتهم ، وكل ذلك في ظروف متشابهة ، والأسباب واحدة .

* * *

هذا عن النقط والشكل .

أما هجاء الكلمات نفسها ورسمها ، فقيل فيه كلام كثير ، من

ذلك مثلا ما ذكر في كتابة كلمة « مائة » بزيادة ألف بعد الميم ، لا تقرؤها . قيل في سبب إضافتها للفصل بين رسم كلمة « منه » ألا ترى أنك تقول : أخذت مائة ، وأخذت منه . فلو لم تكن الألف لالتبس على القارىء .

هذا مثل لحرف الألف زيد في كلمة :

أما الحروف الناقصة ، فمثلها طريقة كتابة « يا ابن أم » في الآيـة ٩٤ من سورة طه ، وهي تكتب في المصحف هكذا : (قال يَبْنَؤُم لا تأخذ بلحيتي) نراها كلمة واحدة حذفت منها ثلاث ألفات ، ووضعت واو مكان الألف الثالثة ، وذلك لأن المراد النطق بالجملة مرة واحدة ؛ وكأنها كلمة واحدة .

وروي عن عثمان أنه رأى أخطاء في كتابة الخط بالمصحف ، فأمر بتركه لأن العرب ستقيمه بألسنتها . وقد رفض الداني في كتاب آخر من كتبه [1] هذه الرواية رفضا باتا .

ومما أورده الداني – أيضا – تعليله لكتابة « الصلوة ، الزكوة ، والحيوة وبالغدوة . وشكوة . والنجوة . ومنوة » بواو عليها ألف قصيرة . بأنها كتبت على لغة أهل الحجاز الذين يفرطون في تفخيم الألف وما قبلها . والعلامة فوق الواو تدل على استقرارها ألفا في اللفظ دون الواو .

وكذلك الحال في الألف التي تكتب ياء مثل « أبي » ولا يخفى ، وفسوىهن ، وسعيكم ، وذكريهم ، وذكريها ، والذكرى ، ولليسرى ، والموتى . . وشبهه » فهذه الياء في هذه الكلمات وأمثالها تنطق الفا ، ووضعت فوقها علامة الف تنبيهاً للقارىء .

---

١ – اسم الكتاب : المقنع في معرفة رسم مصاحف الأمصار .

ولا توضع علامة الألف الصغيرة فوق الياء إذا كان الحرف لا ينطق في الاتصال ، مثل « نرى الله » .

ولعل كثيراً من الحروف التي لا تنطق ، لا تثبت في كتابة القدماء للمصاحف . مثل (أيه المؤمنين) و(سوف يأتي الله ، ويدعُ الإنسان) فان النطق ، هو الذي روعي فيها وأمثالها ، ولو أنها كتبت على القاعدة لكانت : أيها ، ويؤتي ، ويدعو .

وغني عن البيان ، أن طريقة الكتابة القديمة ، في الحذف والزيادة ، وتحويل الألف إلى واو ، أو ياء حسب ظروف الكلمات في جملها .. هذه الطريقة بقيت آثارها في الإملاء الحديث .

فما نزال نكتب (هذا) بغير ألف بعد الهاء . والرحمن بغير ألف بعد الميم . وأكثرنا يكتب كلمة حديثه معربة ، وهي (موسيقى) بالياء في آخرها ، لا الألف كما تنطق .. ونفس الشيء بالنسبة لـ (متى) و (حتى) .

واللغة العربية ، لا تنفرد بهذه الظاهرة ، فإنا نجد الإملاء في اللغات الأجنبية التي نعرفها تسير على نفس الطريق مع إسراف شديد أحياناً في الإبقاء على حروف لا تنطق ، أو حذف حروف تنطق ، ولا سيما في اللغتين الإنجليزية والفرنسية فكلمة borough أى دائرة انتخابات بلدية ، تنطق buro تقريباً !! بحذف ثلاثة أحرف من الآخر . وكذلك آلاف الكلمات . ولهذا فإنا نجد جميع القواميس المتوسطة والكبيرة تضع بجانب الكلمة طريقة نطقها الحرفي .. وما أكثر ما يختلف الأصل عن النطق .

وقدسرت في الولايات المتحدة قواعد للكتابة بغير الهجاء التقليدي

لكثير من الكلمات . فتكتب كما تنطق . وعلى هذا صارت الصحافة والكتب العادية .

وإذن فليس بدعا ما نراه في طريقة الكتابة القرآنية ، والكتابة العادية ، وما بينهما من خلاف في النطق .

وبدأت تظهر تفسيرات حديثة للقرآن ، وتضم إلى تفسير الكلمات ، كتابة هذه الكلمات — خارج النص — بالطريقة الحديثة المألوفة [1]

* * *

هذه لمحة عن تاريخ الكتابة ونقط المصاحف ، وغني عن البيان أن التوسع في هذه الدراسة هو مفتاح لدراسة القراءات المتداولة في القرآن الكريم ، بمختلف الأمصار .

وليس من شأن هذا الكتاب أن يعرض الدراسات الفنية ، الخاصة بهذا الموضوع ، ولكنا نكتفي بالإشارة إلى طريقة الكتابة في الأمصار الإسلامية وما تفرع عنها من أساليب القراءة ، كان لها تأثير على مدارس التفسير ومذاهب المفسرين . وحسب بعض خبثاء المستشرقين انها ثغرة ينفذون منها إلى زعزعة عقائد المسلمين في كتابهم الأعظم ، وقد وفروا لهذا جهوداً دائبة . وأنفقوا أعمارهم ، وهم مئات كثيرة في الدوران حول قلعة الإسلام من موضوع القراءات .

ولم يعبأ المسلمون بهذا كله ، ولا تزعزع إيمان واحد منهم ، بأن مصحفه هو كلام الله ، وأنه إمامه وهاديه وعماد حياته الأولى وحياته الآخرة ..

وربما كان المستشرقون (أجنتس جولدتسيهر) و (بروكلمان)

---

١ — تفسير الشيخ عبد الجليل عيسى الذي أخرجته دار القلم أخيراً .

و (تيودورنولدكه) من أهم هؤلاء الباحثين . وقد جمع سيرهم مؤلف ضخم من ثلاثة أجزاء اسمه (المستشرقون) [1] .

ومما قاله هذا الكتاب عن جولدتسيهر ، أنه تعلم اللغات السامية في جامعات بودابست عام ١٩٠٦ ، وكان قد قام برحلة إلى سوريا وفلسطين ومصر وصحب معه في سوريا الشيخ طاهر الجزائري ، وفي مصر الشيخ محمد عبده (أعوام ١٨٧٣ و ١٨٧٤) وألف كتبه بالألمانية والفرنسية والإنجليزية ومات عام ١٩٢١ . وقد جمع كتب الإمام داود الظاهري صاحب أحد المذاهب في الفقه . كما جمع كتب ابن حزم ونشر مخطوطات وكتباً من نفائس التراث الإسلامي والأدبي . فهو الذي نشر ديوان الحطيئة وكتاب المعمرين للسجستاني . والعقائد والشرائع عند المرجئة . والقدرية والمعتزلة وجزءاً كبيراً من كتاب المستظهرية في فضائح الباطنية . وفضائل المستظهرية للغزالي ..

وهذا المستشرق يهودي ، ولذا نرى له كتاباً عن اليهود والأساطير اليهودية ، وبحثاً عن كتاب إسرائيلي موضوعه : اسماء الله الحسنى . وعجل الذهب ، ومئات الدراسات الأخرى .

وربما كان من أهم كتبه عند « الغربيين » الإسلام ، وقد نقله إلى العربية الدكتور محمد يوسف موسى والأستاذ عبد العزيز عبد الحق . وبحث في فقه اللغة العربية بالألمانية ، وكتابه الذي يعنينا الآن هو مذاهب التفسير الإسلامي الذي ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار .

وقد استطردنا في تقديم نموذج لهؤلاء المستشرقين ، لكي نقول إن واحدا منهم جمع أربعين ألف مجلد عن الإسلام والمسلمين ، من

---

١ - ألف هذا الكتاب نجيب العقيقي ، وأصدرته دار المعارف .

أقيم آثارهم ، وقام بهذه الدراسات ، لم يقم بهذا العمل خالصاً لوجه العلم ، ولا سيما أنه من اليهود ، الذين يواصلون دورهم ضد الإسلام كما أداه أسلافهم من بني قريظة وبني النضير قبل أربعة عشر قرناً إلا قليلا ..

• • •

كيف فهم هذا المستشرق اليهودي المشهور موضوع الشكل والنقط في القرآن ؟

ضرب لهذا مثلاً بآية : « قال ربي احكم بالحقّ ، وربنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفون » (الأنبياء ــ ١١٢) ، وقال : لم يرتض أحد ثقات القراء ــ ويبدو أن تصحيحه لم يجد قبولاً ــ أن يطلب محمد إلى الله أن يحكم بالحق . كأنما كان في الإمكان أن يحكم بغير ذلك . فأراد رفع هذه الشبهة . بتحويل الصيغة ، بواسطة تغيير حركاتها مع الاحتفاظ بمحصولها الصوتي ، من صيغة الدعاء إلى صيغة التفضيل ، وبهذا ينتقل الكلام من الإنشاء إلى الاخبار : « ربي أحكم بالحق » أي ربي أعظم حكماً بالحق من كل حاكم ، ولن يحيك ذلك شيء بالنفس[1] .

وقد رد مترجم الكتاب على هذا الالتواء في التفكير ، فأكد أن القراءة الثانية ، قراءة آحاد لا يعتد بها ، وصاحبها . واسمه الضحاك ، ليس من ثقات القراء ، ولم تعتمد هذه القراءة من السبع ، ولا الأربع عشرة . فهي لم تبلغ حتى مبلغ القراءة الشاذة .

وإذن فقد زعم صاحبنا أن صاحب القراءة الشاذة من ثقات القراء ،

---

١ ــ مذاهب التفسير ص ٣٧ .

وأن في وسعه أن يغير الصيغة ، وبهذا يغير المعنى الذي التبس على الضحاك إن صح ما نسب له ، والتبس أكثره على العالم العلامة جولدتسيهر.

هذه الآية تطلب أن يحكم الله بين رسول الله والكفار الذين يمارون في رسالة التوحيد وأن يشتد في حكمه عليهم . وبهذا يكون معنى الحكم بالحق ، أي عدم أخذهم باللين لما قاموا به من عناد وكفر ، وليس معناها أن عند الله حكماً بالحق ــ وآخر بغيره .

ففي سورة البقرة مثلاً قوله تعالى : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » آية ٢١٣ .

إنه كتاب واحد لكن نسبة الحق له ، إنما لإظهار صفة من صفاته ، لا أن نفهم أن هناك واحداً وصف بالحق ، وواحداً أو أكثر له صفات ومفهوم آخر ليس منها الحق ! ! .

وقال الزمخشري في تفسيره[1] : إن الله استجاب لهذا الدعاء ، فكانت واقعة بدر .

وقد حرص هؤلاء المستشرقون إلى جانب بحوثهم في النقط والشكل ، وما يؤدي إليه من مشكلات في التفسير .. حرصوا على جمع شوارد من الآراء الشاذة ، احتضنتها بعض الفرق الاسلامية ، إن هناك آيات ــ وقيل سوراً ــ كانت في القرآن أيام رسول الله ، وحذفتها لجنة جمع المصحف . منها ما ورد خاصاً بالإمام علي وفضله .. وبعد أن يورد (جولدتسيهر) هذه الأقوال ، زراعاً بها بذور الشك فيمن رق إيمانهم إلى حد التأثر بهذه المزاعم يقول : ويبدو أنه لم يحصل أصلا بين الشيعة اتفاق معين على علاقة نص القرآن المأثور بقالب من النص ،

---

١ ــ جـ ٣ ص ٢٣ .

صحيح المطابقة في زعمهم لكتاب الله فلم يبلغ واحد من النصوص التي حاولوا هم جمعها دائرتهم إلى اعتماد شرعي ، والمؤكد عندهم هو افتراض عدم اكتمال المصحف العثماني فحسب ! !

وما من مسلم مخلص لدينه وربه ورسوله ، إلا يرى الشيعة مثل بقية أمة محمد مسلمين صادقين في إيمانهم ، ولاؤهم الأول لله ولنبيه محمد عليه السلام .. يؤمنون بما بني عليه الاسلام من قواعد ، ويطبقون هذه القواعد ، ونيتهم صادقة في الجهاد في سبيله ، وإذا كان هناك خلاف حدث على ولاية أمر المسلمين ، فهو أمر طبيعي حدث على مر تاريخ الإنسانية ، وحدث في تاريخ الإسلام . وقد حكم الشيعة الفاطميون مصر حقبة من الزمن ، ويذكر لهم المصريون بعد الف سنة جامع الأزهر ، مفخرة المؤسسات الإسلامية العظيمة الباقية إلى اليوم ، والتي ستبقى إن شاء الله ما بقيت دعوة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

* * *

ويرى أحمد أمين في فجر الإسلام[1] أن تفسير القرآن بدأ بالنقل كما روي عن رسول الله وعن الصحابة والتابعين ، ثم جاءت مرحلة الاجتهاد بالرأي .

وكانت معرفة اللغة العربية ومعانيها مما ورد في شعر القدماء أساساً في التفسير ثم أسباب نزول الآيات . وقد تحرج كثيرون أن يقولوا في تفسير القرآن برأيهم مثل الصحابي سعيد بن المسيب ، وابن سيرين وعروة بن الزبير . وقد كره كثيرون من الصحابة والتابعين « ان يعتنق الرجل مذهباً من المذاهب الدينية كالاعتزال والأرجاء والتشيع ،

---

١ — فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٢٩ وما بعدها .

ويجعل ذلك أصلاً يفسر القرآن على مقتضاه . والواجب أن تكون العقيدة تابعة للقرآن ، لا أن يكون القرآن تابعاً للعقيدة » .

ومصدر ثالث للتفسير ، وهو البحث في كتب القدماء عن قصص تصلح تفسيراً لبعض الاشارات الواردة في القرآن ، وذلك من كثرة البحث والتنقيب عما وراء هذه الاشارات . كأن يبحثوا عن حجم سفينة نوح ، وعن اسم الغلام الذي قبله العبد الصالح في قصة موسى معه ، وعن الكواكب التي رآها يوسف في منامه .. ومن هنا تسربت إسرائيليات كثيرة في التفسير لاشباع الأسئلة الكثيرة حول هذه الإشارات .

وبعد عصر الصحابة وكبار التابعين ، أخذ العلماء يؤلفون كتب التفسير على طريقة واحدة ، هي ذكر الآية ، ونقل ماروي في تفسيرها عن الصحابة والتابعين بالسند ... ويظهر أن تفسير القرآن كان في كل عصر من العصور متأثراً بالحركة العلمية فيه وصورة منعكسة لما في العصر من آراء ونظريات علمية ومذاهب دينية ، من أبن عباس ، إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده ، حتى لتستطيع إذا جمعت التفاسير التي ألفت في عصر من العصور ، أن تتبين فيها مقدار الحركة العلمية ، وأي الآراء كان سائداً شائعاً ، في هذه الفترة ...

* * *

وحول تفسيرات معينة لآيات من القرآن ، نشأت الفرق الإسلامية التي تحاول أن تستعين على أهدافها السياسية ، سعياً وراء الخلافة والحكم ، وهدما لنظام قائم ، تريد أن تحل محله نظاماً جديداً .

هكذا نشأ الخوارج ، وشعارهم الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله » (النساء ـ ١٠) .

ونشأ الشيعة حول افتراض وجود آيات توحي أن يكون الخليفة لرسول الله هو علي بن أبي طالب .

ونشأ المعتزلة ، حول جدال في عقيدة الجبر ، أو القدرية ، مستندين إلى آيات من القرآن الكريم يفسرونها مثل قوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وكان الناس ، في وقت نشأة هذا التفكير الفلسفي ، يتقابلون يدور حديثهم حول حرية الإرادة ، والجبر . ومن ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز ، استدعى اثنين لكي يتحاوروا أمامه . تكلم القدري ، مستشهداً بالآية : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » فرد عليه مناظره بالآية : « إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً ، وإما كفوراً » . فأمرهما الخليفة الطيب الورع أن يتابعا قراءة سورة الإنسان حتى بلغا الآية : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » .. فقال لهما : كيف تريان ؟ تأخذان الفروع وتدعان الأصول .

ويرجع اسم المعتزلة إلى أن العالم الكبير حسن البصري ، لما كان يلقي دروسه في مسجد البصرة ، طرد واصل بن عطاء من مجلسه لأنه يقول بالجبر ، ويرتب عليه أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن وليس بكافر .. فاعتزل واصل واتخذ لنفسه مجلساً ، بعيداً عن مجلس الحسن ، وانضم إليه صديقه عمرو بن عبيد .. وكان ذلك في عصر الأمويين .. ثم تطور مذهب المعتزلة .

يقول أحمد أمين : والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الاسلام .. فهم يقولون بالمنزلة بين المنزلتين . أي أن المسلم مرتكب الكبيرة فاسق وليس بكافر ، والفاسق لا يستحق الخلود في النار . كما

أنهم يقولون بالقدر ، وأن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون ويعاقبون . وأنهم يقولون بالتوحيد ، فنفوا أن تكون لله صفات زائدة على ذاته ، فهو سبحانه عالم وقادر وحي وسميع وبصير بذاته ؛ وليست هناك صفات زائدة على ذاته . وهم أخيراً يقولون بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بهما شرع .

والمعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام ، لكي يردوا على الشبهات التي جاء بها من أسلم حديثاً من أتباع الديانات الأخرى .

وقد لخص المسعودي مبادئهم تلخيصاً وافياً لمن يريد مزيداً من التفصيل . والنظام . إبراهيم بن سيار ــ كان من أهم رؤساء هذا المذهب في عهد الخليفة المأمون ، وقد انعكست آراء المعتزلة في أفكار العالم الشهير الزمخشري ، والتي ضمنها كتابه المعروف بتفسير الكشاف . وكان يقول : سر في دينك تحت راية العلم . حتى إذا جاء عالم آخر مشهور ، هو أبو الحسن الأشعري ، قال بمذهب المعتزلة حتى الأربعين من عمره ، ثم عدل عن مذهبهم بعد أن احتجب في بيته فترة طويلة ، وخرج ليقول للناس من فوق المنبر : « انخلعت من جميع ما كنت اعتقده ، كما انخلعت من ثوبي هذا » ثم راح يعارض المعتزلة والفلسفة اليونانية في عناد شديد ، وألف نحوا من مائتي كتاب ، داعياً لمذهبه الذي اتخذ وضعاً وسطاً بين حرية العقل في التأويل ، وحرفية التنزيل ، مسوياً بين العقل والايمان ، وما تزال كلمته المشهورة وهو على فراش الموت شعار مذهبه وهو قوله : « لا أعُدُّ ملحدا ، أحداً من أهل هذه القبيلة . وذلك لأن كل واحد يتجه نحو غرض واحد من العبادة . وليس جميع هذا ، غير اختلاف في التعبير » .

وما بين هذين التيارين ظهر المفكرون الكبار ، الذين أثر عقلهم

على الفكر الأوروبي بعد ذلك ، من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وابن الطفيل والغزالي . وأراؤهم تدور حول ما فهموه من تفسيرات لآيات من القرآن الكريم ، مطعمة حيناً بأفكار السلفيين ، أو معارضيهم ، أو أفكار فلاسفة اليونان والهند .

* * *

وهكذا كان القرآن ، وتفسير آياته ، مثار حركة عقلية عظيمة القيمة بالغة التأثير في نضوج الفكر الإنساني ، مما لم يحدث مثله أو قريباً منه ، ما دار من شروح حول أي كتاب مقدس آخر ...

إلا أنه مما يستحق الأسف ، أن يصل تمسك بعض المفسرين وأتباعهم بآرائهم إلى حد التعصب الذي يثير الفتن وتزهق من أجله الأرواح . وقد أشرنا إلى بعضه من قبل ، حتى أن آلافاً من الجند أسرعوا لحماية المفسر الجليل ابن جرير الطبري من ثورة الحنابلة عليه .. ان التفسير بالعقل والتفسير بالنقل .. أو التفسير بالظاهر ، والتفسير بالباطن ، كانت له مدارسه وأنصاره . وقد نشأ من محصول هذا كله التفسير الصوفي ، حول فرق المتصوفة ، وقد عبر ناصر الدين خسرو عن تفكيرهم بقوله : تفسير النص بالظاهر هو بدن العقيدة ، إلا أن التفسير الأعمق يحل منه محل الروح ، وأين يحيا بدن بلا روح ، ؟ !

* * *

وسنتناول في كتابنا القادم إن شاء الله ، ما اتجه اليه بعض المفسرين المحدثين من محاولة البحث عن أصول وإشارات في القرآن الكريم للكشوف العلمية الحديثة في الفضاء وغيره ونظريات الرياضة والعلم التي أدت اليها ..

ولكنا نختم هذه الدراسة بنموذج للتفسيرات الحديثة التي تتناول أموراً جدلية وكيف توضح هذه التفسيرات .

ففي شرح الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي للآية الأولى من سورة الحديد « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » قـال :

سبحته : بعدته عن السوء . مأخوذ من سبح إذا ذهب في الماء وأبعد . و « ما في السماوات والأرض » ما هو مستقر فيهما ، وما هو متصل بهما ، على أي نحو من أنحاء الاتصال ، فهو عبارة عن جميع الموجوادت علوية وسفلية . والآية على هذا مساوية للآية الأخرى : وإن من شيء إلا يسبح بحمده » فجميع الموجودات تنزه الله سبحانه عما لا يليق بذاته ، وبصفاته ، وبأفعاله ، وبأحكامه المبرأ من سمات النقص ، وتدل على أن أفعاله صادرة عن ذاته على وفق العلم ، ومقتضى الحكمة ، وعلى أن جميع ما يصدر عنه من الأحكام يصدر على حسب العلم والحكمة لخير العباد وفق النظام العام الذي قدره .

إلى هنا نجد التفسير سائغاً سلساً ، لا يكاد يحتمل جدالاً ، ولكن المتكلمين أثاروا أسئلة حول النص ودلالته ، ومن ذلك :

ــ هل يسبح الحيوان ؟

ــ هل يسبح الجماد ؟

اذا كان الأمر كذلك ، وهو ما يستفاد من الآيات ، فهناك أسئلة أخرى :

ــ ما لغة تسبيح الحيوان والجماد !

ــ ما صيغة هذا التسبيح ؟

ويجيب الشيخ المراغي على هذه الأسئلة بقوله :

للعلماء في هذا خلاف .. ذهب بعضهم إلى حمله على الحقيقة ، وأن كل موجود تسبح تسبيحاً اختيارياً بعبارة تدل على التسبيح ، وأننا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الإنسان ، والصادرة عن الملائكة ، ولا نفقه بعض هذه العبارات ، كالعبارات الصادرة عن الجماد ، وبعض أنواع الحيوان والدليل على ذلك قوله سبحانه : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فقد أثبت سبحانه لكل شيء تسبيحاً . وثبت أننا نفقه بعضه ، ولا نفقه بعضه ولو كان هذا التسبيح اعتبارياً يرجع إلى الدلالة العقلية ، لما كان لهذا التقسيم وجه فإن جميع الناس متساوون في إمكان إدراك الدلالة العقلية دلالة الموجودات على موجدها . وأكثر الصوفية على هذا الرأي .

ويستطرد الشيخ قائلاً :

وقد استبعد جمهور العلماء . أن تكون للجمادات تسبيحات اختيارية لا نفهمها فرصفوا اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر . وهو أن كل مخلوقات الله تدل دلالة قاطعة على إله منزه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه إله واجب الوجود يشرق وجوده على جميع الموجودات ويشرق علمه على جميع المعلومات .

وهنا يعرض سؤال آخر وهو :

ـ هل دلالة المخلوقات على الخالق اختيارية ، أم غير اختيارية ؟

ويجيب الشيخ بقوله :

ينبغي أن نعلم أن من الدلالات ما هو اختياري يقع بإرادة الدال ، كدلالة النطق والإشارة والكتابة عند الإنسان ومنها ما هو اختياري كدلالة المصنوع على الصانع ، والمخلوق على الخالق ، والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب ، أما الأولى فهي محتملة الصدق والكذب .

وهكذا تمضي الأسئلة بفروضها واحتمالاتها في آية من آيات القرآن ، خاصة بالتسبيح ، ويتحرك العقل في مجالها على النحو الذي أوجزناه ، ومن الممكن أن تستمر هذه الحركة العقلية ، تنتقل من فرض إلى فرض ، ومن احتمال إلى احتمال .

ولكننا إذا نحن نظرنا إلى القرآن الكريم ، كدليل عبادة ، أنزله الله تعالى ليكون معجزة نبيه . وليقول الكلمة الأخيرة في التوحيد ، وفي العبادات . وفي المعاملات . إذا نظرنا إلى القرآن هذه النظرة الشاملة فإنا نخرجه عن طبيعته إذا نظرنا اليه على أنه كتاب فلك شامل لمسار النجوم ، ومجال الأفلاك والمواقيت .. أو على أنه كتاب نبات لأنه أشار إلى مسائل خاصة بالإنبات والزروع والحاصلات أو على أنه كتاب في علم الإحياء لأنه تحدث عن النطفة والعلقة والجنين .

قد تكون في القرآن الكريم أمثلة وإشارات إلى كثير من فروع المعرفة ، وما يرد فيه منها فهو الكلمة الأولى والأخيرة لما عرض له لسبب بسيط وهو أنه كلام الله تعالى ، العالم بسر كل شيء وما أخفى . ولكن ليس صواباً أنه كلما وصل العقل الإنساني إلى الكشف عن غامض من غوامض الكون ، أن نهرع إلى القرآن الكريم لنجد فيه أصلاً أو دلالة على هذا الكشف . وما أكثر ما يتغير العلم وينسخ جديده القديم . أو كلما ظهرت في ميدانه نظرية نهرع إلى القرآن لنغير من فهمنا للقرآن وتفسيره .

لو أن هذا كان مسلك المسلمين ، لاجتمعنا في كل قرن إلى تفسير مجدد لكلمات الله ولآياته البينات . ولو أننا طبقنا هذه النظرية على آية التسبيح التي فسرها الإمام المراغي وما ورد من أسئلة عن تسبيح الجماد والحيوان ، لقلنا إن الرأي العلمي استقر الآن على أن لكل كائن من جماد أو نبات أو حيوان إشعاع معين ، يبعث عنه ، وإن رصد

هذا الإشعاع يختلف من مادة لأخرى وأصبح من الممكن التعرف عليه ، حتى ليمكن عن طريق ذبذبات معينة فوق سطح الأرض ، أن تلتقي بذبذبات صادرة عن بطنها ، تنبيء عما إذا كان في جوفها ماء أو بترول أو معدن من المعادن أو مجرد صخور ورمال ! ! فهل تفسر السؤال عن تسبيح الجماد بأن هذه الإشعاعات والذبذبات الكهربية هي هذا التسبيح ؟ !

قد يسر هذا التفسير فريقاً من المسلمين ، ولكن ماذا يكون الحال إذاجاء وقت قادم أعطى هذه الدلالة العلمية وضعاً آخر ، ومفهوماً غير مفهومها اليوم . مثلما ما يفسر به مد الماء وجزره وأنه تجاوب مع حركة القمر أو غيره من الكواكب ، وهو تفسير لا يستقر ، ولم تقل فيه الكلمة الأخيرة بعد !

الرأي إذن هو أن نأخذ كلام الله تعالى ، كما هو ، وأن يكون فهمنا له إيماناً وإدراكاً .. وأن يشترك فؤادنا مع عقلنا في التماس معانيه ، وألا نقيس العلم به ، ولكن نقيس به العلم .

وإذا نحن طبقنا هذا الرأي على آية التسبيح ، فنصل إلى الرأي الذي اطمأن اليه عامة العلماء ، من أن الكائنات كلها تدل على وجود الخالق ، وتنزه ذاته عن أي نقص ، ولا معنى إذن للبحث عن لغة الحجر ولا صيغة تسبيحهما . فما بنا حاجة إلى هذا التفصيل ، لأنه لا يضيف الينا شيئاً ، ولا يحجب عنا شيئاً .

* * *

وفي ختام هذه الدراسة نقول إن هذا المصحف الذي بين يديك ، كنز من المعرفة والوجدان واليقين بالله ، أودعه الخالق بين أيدينا معجزة خالدة باقية لخاتم أنبيائه . ونحن المسلمين نجد ما نستضيء به من هديه

وتوجيهه ، كل حسب طاقته وإدراكه .. أو كما قال علي بن أبي طالب عنه إنه جمال أوجه ، لكي يكون بحق دليل حياة وعمل وتوجيه للبشرية في جميع أطوارها وأحوالها ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومهما دس أعداء القرآن ، من دسائس حوله ، وهم الآن الملحدون والصهيونيون ـ كما كانوا منذ نزل الوحي على رسول الله ـ فإنه الله أكبر .. وإن ما يفتعلونه من طبع مصاحف محرفة ، يذيعونها في انحاء العالم الإسلامي لكي يزعزعوا إيمان الناس ، ان هو إلا كيد رخيص ، وأسلوب من المعارضة لا يرقى لدى المؤمنين إلى مواطىء أقدامهم .

ولنذكر دائماً قوله تعالى في سورة التوبة .

« يريدُون أن يطفئوا نور الله بِأفواهِهِم ، وَيأبَى الله إلا أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرون » ٣٢ .

القرآن وكتب السماء الأخرى

مِن ابراهيم إلى موسى :

تكمل هذه الدراسة ، بنظرة شاملة نلقيها على كتب السماء الأخرى ، غير القرآن الكريم . وعلى الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم بكلمات الهدى .

أولهم كما نعلم ، هو سيدنا ابراهيم ، أبو الأنبياء ، وأول من جهر بدعوة التوحيد في مملكة بابل . فقد نشأ في بلدة « أور » على نهر الفرات ، في عصر مقارب أو مصاحب لعصر واحد من أعظم ملوك العراق القدماء ، وهو حامورابي . وكانت الحضارة وقتها قد بلغت أوجاً رفيعاً ، تجلى في شرائع هذا الملك ، والتي تضمنت قواعد ونصوصاً لم تصل البشرية المعاصرة إلى بعضها . فهم مثلاً ، كانوا يعوضون المواطن عما ثبت انه سرق منه ، اذا تعذر رد ما ضاع منه ، وذلك على حساب الخزانة العامة وهو أمر لم نصل اليه حتى الآن . وتجلت قدرة البابليين في هذا العصر بعجائب المباني ، مثل برج بابل ، والحدائق المعلقة على ارتفاعات شاهقة ، وكانت تنبت ضخام الاشجار ... ومع هذا التقدم المادي والعقلي ، لم تتطور روحانيات شعب الرافدين ، فقد ظل عاكفاً على عبادة الاصنام . وكان طبيعياً أن تظهر دعوة أرقى وأهدى سبيلاً ، تناسب وتواكب الرقي المادي لهذه البلاد .. وهكذا ظهر سيدنا ابراهيم في وقته ، وقد أوحي إليه أن يبلغ قومه الدعوة إلى عبادة إله واحد أحد ، يتنزه عن التشبيه ..

وكان طبيعياً أن يبدأ الحوار من أجل العقيدة الجديدة مع أسرة

ابراهيم ، وكان أبوه من الذين يصنعون التماثيل . وكان طبيعياً أيضاً أن يرفض اهل بلدته هذه الدعوة الغريبة ، من واحد من أفراد الشعب ، لم يأت بها أمير أو عظيم أو ملك من أهل بابل .. وكانت قصة تحطيم ابراهيم للاصنام في احد المعابد ، ومحاولة عقابه حرقاً بالنار ، ثم نجاته ، وهربه مع زوجه ساره وبعض اتباعه ، شمالاً ، ثم التجائه إلى فلسطين .

ولم يؤثر عن ابراهيم الخليل ، ان كتاباً معينا أنزل عليه ، ولكنها الدعوة باللسان ، بلغها لقومه .. ولم يؤثر عنه حين رحل إلى مصر ، انه حاول تبليغ دعوته . ولكنه عندما خرج منها ورزق من زوجه المصرية باسماعيل ، واستقر في الحجاز ، انه أقام ـ بأمر ربه ، وبمعونة ابنه ـ بيت التوحيد الاول ، وهو الكعبة ، لتكون أبلغ تعبير وأقوى رمز على توحيد الله الواحد الاحد . وفي عودة ابراهيم إلى فلسطين ، اوعز إلى ابن أخيه لوط أن يذهب إلى بلدتين قريبتين هما سدوم وعمورية ، ليدعو أهلها إلى التوحيد ، فلما رفض أهل البلدتين الدعوة ، وارتكبوا ما ارتكبوا من المعاصي ، دمر الله القريتين بزلزال هائل ، ما تزال آثاره موجودة حتى الان .

ومضى ابراهيم إلى جوار ربه ، وحمل الرسالة من بعده اسحاق . ولم يعرف كذلك ان كتاباً انزل عليه ، وان كان قد حمل وحده مع اسرته عبء الايمان باله واحد . فلما رزقه الله بابنين هما عيسو ويعقوب ، شغل الابنان ، أيهما يحمل سر أبيه ، وأمانة التوحيد . وهرب يعقوب من أخيه وظل طريداً عشرين سنة ، ولم يعرف أن واحداً منهما قام بتبليغ الرسالة ، وبالتالي ، فان كتاباً سماوياً لم يتزل على واحد منهما .

وظهر يوسف بن يعقوب في مصر ، بعد نجاته من مؤامرة اخوته عليه . ونشأ يوسف بين المصريين محافظاً على رسالة التوحيد . وقد

تحدث القرآن الكريم أن يوسف حاول هداية المصريين إلى عبادة الاله الواحد الاحد . وذلك فيما ورد في سورة المؤمن :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما »
« جاءكم به ، حتى اذا هلك ، قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً . »
« كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب »

وكانت مصر وقت قدوم يوسف اليها محكومة بالهكسوس ، تسودها فوضى عارمة ، ولهذا لم يتسامع أحد بالدعوة اليوسفيه يمكن ان يكون له خطر . فلما قدم يعقوب وبنوه للاقامة في مصر بدعوة يوسف وعددهم جميعاً سبعون فرداً ، ونصحهم يوسف بأن يقيموا في أطراف بحيرة المنزلة وكانت تمتد جنوب حدودها الحالية ، وان يعتزلوا المصريين ، ويشتغلوا برعي الغنم فقط حتى يعزلهم المصريون عنهم ، لأنهم كانوا لا يحبون رائحة الرعاة .. وهكذا عاشت اسرة يعقوب ، وقد أسمى اسرائيل . في مديرية الشرقية ، في شبه عزلة حتى مضت أربعة قرون وبعض قرن وزاد عددهم ، ولكن ليس إلى الحد الذي تذكره التوراة (قالت انهم زادوا إلى أكثر من سبعمائة ألف ! !) . وهنا كان المصريون قد أفاقوا من محنة الاحتلال الهكسوسي ، وطردوهم من بلادهم ، وقامت الاسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، لتجدد ما خربه الاحتلال من مرافقها ومعابدها . وكان طبيعياً أن تستعين الهيئة الحاكمة بكل طاقة العمل في البلاد ، ومنها هؤلاء اليهود ، ولا سيما أنهم كانوا ألصق بالعدو المحتل ، منهم بالمصريين ..

ظهور سيدنا موسى :

وفي وسط الآم تحملها اليهود من المصريين ، بدأت تجربة جديدة في محاولة الهداية .. وهذه التجربة ، هي ظهور نبي يتجه بدعوة التوحيد

وجهتين : واحدة إلى قومه وهم بنو اسرائيل . أي شعبة يعقوب من سلالة ابراهيم الخليل . والدعوة الثانية لفرعون ، وجهاز الحكم العامل معه ، وللمصريين جميعاً .

واختارت السماء من احدى قبائل اليهود (اللاويين ، نسبة لليفي) طفلاً انجته من مصائر أطفال آخرين كان يحكم عليهم بالقتل . وتربى هذا الطفل في قصر فرعون . وكانت الأميرة حتشبسوت هي التي التقطته ، ورعته حتى أصبح ضابطاً في حرسها . وسافر في بعثة عسكرية إلى السودان ، وشارك في الخلافات الحادة بين هذه الاميرة ــ التي اصبحت ملكة ، وبين أخيها الشهير تحتمس الثالث .

ونحن نعلم أن موسى عندما بلغ الاربعين هرب من مصر إلى بلاد مدين في شمال الحجاز ، على اثر تداخله بين مصري ويهودي في مشاجرة مات المصري على أثرها . وكانت رحلته إلى شمال الحجاز برنامجاً سماوياً أعد لتدريبه وإعداده لمهمة كبرى سوف يكلف بها . فقد تزوج هناك ، ولكن لم يكن زواجه أخطر مالقيه ، ولكن كانت صحبته لرجل من الصالحين هو الخضر ، الذي أعده إعداداً نفسياً لحمل رسالة السماء . وفي تقديرنا ان موسى كان في حاجة إلى هذا الاعداد . فان حياته في قصر الحكم المصري ، جعله متشبعاً بعادات وطباع القصور ، وما فيها من ترف الحياة ، وما يسودها من افكار وتقاليد في العبادة وغيرها . وانتزاع موسى من طابع هذه الوثنية ، حتى ولو لم يكن يدين بها . تولى عبئه الرجل الصالح في تجارب رائعة ، فصلتها سورة الكهف ..

وفيما قدره العلماء ، كانت لغة موسى في ذلك الوقت هي لغة المصريين أي الهيروغليفية ، ولم يعرف ان قومه كانوا يحتفظون بلغتهم

التي جاءوا بها مع يعقوب طوال القرون الارزمة . وبهذا اللسان المصري القديم ، بدأت رحلة العودة من المنفى إلى مصر ، وكان موسى وقتها في الثمانين من عمره .

نظرات في القرآن :

يتحدث القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام ، عن شخصيتين : هما فرعون ـ وهامان .. ويصف فرعون بأنه علا في الأرض وقسم الناس إلى طبقات ، استضعف طبقة منها ، وسامها العذاب ، وكان يقتل الذكور من ابنائها .

وبعد أن عرض القرآن لرحلة موسى إلى بلاد مدين ، التي وصفته فيها احدى فتاتي شيخ القبيلة بأنه « القوي الامين » ، جاءته النبوة ، ولخصت دعوته في آيات بينات :

« انني أنا الله لا اله الا انا ، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري »

« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى »

« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى » (طه)

ومؤدى هذه الرسالة ان النبوة ، في صورتها الموسوية تدعو إلى ثلاث :

* وحدانية الله ، ولا يعبد إلاّ هو منزهاً عن كل شبيه ونظير .
* الصلاة لله تعالى ، أي الاتجاه بالدعاء له وحده .
* الايمان بالبعث وبالحساب في الآخرة عن اعمال الانسان في الحياة الدنيا . وعدم الاستجابة لمن يدعو إلى غير هذه السبيل .

وقد استعان موسى على اقناع فرعون بواحدانية الاله بمنطق سهل

بسيط ، فعندما سأله فرعون عن ربه : (سورة طه ــ ٥٠) .

« قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى »

« قال فما بال القرون الاولى »

« قال عِلمُها عند ربي في كتاب ، لا يضل ربي ولا ينسى »

« الذي جعل لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سُبلاً »

« وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا »

« به أزواجاً من نبات شتى . كلوا .. وارعَوا أنعامكم »

« إن في ذلك لآياتٍ لأولى النهى »

« منها خلقناكم ، وفيها نعيدُكم ، ومنها نُخرجكم »

« تارة أخرى » .

واذن فقد تحدث موسى عن الاله الواحد ، الذي خلق وحده كل شيء وليس بعده شيء . وان من آيات وجوده هذا النبات ، ودورته حتى يصبح حياة ، ويصبح طعاماً للانسان والحيوان . والله الواحد الاحد ، خلق ايضاً الانسان ، ثم أماته ورده إلى الارض ، ثم هو الذي يبعثه حيا في يوم معلوم ..

هذه حدود الرسالة الموسوية المبلغة الى مصر ملكها ، وقائد جيشها (هامان) ، أو لعله كبير كهنتها .

الطغيان وما يجر اليه :

أما لماذا استحق حكم مصر وأعوانه هذا التبليغ من رب السماء والأرض ، على لسان موسى وأخيه هارون .. وما الاثم الذي ارتكبه فرعون فتحدده الاية :

« اذهبا إلى فرعون انه طغى »

فقد عد الطغيان كبيرة الكبائر ، والاثم الذي لا يعد له اثم واستحق

تحذير السماء ، واستحق عقوبة السماء .

الطغيان هو مجانبة العدل ، والعدوان على حريات الناس وارزاقهم واعراضهم وأرواحهم ..

الطغيان هو الاعتزاز بالقوة ، واهدار آدمية البشر ، وهم خلق الله .. أعظم خلق الله .. أعظم من الملائكة وأجل شأناً .. هم صورة الله في أرضه . فمن نسي الله في عباده ، فقد استحق هذا الوصف القرآني . استحق أن يكون طاغية ..

ولم يكن استبداد فرعون موجهاً إلى اليهود وحدهم ، وكانوا ضيوفاً على مصر منذ أربعة قرون وبعض قرن ، ولكن انصب ايضاً على شعب مصر ، لأن الطاغية لا يعرف حدا يقف عنده .. ولا يعرف ناساً يؤثرهم ويكرمهم وآخرين يبعدهم ويذلهم ، الا بمقدار ما يحقق مصلحته .

وقد كره القرآن الكريم الطغيان ، وأعطى صيغة مبالغة لمن يتصف به ، فهو « الطاغوت » وأحب القرآن العدل ، وحث عليه ، وجعله من صفاته تعالى ، وقرن به الرحمة التي لا تميل على الضعف والضعفاء ولكن تمد لهم يد المساعدة حتى يزول ما بهم من هوان ، ويسيروا مع الناس في سيرة الحياة الحرة بأقدام ثابتة ليس فيها مجال للخوف ، ولا للتهديد به .

اذهبا إلى فرعون إنه طغى .. هذا هو أمر السماء . وقولا له قولاً كريماً سهلاً ، وهو انه انسان ، خلقه الله ، وأن الناس جميعاً من خلقه ، حتى هؤلاء الذين أذلهم حكمه وهم اليهود ، والله لم يخلق الناس ، ولكن خلق النبات كذلك ، وخلق الحيوان ، وخلق كل شيء . وانه هو ، وليس فرعون واهب الحياة ، وهو الذي يستردها ، فلماذا الطغيان ولماذا الاذى ؟ ..

وما حدث كان مقدراً له أن يحدث ، فقد شاعت دعوة موسى إلى التوحيد ، وإلى العدل بين الناس ، وإلى ترقب الموت والحساب في حياة أخرى .. شاعت بين كثير من المصريين بل اعتنقهسا بعض امراء وأميرات البيت المالك المصري في ذلك الوقت ..

واذن فلم تكن الدعوة الموسوية موجهة إلى اليهود وحدهم ، ولا هي قاصرة على هذه القبيلة من بني يعقوب ، ولكنها كانت دعوة عامة .

وتوالت الاحداث من بعد ذلك ، فقد واجه موسى ملك مصر ، ووجه اليه دعوته ، فأجاب اجابة ساذجة ، وهو انه سيبني برجاً عالياً ، يصل إلى السماء ، ليرى اين يوجد اله موسى ، ليواجهه . ولكن هذا هذا البرج لم يبن ، على الرغم من ان مصر بلاد البناء والتشييد واكتفى فرعون بمواجهة عامة بين معجزات موسى ، وما يمكن ان يقوم به سحرة مصر ، وعلماؤها ، وكهانها لابطال هذه المعجزات والتفوق عليها . وقد وصف القرآن كلاً من هؤلاء الافراد بأنه «سحار عليم» .

وقد تفوق موسى ، فهو مؤيد من السماء .

وذهل فريق العلماء والكهان والسحرة لما رأووا بأعينهم . ولا بد أن هذه المباراة كانت صاعقة مفحمة ، لم يملك مشاهدوها من المصريين (باستثناء فرعون وبعض اركان حكمه) من أن يخروا سجداً ، ويعلنوا على الملأ انهم آمنوا برب موسى ، وكان تحديهم لفرعون ، يدل على شديد تأثرهم . لقد رفضوا تهديد الطاغية بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وأن يصلبهم على جذوع النخل ، ويسومهم من العذاب ما لا قبل لبشر به .. أكثر من عذاب الآخرة في زعمه .

في ثقة ويقين قال هذا الحشد لفرعون الطاغية : « فاقض ماأنت قاض ، انما تقضي هذه الحياة الدنيا .. » وقد عدوا ما كانوا فيه من

عبادات وطقوس وثنية خطايا تمنوا على الله أن يغفرها لهم .

وإذن فقد آمن بدعوة موسى إلى التوحيد هذا الفريق الكبير من مفكري مصر وكهانها ، وكانوا قد وفدوا للاجتماع الخطير من أقصى البلاد وأدناها ، من الدلتا والصعيد وما بينهما .. وأرجح الظن أن هذا اللقاء كان في منف (الجيزة) ، فهي حاضرة البلاد الثانية بعد طيبة (الاقصر) ، وذلك لقربها من جاسان (الشرقية) حيث استقر اليهود وأقاموا .

ولم تقتصر دعوة موسى على من شهد المعجزات ، بل لعل التمهيد للدعوة سبق هذا الموقف . فان القرآن الكريم يحدثنا عن « رجل مؤمن من آل فرعون ، يكتم ايمانه » . ولا عجب ان يكون لموسى في القصر الملكي أصدقاء وأوفياء ، فقد نشأ فيه وعاش حتى بلغ سن الاربعين . ولا بد أنه كان يتحدث عن عقيدة التوحيد كما جاء بها ابراهيم الخليل ، وهو حديث هامس ولا شك لم تعلم به السلطات الحاكمة ، وان كانت سجلت عندها ان موسى قتل رجلاً من المصريين وانه هرب من مصر حتى لا يحل به العقاب ..

لقد تصدى هذا الرجل من آل فرعون للملك ، عندما قرر أن يعدم موسى ، حتى لا يبدل دين المصريين جميعاً .. وكان منطقه في الدفاع عن رسول دعوة السماء ، انه اذا كان كاذباً فعليه وحده الذنب ، وان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم . ويبدو ان هذا المصري المؤمن بالتوحيد ، كان وافر العلم ، وافر الشجاعة ، فقد ضرب أمثلة لما حدث للظالمين من الحكام السابقين في شعوب أخرى .

وانتهى أمر المواجهة بين ملك مصر ، ونبي الله موسى ، لتستمر باقي المعجزات التسع ، التي اريد بها اظهار سلطان الله تعالى على الخلق جميعاً ، وكل آية تكبر التي قبلها .

المسيرة إلى سينا والوصايا العشر :

وفي ليلة من ليالي الربيع المصري ، أوحى الله إلى موسى ، أن يسير بقومه من اليهود إلى سينا .. وكانت مصر في هذا الفصل من العام بادية الرونق ، مروجها مزهرة ، وقنواتها جارية ، ولقد أصاب بعض الاضطراب جنبات الحياة ، على يد موسى ومعجزاته التسع ، فان آخر منظر رآه اليهود في مصر ، ما كان ليمحى من ذاكرتهم . وقد ورد وصف سريع لمصر في ذلك الوقت ضمن ما تحدث به القرآن عن خروج اليهود .. قال :

« كم تركوا من جنات وعيون »
« وزروع ومقام كريم »
« ونعمة كانوا فيها فاكهين »

ومضت التوراة ، تروي كيف نجا اليهود من مطاردة فرعون وجيشه لهم ، واغراقهم في بحر سوف أي بحر البوص والاعشاب ، وهو جانب من بحيرة المنزلة . ولكن التوراة لم تغفل تهجم اليهود على موسى خوفاً من إدراك المصريين لهم ، وقد خاطبوه في الاصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بقولهم :

« فلما اقترب فرعون ، رفع بنو اسرائيل عيونهم ، وإذا المصريون وراءهم ففزعوا جداً ، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب قالوا لموسى . هل لأنه ليست لنا قبور في مصر ، أخذتنا لنموت في البريـة ! ! ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر ؟ أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين : كف عنا فنخدم المصريين ، لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية !

وإذا كانت التوراة قد تحدثت هنا ، عن بدء التمرد اليهودي

على نبيهم وقائدهم موسى عليه السلام ، فاننا سنرى الكثير من هذا التمرد الذي وصل إلى حد الكفر خلال حياة موسى ، واثناء السنوات الاربعين التي حال الله بينهم وبين التحرك منها إلى فلسطين .

وإذا كان هذا حديث التوراة ، فان القرآن الكريم ، روى في تفصيل واف فرار اليهود عبر البحر إلى برية سينا ، وختم قصة فرعون بأنه رأى برهان ربه ، والماء مطبق عليه « فآمن » واستغفر ربه عن عصيانه .

ففي سورة يونس الآية الآتي نصها :

« وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنودُه بغياً وعَدْوا ، حتى إذا أدركه الغرقُ قال آمنت انه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » ! (٨٩) .

هذا ما ورد في القرآن الكريم عن خاتمة فرعون .. إيمان بعد كفر ..

أما اليهود ، فقد ورد عنهم في التوراة ـ الاصحاح الخامس عشر ـ خروج انهم أخذوا يترنمون بنشيد الفرح ، فهذا نصه :

هذا الهي فأمجده .
اله أبي فأرفعه .
الرب « رجل » حرب ! !
يمينك يا رب تحطم العدو
من مثلك بين الالهه يا رب !

ولم يكتف اليهود بتمجيد الرب لأنه أنقذهم من فرعون وجنوده ، ولكنهم طلبوا أن يحارب لهم أهل فلسطين ،حتى يذوب جميع سكان كنعان .. ورقصت النساء ، وضربت أخت هارون الدفوف بيديها .

ولكن ما أن واجههم العطش في مسيرتهم بصحراء سيناء ، حتى

انهالوا على موسى لوماً وتقريعاً ، وتمنوا لو أنهم لم يتركوا مصر ، وأنهم كانوا جالسين عند قدور اللحم يأكلون الخبز والمرق حتى يملأوا بطونهم شبعاً .. وهذا من تعبيراتهم ، وليس من كلامنا ، وما أكثر تمرد اليهود خلال السنوات الاربعين التي أقاموها في سيناء ، وما أكثر خطاياها .

الوصايا العشر :

كيف نزلت الوصايا العشر على موسى ، كان ذلك في الشهر الثالث من دخولهم سيناء واقترابهم من الجبل ، فهذا ما ترويه التوراة في الاصحاح التاسع عشر من سفر الخروج .

« وأما موسى ، فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلاً .

« هكذا تقول لبيت يعقوب ، وتخبر بني إسرائيل .. أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين ، وأنا جعلتكم على أجنحة النسور وجئت بكم إليّ . فالان ان سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي ، تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب . فان لي كل الارض . وأنتم تكونون لي مملكة كهنة ، وأمة مقدسة . »

واذن كان تصوير اليهود لانفسهم في التوراة على أنهم أمة مختارة ، وجنس يفوق الاجناس ، وان الله يعطيهم ولا يأخذ منهم .. يعطيهم ولا يأخذ منهم خلقاً ، ولا عدلاً ، ولا كرامة .

قالت التوراة ان الرب أمر اليهود بأن يغسلوا ثيابهم ، ويستعدوا لليوم العظيم .. ويبدو أن موسى حاول كثيراً ، وهو في مصر ان يحمل اليهود على التزام قواعد النظافة التي كان يهتم بها المصريون كثيراً . ولم يكن ذلك لاسباب دينيه ، ولكن صحية ، فكثيراً ما كانت تفشو بينهم الامراض .. ولهذا لا تعجب اذا اشترط « الرب » أن يفدوا إلى سفح الجبل بثياب نظيفة .

ويبدأ الرب يتكلم والوصايا تسجل :

الوصية الاولى : « أنا الرب الملك الذي أخرجك من ارض مصر ، من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة اخرى امامي » .

وهنا نجد أن أول الوصايا ، هي اقرار مبدأ التوحيد كما جاء به ابراهيم الخليل

الوصية الثانية : « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما في السماء من فوق ، وما في الارض ، لا تسجد لهن ، ولا تعبدهن . لأني انا الرب الملك ، اله غيور افتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي ، واصنع احساناً إلى ألوف من محبي ، وحافظي وصاياي » .

وهنا نجد اقراراً لمبدأ الانتقام والثأر المستمر من الذرية إلى الجيل الرابع ، حتى لو لم يذنب منهم أحد ، ولو لم تسمع الذرية بما صنعه الاجداد ، لتحمل وزره .

الوصية الثالثة : « لا تنطق باسم الرب الملك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلا » .

وهذا مبدأ طيب لصيانة الذات الالهيه من عبث المخلوقات ، ولكن ما أكثر ما ادعى اليهود على الله باطلا ، وهل معظم ما في التوراة صحيح وقد مر بنا بعضه ؟ أم أنه افتراء وعدم تنزيه للذات الالهية عن عيوب الناس .

الوصية الرابعة : اذكر يوم السبت لتقدسه ، ستة ايام تعمل ، وتصنع جميع عملك . وأما اليوم السابع ، ففيه سبت للرب الملك . لا تصنع عملاً ما ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك ، وبهيمتك ، ونزيلك الذي داخل أبوابك لان في ستة أيام صنع الرب السماء والارض

والبحر وكل مافيها . و استراح في اليوم السابع « لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » .

هل عمل اليهود من بعد موسى بهذه الوصية . ان يوم السبت كان من ايام حروبهم وعدوانهم في فلسطين وسينا منذ وضعوا أقدامهم فيها قديماً ، حتى تسربهم إليها مع الاستعمار الانجليزي وخلال حربهم الاخيرة في سينا وسوريا والاردن .

الوصية الخامسة : « اكرم اباك وأمك لكي تطول أيامك على الارض التي يعطيك الرب الهك » .

وقد مربنا ما صنعه جدهم يعقوب بأبيه اسحق من خديعة .

الوصية السادسة : « لا تقتل ... »

وقد فهم اليهود عن هذه الوصية أنهم لا يقتلون اليهود ، أما غيرهم من الناس فدماؤهم حلال لهم وشاهدنا كيف افتتحوا أيامهم في فلسطين بمذبحة أريحا الفظيعة .

الوصية السابعة : « لا تزن ... »

الوصية الثامنة : « لا تسرق ... »

هذا مبدأ طبيعي وأصيل . ولكن إذا تذكرنا وصية الرب لليهود مرتين بأن يسرقوا المصريين قبل مبارحة أرضهم ، نجد ان هذه المبادئ ، انما تنطبق على ما يحدث بين بعضهم والبعض الاخر ، لا مع غيرهم من الناس .. ولهذا لا يدهشنا ان اليهود مارسوا حياة احتيال مستمرة مع جميع الاجناس والعناصر التي عاشوا معها .

الوصية التاسعة : « لا تشهد على قريبك شهادة زور » .

وهذه الوصية بدورها تؤكد ان ما يقيد اليهودي مما جاءهم به موسى ،

لا يقيده بالنسبة لبقية الناس من غير اليهود ... ان الامر منصب على « القريب » ولا يشمل غيره ...

الوصية العاشرة : « لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ، ولا شيئاً مما لقريبك » .

وهذه الوصية بدورها تقصر منع الغصب على مافي يد اليهودي .

* * *

واذا تأملنا هذه الوصايا بصفة عامة ، نجدها وصايا صالحة لتنظيم الجماعة في أول أطوارها الحضارية .. نظرتها نظرة قبلية ضيقة الحدود ، وآفاقها لم تمتد إلى بعيد .. إلى ما يمكن ان تكون عليه العلاقات الانسانية بصفة عامة .

وفي الوقت الذي تقول التوراة ان موسى قدم هذه الوصايا لقومه ، كانت هناك أقوام سبقت عهد موسى ، لها شرائع أصيلة مستقرة جديرة بالاحترام .. فشرائع المصريين في الدولة القديمة والدولة الوسطى التي ظهر أثناءها موسى ، وخروج قومه من مصر ، كانت شرائع مجتمع كامل النمو ، يحيا حياة مليئة بالصحة الحضارية .. وكذلك كان الحال مع الاشوريين والهنود والصينيين .

واذا نحن تأملنا هذه التطبيقات للوصايا العشر ، التي أوردتها التوراة ، نجد كلاماً كثيراً جدا عن عقوبة الثور الذي ينطح انساناً أو ثوراً .. (يرجم ، ولا يؤكل لحمه) .. فإن التفريعات والحالات التي يتم فيها النطح تشعرك وكأن اليهود في حلبة مصارعة مستمرة مع ثيرانهم ! !

ويبدو ان رحلة خروج اليهود من مصر ، كانت مؤثرة جداً على طقوسهم وآدابهم بصفة عامة . فنحن نجد التوراة توصي بالغريب : « ولا تضايق الغريب . فانكم عارفون نفس الغريب ، لأنكم كنتم

غرباء في ارض مصر» ، وثلث عبادة اليهود ، خصصت للاحتفال بالخروج من مصر ، ففي الاصحاح الثالث والعشرين من سفر الخروج .

« ثلاث مرات تعيد لي في السنة . تحفظ عيد الفطير » تأكل فطيراً سبعة أيام كما أمرتك في وقت شهر أبيب . لأنه فيه خرجت من مصر . ولا يظهروا أمامي فارغين .

الوصايا في الانجيل :

وعندما عرض السيد المسيح عليه السلام للوصايا اجملها ، كما ورد في إنجيل لوقا على النحو الآتي :

«وسأله رئيسي قائلاً : أيها المعلم الصالح ماذا اعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ »

« فقال يسوع : لماذا تدعوني صالحاً .. ليس أحد صالحاً الا واحداً وهو الله ؟ أنت تعرف الوصايا . لاتزن لاتقتل . لاتسرق . لاتشهد بالزور . أكرم أباك وأمك »

« فقال : هذه كلها حفظتها منذ حداثتي »

« فلما سمع يسوع ذلك قال له : يعوزك ايضاً شيء . بع كل مالك . ووزع على الفقراء فيكون لك كنز في السماء .. وتعال اتبعني »

« فلما سمع ذلك حزن ، لأنه كان غنياً جداً »

« فلما رآه يسوع قد حزن ، قال : ما أعسر دخول ذوي الاموال الى ملكوت الله . لأن دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله .. »

وواضح من هذه الكلمات مدى النظر الذي أدخلته الدعوة المسيحية على العقيدة اليهودية .

الوصايا في القرآن :

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوصايا العشر ونجدها هنا صافية ، خالصة ، مشرقة بالخير ، موجزة في الاداء ..

ففي سورة البقرة :

« وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل ، لاتعبدون الا الله وبالوالدين احساناً ، وذي القربى ، والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة .. »

وقد تحدثت التوراة الحالية عن لوحين دونت فيهما كلمات « الرب » لموسى ، وكثيراً ما رسم كبار الفنانين وصور كبار المثالين سيدنا موسى وفي يده هذان اللوحان . اما من اين جاء عدد الالواح ، فقد كان مصدره ما ورد في سفر الملوك الاول ، عند عرض سيرة سيدنا سليمان . فقد ذكر انه بعد ان بنى اول معبد يهودي في أورشليم ، احضر « تابوت » الرب ، وكان قبل ، ومن عصر موسى في خيمة ، وكان في التابوت اللوحان اللذان تركهما موسى .

واذن فنحن بازاء أول تدوين لوحي نزل من السماء على نبي الله موسى . وكانت الكلمات قليلة ، مما يتسع له لوحان يحملهما رجل واحد . وقد ذكرنا قبل احتمال ان اللغة الهيروغليفية (اي المصرية القديمة) يحتمل ان تكون لغة هذا الجيل من اليهود الهاربين من مصر ، وأن الالواح كانت بهذا اللسان .

ويسمي اليهود ترجمتهم للوصايا ، ثم للتوراة (ترجوم) . وفي تقدير الاستاذ جويدي[1] ان بعض اجزاء كتب اليهود المقدسة محرر

---

١ – محاضرات في الجامعة المصرية القديمة عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ .

باللغة الارامية ، واليها نقلت جميع الكتب المقدسة وعنده ان كتب اليهود صنفان : الاول ما ألهم به الله في اعتقادهم لموسى وللانبياء وهو ما يجب قراءته . والصنف الثاني الشريعة الشفهية ، أي ما ندب اليه موسى قولاً ـ لا كتابة ، ونقل عنه بالروايات اللسانية ، مما لم تنطق به التوراة ، ويحتوي على سنن ونصائح ، ايضاحاً لما جاء في التوراة . ويقال لهذا الكتاب « التلمود » أي التلمذة والتعلم .

والتلمود على قسمين : واحد يتضمن الفرائض الدينية ، وهو باللغة « العبرانية » والثاني يتضمن شرح فقهائهم لهذه الفرائض ، وهو باللغة الارامية . واليهود يعتقدون ان « المقرا » كلام الله المنزل . واما التلمود فمن عندهم . ومنهم من يقبله ، ويقال لهم الربانيون . ومنهم من يرفضه ، ويقال لهم القراءون . وقد سموا بذلك لأن اساس عقيدتهم المقرا وحدها .

وترجم المقرا من العبرانية إلى اليونانية في زمن ملك مصر بطليموس الثاني . ثم نقلت هذه النسخة إلى اللاتينية ومنها الى اللغات الأوربية . اما ما ثبت لدى اليهود هو الترجمة السريانية ... وكلمة توراة عبرية ، ومعناها الارشاد أو الهدى .

ــــ وإذا كانت الوصايا العشر قد ظهرت في عصر موسى ، فان أول تدوين معروف كان أيام الاسر البابلي عام ٥٨٦ ق . م أي بعد سيدنا موسى بحوالي ألف سنة ، وكان ملك بابل بختنصر ، هاجم أورشليم ، وضربها ، وهدم الهيكل الذي بناه سليمان ، وساق جميع اليهود اسرى إلى نهر الفرات . وهؤلاء كانوا أهل المملكة اليهودية الجنوبية . اما الشمالية فزالت قبل ذلك ــ عام ٧٢٢ ق . م ــ على ايدي الاشوريين ..

تدوين التوراة :

وفي فترة الاسر البابلي ، كانت لغة اليهود ، هي لغة أهل الفرات ــ أي الارامية ــ

واذن فنحن بازاء تدوين تأخر ألف سنة ، واعتمد على رواية الافراد ، أو على خيالهم . وضموا اليه الكثير من العقائد الوثنية السائدة حولهم . والتي كثيرا ما ارتدوا إلى عبادة اربابها ، حتى يظهر بينهم من يردهم الى التوحيد . وفي مواضع كثيرة من التوراة الحالية ، نجد المؤلف أو المؤلفين يشيرون إلى آثار ويقولون : وهي باقية إلى يومنا هذا . ومن ذلك وهم يصفون نقل تابوت الرب إلى معبد سليمان ان عصياً كانت قد نقلت ، قالوا عنها (ملوك اول اصحاح ٨) ، «وهي هناك إلى اليوم» وفي هذا اشارة صريحة إلى ان الذي كان يقوم بالتدوين ، تحدث عن زمن سابق ، يستشهد على احداثه ببعض المخلفات .

ومما يستوقف النظر ما ورد في التوراة عن النبي أرميا ، انه أملى التوراة ، وعرض ما كتبه على الملك «وكان الملك جالساً في بيت الشتاء ، والكانون قدامه متقد . وكلما قرأ ثلاثة سطور أو اربعة ، شق المكتوب بمبراة ، وألقاه في النار التي في الكانون حتى فني المدرج (ملف الورق) في النار» .

والسبب في اتلاف ما كتبه أرمياً من التوراة ، انها تضمنت نبوءة مؤداها ان البابلين يهلكون كل ما كان عائشاً على ارض اليهود من انسان وحيوان . وتقول التوراة ان ارميا اعاد كتابة التوراة التي احترق اصلها ، وزيد عليه ايضاً كلام كثير مثله»

ويفهم من هذا النص ان أنبياء التوراة ، كانوا يدونون خواطرهم ، ويزيدون عليها حسب الظروف التي تمر بهم .. واذا كان موسى قد دون وصاياه على الالواح باللغة المصرية فانها كما هو واضح من نصوصها تكون صفحات قليلة ، يمكن حفظها ، أو حفظ مضمونها . اما الفترة التي سبقت موسى ، وامتدت إلى عصر ابراهيم الخليل ، فلم نعثر على نص يدل على ان شيئاً من التدوين حدث خلالها .. وتأتي بعد هذه القرون العشرة فترة الانبياء والقضاة ، الذين كثر عددهم ، حتى ان

عشرات منهم كانوا يظهرون في وقت واحد ، وقد وصفوا بأنهم يشبهون إلى حد ما شيوخ الطرق ، والدراويش ، الذين تشغلهم العبادة ، ويتبعهم بعض المريدين .

ولا يمكن في شعب ، حظه من التقدم الحضاري محدود جداً ، ووقته كله تقريباً مشغول في المعارك ، أو في السبي والاسر ، أن ينشأ فيه تدوين منظم ، وإنما تنشأ فيه ملاحم وأغان ، أسميت المزامير ، يسهل حفظها وترديدها أثناء المناسبات الدينية وحفلات الرقص . كما تنشأ قصص شعبية تأخذ صورة القداسة ..

وفي القرن الرابع قبل ميلاد المسيح بدأ عصر تجميع هذه الحصيلة من ذاكرة الناس ، ومن البقايا المتفرقة الباقية بعد الحريق والغرق والتلف ، التي يحتمل ان تكون في المعابد الناجية ، أو لدى بعض الاسر التقية . وهو تجميع لتراث طال عليه العهد قرابة عشرة قرون حتى عصر موسى ، ورواية لاحداث سابقة على عهد موسى استمرت فترة مماثلة تقريباً ..

واذا كان تدوين تاريخ المصريين القديم ، اقتضى مراجعة كميات هائلة من النقوش الباقية في المعابد والاحجار ، على اوراق البردى ، وتخصص خلال قرنين من الزمان آلاف من علماء الآثار المصرية في قراءة وتفسير هذه النصوص بلغاتها القديمة .. اذا كان هذا قد حدث بالنسبة لمصر الان ، فمن الواجب ان نقف طويلاً ، أمام الذين جمعوا تاريخ اليهود ، وتوراتهم . وكان ذلك قبل أربعة قرون من ميلاد المسيح . فان معرفة اللغات الكثيرة التي تكلم بها اليهود منذ عهد ابراهيم الخليل ولمدة عشرين قرناً بعده ، تصعب بطبيعة الحال على فرد أو افراد من اصحاب النوايا الطيبة الذين تفرغوا لعملية جمع التوراة .

ولهذا لا نعجب ان وجدنا الكثير من المتناقضات في النص الحالي للتوراة . ورواية احداث بعينها لا علاقة لهم بها ، وادخال تاريخ بعض

أنبياء التوراة في تاريخ البعض الاخر ، واهمال بعض الاحداث الرئيسية عن عمد ، مثل حادث ابراهيم الخليل مع اصنام قومه ومحاولة احراقه ونجاته ، ومثل رحلته مع زوجه المصرية هاجر وابنه اسماعيل إلى الحجاز ، وما حدث له هنالك ، وحادث بناء الكعبة . وهذه واقعة من أشهر معالم التاريخ القديم ، التي لا تزال باقية للآن ، وستظل ملاذ المؤمنين إلى أبد الابدين ، باذن الله العلي القدير .

وكذلك يوجد « التلمود الذي يتكون من حوالي ١٥ جزءاً وقد تم تأليفه بعد قرنين من ميلاد المسيح . أي أن حجمه يزيد على حجم « التوراة المتداولة أربعة او خمسة أمثال .. والملخصات السريعة التي ظهرت للتلمود لا تعبر عن الأصل الـذي أجيد اخفـاء نسخه لأنه رسم برنامجاً كاملاً لتدمير المسيحية والقضاء عليها .

وفي القرن الثاني عشر المسيحي ، أي بعد ظهور الاسلام ، ظهرت دراسات مكتوبة للتوراة ، استندت إلى كثير من النصوص القرآنية لتعدل من الانحرافات الموجودة في الكتب السابقة « ولا سيما بعد ان تعلم اليهود الذين عاشوا تحت حكم المسلمين ، اللغة العربية القرآنية ، وأدركوا مغزى الحملة الضخمة التي شنها القرآن الكريم على النصوص المحرفة للتوراة حتى أفقدها اعتبارها ..

تحريف التوراة :

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن التوراة المصنوعة بأيدي اليهود ، وتعديلهم وتبديلهم فيها :

ففي سورة البقرة : (٧٥)

« أفتطمعون ان يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون . واذا لقوا الذين آمنوا ،

قالوا آمنا ، واذا خلا بعضهم الى بعض ، قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، أفلا تعقلون » .

ومضت سورة البقرة تتحدث في صراحة عن تزييف التوراة بما أضاف اليهود اليها من كلام زعموا ان السماء ارسلته ، وما هو الا من وضعهم ، وترجمة لخيالهم المريض .... قالت سورة البقرة :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم . ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وقد تكرر وصف القرآن الكريم لتحريف التوراة عشر مرات في خمسة سور منه .

ولم يكن القرآن وحده في وقت نزوله الذي وصف التوراة بالتحريف ولكن الدراسات الحديثة التي بذل علماء اليهود فيها آية جهدهم تؤدي أيضاً إلى هذه النتيجة .

« ومثل لذلك الدراسة التي قام بها « موسى جاستر » عن نسخة التوراة القديمة وطبعت في لندن في نسخ محدودة مشفوعة بتصوير كامل للنسخة موضوع الدراسة فقد اعترف في مقدمته بأن هناك خلافاً عميقاً بين « الكتاب » و « الملفات »[1] التي نقلت نسخ منها لتودع في جميع المعابد اليهودية .. وان هذا الخلاف يصل إلى ادق التفاصيل . وفي أكثر من مكان من هذه الدراسة عبر هذا الكاهن اليهودي عن الظلام الكثيف الذي يحيط بـ « مؤلفي وتواريخ ومصادر هذه النسخ الاولى للتوراة » .

وتقطع دائرة المعارف البريطانية ، بأن التوراة ليست كتاباً واحداً ،

---

١ — ص ٧ و ٨ من الدراسة المذكورة باللغة الانجليزية .

ولكنها مجموعة كتب ، استغرق تأليفها قرونا عديدة ولم تكتب بلغة واحدة ، ولكنها كتبت أول أمرها بالعبرية الارامية والاغريقية . وقد اشترك في تأليفها الراعي والملك ، ورجال لهم قدر من العلم ، وآخرون حظهم من المعرفة ضئيل .

ومن الغريب ان المسيحيين هم الذين جدوا ـ في القرن التاسع عشر ـ في نشر التوراة ، وترجمتها إلى عديد من اللغات (٢١٩ لغة ولهجة) وقد ترجمت إلى اللغة الواحدة مرات عديدة ، وربما كانت الترجمة العربية هي أكثرها ركاكة . وكان الآباء البروتستانت أكثر جداً في القيام بهذه المهمة .

وقد جد اليهود في جمع اكتتابات سنوية لمضاعفة الكميات المعروضة للبيع من التوراة ، وبلغت هذه التبرعات مليوني جنيه في العام لخفض السعر إلى مستوى سعر الورق الخام .. وتزيد النسخ الموزعة منها سنوياً على ثلاثة ملايين نسخة .

والهدف الاساسي من هذا الجد في النشر ، ولا سيما في البلاد الحديثة النمو . هو اذاعة ما ورد فيها منسوباً « للرب ! » بأن اليهود لا بد عائدون ، وسوف يسيطرون على الارض بين النيل والفرات ، ويبيدون اهل هذه المناطق « قليلاً .. قليلاً » كما ورد في التوراة . وتأكيد انهم جنس سيد متفوق على كل الاجناس .

واذا كانت التوراة قد نالت هذه العناية ، في الترجمة والاذاعة ، فان التلمود ظل كتاباً سرياً باجزائه الخمسة عشر ، وهو من تأليف الحاخامات وكبار الكهان .. وذلك لما يتضمن من تجديف في حق « الرب » ، والذي نسب له الحاخامات أنه اخطأ عندما خلق القمر أصغر من الأرض ، وتضاءل حجم الرب ! ! « ولأنه وافق على هدم الهيكل » ،

إلى آخر هذه الخرافات .. ولكن ليس الحياء وحده هو مبحث التزمت في حجب التلمود ، ولكن ما تضمنته من التعاليم السرية ، التي يتبعها اليهود في استعمال كل الوسائل لكي تتسلط اسرائيل على المسيحية وتبيدها . وكذلك تسيطر على بقية الأمم لكي يصبح اتباعها عبيداً لليهود ... ووسيلتهم هي الجنس والمال والقتل .

وجملة القول أن التوراة الحالية [حوالي ١٤٠٠ صفحة] لم تثبت في دراستها العلمية للنقد ، ولم تؤخذ كلها على أنها كتاب منزل من السماء . مثل ماثبت في نزول القرآن الكريم ، وفي تدوينه وجمعه . وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك توراة ، ولكن معناه أن التوراة الحقيقية المنزلة من السماء وحياً على الأنبياء ، ليست هي التي بين أيدينا . وقد توصل علماء الأديان المقارنة من الغربيين ، ومن المسلمين [١] إلى رد كثير من مادة التوراة في أصولها القديمة في حكم وآداب المصريين القدماء والبابليين .

ولم يقصد الاسلام ، ولم يقصد القرآن إلى التفرقة بين اتباع الأديان السماوية ، ولكن دعا إلى تصحيح العقيدة ، بعد ان شابها زيغ كثير .

ان سيدنا محمداً عليه الصلاة السلام هو الذي قال : نحن اولى بموسى منكم (اليهود) . وذلك بمناسبة صوم اليهود يوم عاشوراء لأن الله أنجاهم من حكم ظالم في مصر . وهو عليهالصلاة والسلام الذي قال : « أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة . ليس بيني وبينه نبي والأنبياء أخوة لعلات : أبوهم واحد ، وأمهاتهم شتى » صدق رسول الله ...

---

١ — ابن حزم في كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل — الجزء الأول .

فهـــرس

رقم الإيداع ٨٣/١٨٣٣ الترقيم الدولي ٣ ـ ٠٠٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧ ISBN



القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٧٧٤٨١٤ ـ ٩٥٦٢٩٩ ـ برقيا : شروق ـ تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ، ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٣١٥٢٠٤ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE